مكتبة الدراسات الأدبية

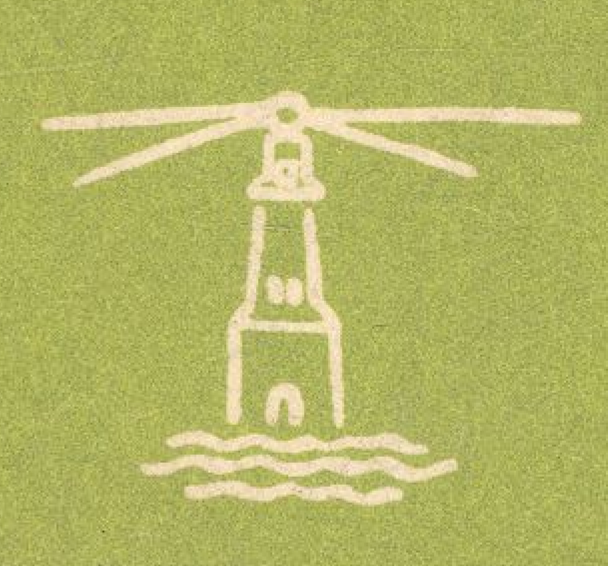
١٨

على صافى حسين

ابن دقيق العيد

حياته وديوانه

٤٩



دار المعارف بمصر

ابن دقيق العيد

حياته وديوانه

مكتبة الدراسات الأدبية

١٨

ابن دقيق العيد

حياته وديوانه

دراسة فى الأدب المصرى

بحث تقدم به

علي صافى حسين

للحصول على درجة ماجستير آداب جامعة القاهرة قسم اللغة العربية



دار المعارف بمصر

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر — ٥ شارع ماسبيرو — القاهرة

الإهـــداء

إلى التي جعلت حياتي أملاً بعد يأس ، ونوراً بعد ظلام ، وفرحاً بعد ترح ، وهناءة بعد حرمان .

إلى التي أذهبت عني الكآبة والحزن ، وأنستني صنوف الآلام ، وغمرت نفسي بالجذل والحبور ، والبهجة والسرور . وملأت فراغ قلبي بأجمل الأحلام .

إلى التي عودتني الصبر والجلد ، وعرفتني طريق الكفاح — طريق الفوز والنجاح .

إلى التي أفاضت عليّ من روحها قوة ومضاء ، وعزيمة واجتهاداً . ثم إيماناً وطيداً بمستقبل مشرق بسام .

إلى زوجتي المخلصة الوفية أهدي باكورة إنتاجي العلمي والأدبي .

إليها وحدها أهدي هذا الكتاب .

علي صافي حسين

بسم الله الرحمن الرحيم

القسم الأول من البحث

تقديم

أرى أن دراسة الأعلام السابقين من أساطين الفكر وأئمة الدين ومن عباقرة فن القول وأرباب البلاغة والبراعة وترجمة حياتهم تهدف أولا وبالذات إلى إعطاء اللاحقين أو المتأخرين من طلاب المعرفة ورواد الأدب صوراً ناطقة معبرة تمثل — فى مطابقة تصدق على قدر جهد الباحث — شخصيات أولئك المتقدمين من الجهابذة الناقدين والعلماء المحققين والشعراء المفلقين والكتاب الضالعين والخطباء اللسن المصاقع . فهى — أعنى تلك الصورة المتحصلة من دراسة أولئك الأفذاذ — تجسم فيما تحتوى عليه من ملامح وقسمات عواطفهم وإحساساتهم وتبين أهواءهم ، وتفصل آراءهم ، وتكشف عن عقلياتهم وتبرز إلى حيز الوجود الفكرى والثقافى طاقاتهم العلمية وملكاتهم الفنية . فينضاف بذلك لبنة أو لبنات جديدة فى بناء العلم وصرح الفن ودنيا الأدب . وبالتالى يفيد من ذلك فائدة مرجوة طلاب المعارف وعشاق الآداب . وكل ذلك لا يجيء على الوجه المرضى ولا يتأتى منه الغرض إلا إذا كانت دراسة العالم أو الأديب وترجمة حياته قائمة على التدبر والتأمل والفهم الصحيح .

ونحن إذا أردنا أن تكون أفهامنا لأولئك الأشخاص أدنى إلى الصحة وأقرب إلى الصواب ، وأحكامنا عليهم أدخل فى الإنصاف والسداد فإن علينا أولا أن نجمع ما خلفوه من نصوص وأقوال حتى نستوعب كل ما أمكننا أن نصل إليه من ذلك أو نقف عليه ثم نحقق تلك النصوص ونتثبت من صحة نسبتها إلى قائليها . وبعد ذلك ننظر بعين التحقق والتثبت والنقد والتمحيص فيما قيل فى حق موضوع الدرس أو الترجمة من أحكام وآراء من الذين هم عاصروه وخالطوه أو الذين هم ترجموا له من الذين لم يلقوه ولا رأوه وإنما سمعوا به وقرءوا عنه .

وأخيراً وليس آخراً نتفهم العصر الذى كان يعيش فيه المترجم له أو من اختير موضوعاً للبحث العلمى والتحقيق الأدبى كالذى نحن بصدده فى هذا البحث من دراستنا لابن دقيق العيد .

ولست أعنى بالعصر الزمان أو الشهور والأيام وإنما أقصد تلك العناصر والمقومات التى تتألف منها حياة الجماعة البشرية وهى الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية . وإننا حين ندرس العصر على هذا الوجه إنما ندرسه لأمرين هما أولا : كون الإنسان كائنا حيًّا يتفاعل فى حياته الفكرية والجسمية مع الوسط الذى يعيش فيه . ولست أريد أن أنساق فى هذه المسألة وراء أولئك العلماء الذين بالغوا فى تصويرهم لمدى ارتباط الإنسان ببيئته ووسطه إذ زعموا أنه ليس إلا أثراً أو نتيجة لتفاعل عناصر البيئة المادية والمعنوية . وإنما أقول فقط إن الإنسان يتأثر بالغ التأثر بما يحدث أو يقع حوله من أحداث وما يكتنف وجوده من مظاهر الحياة الإنسانية وأوضاع الجماعة البشرية ثم هو يتأثر إلى حد كبير بما تكون عليه حال أرض الوطن الذى يعيش فيه من سهولة وانبساط يجعل الحياة فيها سهلة ميسورة . أو وعورة وصعوبة تجعل الحركة والتنقل بين بقاعها عسيرة مضنية . وذلك إذا ما كانت هذه الأرض أو تلك البلاد تكثر فيها الجبال والأودية أو الصحارى والقفار . وكذلك يكون تأثره بالغاً بطبيعة الجو أو المناخ الذى يظلله فى ذلك الموطن إذ لا يستطيع ذو عقل أن ينكر ما لبرودة الجو أو حرارته من تأثير على الأجسام والأبدان والنفوس والميول والرغبات والسلوك والأخلاق .

وأما السبب الثانى الذى من أجله نكلف ونعنى إلى حد كبير بدراسة عصر ذلك الشخص المقصود بالبحث أو الترجمة ، فهو أن الإنسان معقد فى حياته وتصرفاته . وعلماء النفس يعترفون بهذا ويقرونه . فهو — أعنى الإنسان — كثيراً ما يقول بلسانه ما ليس فى قلبه . ومن هنا كان لعصر الشاعر أو الأديب دخل كبير فى تفسير ما قد يعترض الباحث فى تفهمه شخصية من تصدى له بالدراسة من مشاكل منشؤها ما قد يبدو من تناقض فى أقواله وأشعاره

أو سلوكه وأفعاله . وبالجملة فإن على الباحث الذى يريد أن يخرج للناس صورة صادقة تنطبق تمام الانطباق على ذلك الشاعر أو الأديب الذى يختاره موضوعاً للبحث والدراسة وبخاصة إذا أراد أن يقدم ذلك البحث إلى إحدى الجامعات كرسالة يرجو أن يمنح بمقتضاها درجة علمية فإن عليه والأمر كذلك أن يجمع كل ما وصلت إليه يده من نصوص وأقوال تنسب إلى الشخص الذى هو موضوع البحث والدراسة ثم يحقق تلك النصوص ويتثبت من صحة نسبتها إليه . وبعد ذلك يتبين الظروف والأحوال التى قيل فيها ذلك النص ثم ينظر فيما يقال فى حق ذلك الشاعر أو الأديب من آراء أو أحكام تكون له وقد تكون عليه : سواء أكان أصحاب تلك الأحكام أو الآراء ممن عاصروه وقدر لهم لقياه والأخذ عنه أم لم يقدر لهم أن يلقوه ولكن سمعوا به وقرءوا عنه . أو كان أصحاب تلك الآراء والأحكام ممن جاءوا بعده فترجموا له وأرخوه . ولكن الفريق الأول فى رأيى أصح رأياً وأصدق حديثاً .

ثم بعد ذلك تأتى أهمية العصر ومكانته بالنسبة للمنهج العلمى الصحيح الذى يترسمه الباحث فى تحقيق شخصية موضوع الرسالة . وإن كان العصر يجىء متقدماً فى ترتيب الرسالة وتبويبها فى أكثر الأحيان فإنه ليس معنى ذلك أن العصر يحتل بالجدارة والاستحقاق من الوجهة المنهجية مكان الصدارة من البحث أو الرسالة إنما هو فى الواقع ونفس الأمر لمجرد الترتيب والتنظيم فقط . فتقديم العصر إذن فيما أعتقد سواء أكان ذلك فى رسالتى أو رسائل الآخرين ترتيب شكلى أو ظاهرى . وبناء على هذا يكون العصر متقدماً فى الرسالة أو الكتاب من الوجهة المنهجية لفظاً متأخراً معنى ورتبة على حد تعبير النحاة .

وقد التزمت بكل دقة وأمانة ذلك المنهج فى هذه الرسالة فجمعت النصوص وحققتها ونظرت فى كل ما قيل فى شأن ابن دقيق العيد ممن عاصروه أو لم يعاصروه وبعد ذلك تعرفت أوضاع الحياة التى كانت تسود العصر الذى عاش فيه ابن دقيق العيد . وبناء عليه فقد جاء القسم الأول من هذه الرسالة وهو الذى تناولت فيه بالبحث والتحقيق حياة ابن دقيق العيد وتفهم جوانبها فى أربعة

فصول . الفصل الأول فى عصر ابن دقيق العيد وقد تكلمت فيه بإيجاز لا تفريط فيه عن مقومات ذلك العصر وعناصره وهى كما هو معلوم بالضرورة لدى جميع الباحثين والمحققين أربع ، الجانب الأول . الظروف السياسية . الثانى — الأحوال الاقتصادية . الثالث الأوضاع الاجتماعية . الرابع — الحياة الثقافية .

وفى الفصل الثانى مولد ابن دقيق العيد ونسبه ووصف حياته بوجه عام .

وفى الفصل الثالث أوضحت شخصيته العلمية والفقهية ، وخلصت فيه إلى القول بأنه كان ضالعاً فى مختلف العلوم اللغوية والشرعية ، وأنه كان حاذقاً فى المعقول والمنقول و ذلك هو ما ينبغى توفره فى الأئمة المجتهدين . الأمر الذى حملنى على القول بأن ابن دقيق العيد إمام مجتهد لا فقيه مقلد . ولم أكن منفرداً فى هذا الرأى وإنما سبقنى إليه العلامة السيوطى إذ ذكره فى كتابه[1] « حسن المحاضرة» ضمن من كانوا فى مصر من الأئمة المجتهدين ولم يذكره فى عداد الفقهاء المقلدين .

وفى الفصل الرابع تكلمت عن ابن دقيق العيد الأديب الشاعر وانتهيت فيه بعد تتبع أشعاره وأقوال السابقين فيه — إلى القول بأنه كان شاعراً مجيداً وكاتباً بارعاً وخطيباً بليغاً وبينت الفنون التى مارسها وأنشأ فيها القريض .

---

(١) ج ١ ص ١٧٤ ..

الفصل الأول

عصر ابن دقيق العيد

١ ـ الجانب السياسى

لما كان ابن دقيق العيد قد ولد سنة خمس وعشرين وستمائة ومات سنة اثنتين وسبعمائة هجرية . أى أنه ولد ودولة الأيوبيين لا تزال مسيطرة على ربوع مصر والشام ، ومات ودولة المماليك فى أوج عظمتها وعنفوان قوتها . لما كان الأمر كذلك كان الذى يعنينا فى بحثنا هذا هى تلك الفترة التى عاشها شيخنا تقى الدين وهى تنتظم أخريات الدولة الأيوبية وأوائل عصر المماليك . هذا والمعلوم من التاريخ أن صلاح الدين الأيوبى هو الذى أقام فى مصر دولة الأيوبيين على أنقاض دولة الفاطميين ثم ورث عن السلطان نور الدين محمود ابن زنكى بلاد الشام . وهو الذى فتح عكا وانتصر فى حطين ، واستعاد بيت المقدس من أيدى الصليبيين . فلما مات سنة تسع وثمانين وخمسمائة آل الأمر من بعده فى مصر والشام والجزيرة وإقليم ديار بكر وبلاد اليمن إلى أولاده[١] وإخوته نذكر منهم أهمهم وأعظمهم شأناً الملك العزيز أبا الفتح عثمان بن صلاح الدين فى مصر والملك الأفضل السلطان نور الدين على النجل الأكبر لصلاح الدين فى دمشق وما حولها والظاهر غازى فى حلب وأعمالها . والعادل أبا بكر أخا صلاح الدين فى الكرك والشوبك وبلاد جعفر وبلداناً كثيرة بشط الفرات . والسلطان ظهير الدين سيف الإسلام طغتكين بن أيوب أخا السلطان صلاح الدين فى اليمن بمعاقله ومخاليفه .

هذا وقد وصف ابن كثير أحوال الدولة الأيوبية بعيد وفاة صلاح الدين[١] بكلمة موجزة جامعة فقال[٢] .

---

(١) ابن كثير – البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٦ .

(٢) نفس المرجع جـ ١٣ ص ٦ .

« ثم شرعت الأمور بعد موت صلاح الدين تضطرب وتختلف فى جميع هذه الممالك (يعنى بلاد مصر والشام والشرق وإقليم ديار بكر والجزيرة جميعاً) حتى آل الأمر واستقرت الممالك واجتمعت الكلمة على الملك العادل أبى بكر صلاح الدين وصارت المملكة فى أولاده » . ومعنى هذا أن حكم مصر والشام انتقل من صلاح الدين وبنيه إلى أخيه العادل أبى بكر بن أيوب . فلما مات آل الأمر إلى أولاده . وقد كان أولاد العادل هذا فى مبدإ أمرهم أكثر اتفاقاً[١] فيما بينهم من أبناء صلاح الدين . لكنهم ما لبثوا أن تنازعوا[٢] واختصموا وقاتل بعضهم بعضاً[٣] . الأمر الذى أودى بسلطانهم وجعل الأمر يخرج منهم إلى أيدى المماليك . وكان ذلك سنة ثمان وأربعين وستمائة ، حيث كان السلطان طورانشاه بن الملك الصالح نجم الدين أيوب قد أساء معاملة بعض المماليك وقسى على أرملة أبيه شجرة الدر ، وهى التى أخفت موت الملك الصالح لتحفظ[٤] الملك لابنه طورانشاه الذى كان وقت موت أبيه بحصن كيفا[٥] فى بلاد الموصل . فلما تسلطن طورانشاه[٦] وظن أن الأمر قد استتب له اضطهد كما أسلفت جماعة من أمراء المماليك وأساء معاملة شجرة الدر وهى التى حفظت له سلطان أبيه ، فغضب لذلك أكثر المماليك واتفق رأيهم على التخلص منه وانتهى الأمر بقتله .

وقع ذلك كله[٧] بعد أن أبلى طورانشاه بلاء حسناً وبذل جهداً مشكوراً فى قتال الفرنجة مما كان له أكبر الأثر فى انتصار المصريين وهزيمة الصليبيين هزيمة نكراء ، فسر بذلك المسلمون وابتهجوا جميعاً . وفى تلك المعركة المشرفة أسر

---

(١) ابن الأثير — الكامل ج ١٢ ص ٢٣٠ .
(٢) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٣٠ .
(٣) السلوك للمقريزى ج ١ ص ٢٧٥ .
(٤) المرجع السابق ج ١ ص ٣٤٣ .
(٥) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٦٤ .
(٦) المرجع السابق ج ٦ ص ٣٧٠ .
(٧) المرجع السابق ج ٦ ص ٣٦٤ — ٣٧١ .

طورانشاه لويس التاسع ملك فرنسا وسجنه فى دار ابن لقمان وجعله فى السلاسل والقيود ووكل به الطواشى صبيحا . وفى ذلك يقول الشاعر المصرى ردًّا على الملك لويس هذا حين أراد أن يعود إلى مهاجمة مصر فيما بعد . وكان قد أرسل إلى مماليك مصر رسالة يسبهم فيها ويتوعدهم . قال الشاعر فى ذلك قصيدة جاء فيها قوله[1] :

دار ابن لقمان على حالهـا والقيـد باق والطواشى صبيح

وبعد قتل طورانشاه بايع المماليك شجرة الدر بالسلطنة ، وبقيت تسوس الدولة وتدير دفة الحكم فى مصر زهاء ثمانين يوماً . ولولا أن أنكر ذلك خليفة بغداد على أمراء مصر فى خطاب أرسله إليهم يلومهم فيه على توليتهم أمر المسلمين امرأة ، وقال فيما قال لهم فيه : « إن كانت الرجال قد عدمت عندكم فأعلمونا حتى نسير لكم رجلا » . فلولا ذلك لبقيت شجرة الدر سلطانة إلى ما شاء الله .

ومهما يكن من أمر فقد خلعت[2] شجرة الدر نفسها وتزوجت بعز الدين أيبك كبير أمراء المماليك البحرية الذين اشتراهم الملك الصالح نجم الدين أيوب وعددهم ألف وأسكنهم جزيرة الروضة ومن هنا عرفوا بالبحرية نسبة إلى بحر النيل . كما كانوا يدعون أيضاً باسم المماليك الصالحية نسبة إلى سيدهم الملك الصالح نجم الدين أيوب .

وقد بايع المماليك عز الدين أيبك بالسلطنة وتلقب بالملك المعز . وبذلك بدأ عصر المماليك . وكان ذلك كله سنة ثمان وأربعين وستمائة . وابن دقيق العيد فى الثالثة والعشرين من عمره . أعنى أنه قد أدرك من عمر الدولة الأيوبية فترة كانت على قصرها حافلة بالأحداث والتطورات ففيها كثرت الحروب بين المسلمين والصليبيين فى مصر والشام . إذ كان الصليبيون قد عاودهم الطمع فى البلاد الإسلامية لما رأوه من تنازع وتخاصم بين الأيوبيين من جهة وبينهم

---

(١) ابن اياس — تاريخ مصر ج ١ ص ٨٧ وانظر ابن تغرى بردى — النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٦٩ .

(٢) ابن تغرى بردى — النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٧٤ .

وبين أعقاب نور الدين زنكي فى المشرق وبلاد الموصل من جهة أخرى . كما أن التتار أيضاً طمعوا فى بلاد المسلمين وشجعهم على ذلك ما رأوه من ضعف الدولة الإسلامية وتفرق أقاليمها واهتمام كل سلطان أو أمير بما هو فى حوزته دون غيره من أرض الإسلام . وأكثر من هذا فقد كان أولئك الأمراء والسلاطين – كما أسلفت – يقاتل بعضهم بعضاً . الأمر الذى أضعف شوكة المسلمين وأطمع فيهم أعداءهم من الفرنجة والروم والتتار . وأول احتكاك وقع بين الأيوبيين والتتار كان فى بلاد الجزيرة سنة ثمان وعشرين وستمائة[١] .

وبالجملة فقد كانت هذه الفترة التى شهدها ابن دقيق العيد من أيام الأيوبيين فترة عصيبة اضطربت فيها الأمور السياسية والعسكرية وتفاقمت فيها الحروب وكثرت المعارك واشتدت الخصومات واتسع النزاع بين الملوك والسلاطين فى مصر والشام .

وأكثر من هذا فقد كان السلطان يقتل ابن عمه وأخاه . كالذى وقع بين الملك الصالح نجم الدين أيوب وأخيه الملك العادل الصغير ، فقد كان العادل يريد أن يقتل أخاه الصالح ليطمئن على ملكه ولكنه لم يستطع لأن صاحب الكرك الملك الناصر داود[٢] الذى كان قد سجن الصالح نجم الدين أيوب لم يمكن العادل الصغير من ذلك . فلما نصر الجند الصالح نجم الدين أيوب على أخيه العادل قبض الصالح عليه وسجنه ثم أرسل إليه من قتله فى سجنه . وأخيراً انتهت دولة الأيوبيين على تلك الصورة البشعة المؤسفة الأليمة . حيث قتل مماليك الصالح ابنه طورانشاه وتركوا جسده فى العراء مدة حتى تشفع فى دفنه رسول خليفة بغداد[٣]. وبايعوا بعده أرملة أبيه شجرة الدر . وهى وإن كانت من المماليك إلا أن بعض المؤرخين يعدون مدة حكمها استمراراً لدولة الأيوبيين . والبعض

---

(١) ابن كثير – البداية والنهاية ج ١٣ ص ١٢٨ .

(٢) المقريزى – السلوك ج ١ ص ٢٩٠ .

(٣) ابن تغرى بردى – النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٧١ .

الآخر يعدها بداية عصر المماليك . وسواء كانت استمراراً للأيوبيين أو بداية للمماليك فإن الطريف فى ذلك هو أن امرأة كانت مملوكة حكمت المسلمين وتولت أمرهم مدة ثلاثة أشهر على وجه التقريب . وفى مصر من كان فيها من أئمة الدين وعلماء الفقه وحفاظ الحديث ولم يبد أحد منهم أى اعتراض على تولية شجرة الدر أمر المسلمين .

أوائل عصر المماليك

ومهما يكن من شيء فإن المماليك قد بايعوا بعد أن خلعت شجرة الدر نفسها عز الدين أيبك التركمانى وتلقب بالملك المعز ولكن شجرة الدر — التى كانت قد تزوجت به — لم تلبث أن حنقت عليه بسبب اهتمامه بغيرها من النساء فعملت على قتله فى الحمام[١] وأعانها على ذلك بعض الخدم . فآل الأمر من بعده لابنه على وكان صغير السن فجعلت أمور الدولة إلى سيف الدين قطز . أعنى أنه أصبح وصياً على العرش حسب تعبير عصرنا الحاضر . لكنه لم يلبث أن اغتصب السلطنة لنفسه .

وسيف الدين قطز هذا هو الذى انتصر على التتار وهزم جموعهم فى معركة عين جالوت ولولا أن نصر الله قطز وجنوده فى هذه المعركة لتمت للتتار الغلبة على مصر والشام ولعاثوا فى الأرض فساد كما فعلوا من قبل فى بغداد . ومعنى هذا أن سيف الدين قطز يستحق الشكر والثناء من المسلمين أجمعين . كما أنه أصبح بعد تلك المعركة أهلا للسلطنة ولكن الظاهر بيبرس قد وثب عليه وهو فى طريقه إلى القاهرة وقتله من غير ذنب اقترفه . ثم تبوأ السلطنة مكانه فاستاء من ذلك المصريون واغتموا[٢] غير أن الظاهر لم يلبث أن ظفر بحب الشعب وتأييده إذ أعاد إلى الوجود سنة تسع وخمسين وستمائة الخلافة العباسية بعد أن قضى عليها

---

(١) ابن تغرى بردى — النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٣ .

(٢) المقريزى — السلوك ج ١ ص ٤٣٧ .

التتار باستيلائهم على بغداد وقتلهم الخليفة المستعصم بالله سنة ست وخمسين وستمائة وبذلك يكون الظاهر بيبرس قد أضفى على حكمه وحكم من جاء بعده الصبغة الشرعية ومن قبل كان المماليك يعتبرون غاصبين السلطة من بنى أيوب الذين هم كانوا يستمدون شرعية حكمهم من الخليفة العباسى فى بغداد . وبالرغم من وجود تلك الخلافة بين ظهرانى المماليك فقد ظل حال الملك وأمر السلطان على ما كان عليه من قبل . مملوك يقتل سيده وأستاذه ويتولى مكانه فلا يلبث أن يثب عليه هو أيضاً مماليكه والمقربون إليه فيقتلونه أو يخلعونه ويولون غيره . وهلم جرا .

والسبب فى ذلك يرجع فيما أعتقد إلى أن المماليك لم يكونوا يقرون باستحقاق أى إنسان غيرهم بالولاية من الوجهة الشرعية وإنما كانوا يرون أن السلطنة أو ولاية أمر المسلمين هى حق لكل من توفرت له القوة وواتته الفرصة أو هيأت له الظروف الجلوس على أريكة الملك وتبوء السلطان . ومعنى هذا أن المماليك كانوا يتنازعون الولاية فيما بينهم كأسلافهم الأيوبيين . غير أنه لم يكن ليؤدى إلى ضعف الدولة وكسر شركتها وتمكين الأعداء من التغلب عليها كما كانت الحال فى عهد بنى أيوب . لا ، بل إن دولة المماليك الأتراك كانت رغم تشاحن رؤسائها وتنازع أمرائها قوية مرهوبة ذات شوكة وسلطان تهزم كثيراً ولا تنهزم إلا قليلا فهى بحق دولة قوة وبأس وغلبة . هذا وقد كان عصر المماليك استمراراً للعصر الأيوبى من حيث الحرب والقتال فقد ظلت الحروب الصليبية والتتارية طيلة هذا العصر على أشدها .

وبالجملة فإن المماليك قد أمضوا أيامهم فى محاربة الصليبيين والتتار وقد أبلوا بلاء حسناً فلولا المماليك لتم للمغول التغلب على جميع البقاع الإسلامية فى مصر والشام وشبه جزيرة العرب . فالمماليك هم الذين انتهت فى أيامهم الحروب الصليبية ، وهم الذين اضطروا سلاطين التتار إلى اعتناق الإسلام . ومما نلحظه أيضاً من وجوه الفرق بين أخريات العصر الأيوبى وأوائل عصر المماليك أن

الأيوبيين كانوا يتركون محاربة الصليبيين ويشتغلون بقتال بعضهم بعضاً . بل إن منهم من عقد صلحاً مع الصليبيين ليتفرغ لقتال ابن عمه وأخيه كما فعل الكامل بن العادل إذ أعطى بيت المقدس للفرنجة صلحاً[١] كى يستطيع أخذ دمشق من ابن عمه الملك داود بن الملك المعظم . أما المماليك فإنهم كانوا يتناسون[٢] — عند لقاء العدو — ما قد يكون بينهم من ضغائن وأحقاد ومخالفات ومنازعات حتى يفرغوا من قتال عدوهم . فإذا قفلوا راجعين إلى مصر وثب بعض الأمراء المضغنين على السلطان فقتلوه وولوا قاتله[٣] مكانه كما حدث مع المظفر قطز عقب انتصاره على التتار فى موقعة عين جالوت المشهورة على ما سبق أن ذكرناه، وقصارى القول فى هذا العصر — عصر شيخنا تقى الدين — هو أنه كان مليئاً بالتقلبات والتطورات السياسية والدولية . وقد شهد بنفسه عن كثب أحداثاً جساماً ذات شأن عظيم وخطر كبير أثناء توليه القضاء . فقد حدث على سبيل المثال أن وثب حسام الدين لاجين وأنصاره على السلطان كتبغا المنصورى وهم فى طريقهم إلى مصر فأرادوا قتله فلما علم بذلك الملك العادل كتبغا رجع هارباً إلى دمشق . وتمت الولاية لحسام الدين لاجين ولكنه لم يلبث أن قتل هو ونائب سلطنته منكوتمر سنة ثمان وتسعين وستمائة هجرية وفى سنة ٦٩٩ هـ خرج السلطان الناصر بن قلاوون إلى الشام لقتال التتار. وكان معه فى هذه الحملة القضاة الأربعة ومن بينهم الشيخ تقى الدين بن دقيق العيد[٤] وقد عاد عسكر الناصر إلى مصر منهزمين . ومما يجدر ذكره أن الأمير سلار وبيبرس الجاشنكير أرادا أن يجمعا من الشعب مالا باسم السلطان لتقوية العسكر فأفتى بجواز ذلك ابن الخشاب . أما ابن دقيق العيد فلم يجزه وامتنع[٥] عن الإفتاء لأنه كان يعلم أن الأمراء وأرباب الدولة يستحوذون على المال والشعب فى حالة اقتصادية سيئة .

---

(١) ابن الأثير — الكامل جـ ١٢ ص ٣١٤ .

(٢) المقريزى — السلوك جـ ١ ص ٨٨٤ .

(٣) المرجع السابق جـ ١ ص ٤٣٦ .

(٤) ابن اياس — بدائع الزهور جـ ١ ص ١٤٠ .

(٥) المقريزى — السلوك جـ ١ ص ٨٩٨ .

وأيًّا ما كان فإن ابن دقيق العيد قد تأثر بهذه الأحداث وغيرها مما وقع فى أثناء توليه القضاء تأثراً مباشراً فى أحكامه وأقواله ومواقفه من الأمراء والسلاطين . على ما سوف نبسطه فى الفصل الثانى .

مكانة مصر وعلاقتها الخارجية

هذا وخير شيء نختتم به كلامنا عن الناحية السياسية فى عصر ابن دقيق العيد أن نتحدث عن مكانة مصر السياسية وعلاقاتها الخارجية بدول الشرق الأوسط ذات الشأن فى ذلك العصر . وذلك على سبيل الإيجاز والاختصار فأقول : كانت مصر طيلة عصر الأيوبيين والمماليك تقوم بدور الزعامة والقيادة للعرب والمسلمين ولا غرو فإن صلاح الدين الأيوبى الذى أقام دولته فى مصر على أنقاض الفاطميين قد بسط سلطانه على مصر والشام وديار بكر والموصل حتى الفرات ؛ أعنى أنه جمع هذه الأقاليم وتلك الأقطار تحت قيادة واحدة كى يستطيع المسلمون تحت قيادته أن يردوا عما بقى فى أيديهم من البلدان عدوان الفرنجة وغارات الصليبيين وأن يستردوا ما كان الصليبيون قد أخذوه من بلدان المسلمين ، وأقاموا فيها دويلات وإمارات كعكا والكرك وبيت المقدس وعسقلان وصور وغير ذلك من مدن الشام .

ويذكر أستاذنا الدكتور محمد كامل حسين فى كتابه « دراسات فى الشعر فى عصر الأيوبيين [1] أن فكرة جمع كلمة المسلمين وتوحيد جيوشهم تحت قيادة موحدة مصدرها السلطان نور الدين محمود بن زنكى غير أنها لم تتحقق بالفعل إلا على يدى صلاح الدين الذى أضحى بفضل ذلك رمزاً للبطولة ومثلا يحتذى فى لم الشعث وجمع الصفوف وإثارة الشعور بالقومية فى العواطف والنفوس .

هذا على أن أمور الدولة اضطربت بعد وفاة صلاح الدين وضعفت شوكتها

---

(١) دراسات فى الشعر فى عصر الأيوبيين ص ٨٦ — ٨٧ .

وعاد الصليبيون إلى مهاجمة مصر واحتلال كثير من أرض الشام كيافا وعكا وصور وغير ذلك كثير وذلك بسبب اختلاف أبناء صلاح الدين وتنازعهم الأمر فيما بينهم ،غير أن الأحوال لم تلبث أن عادت إلى شيء من الهدوء والاستقرار واستعادت دولة الأيوبيين كثيراً مما كان لها فى عصر صلاح الدين من قوة وهيبة وجمع الكلمة وتوحيد الصفوف وذلك بفضل جهود الملك العادل أبى بكر أخى صلاح الدين الذى ولى السلطنة فى مصر بعد السلطان العزيز عثمان بن صلاح الدين ؛ فقد اقتفى العادل أثر أخيه صلاح الدين فى جمع الشمل وتوحيد الكلمة حتى أصبحت مملكته تمتد من أقصى بلاد مصر واليمن والشام والجزيرة إلى همذان كلها[١] .

هذا ويذكر أبو المحاسن فى كتابه النجوم الزاهرة[٢] أن الكامل سلطان مصر مات بقلعة دمشق سنة ٦٣٥ هـ وكان نائبه على الشرق وإقليم ديار بكر ابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب ، ونائبه على مصر ابنه الملك العادل أبا بكر .. وهذا يعنى أن مصر والشام وما كان يسمى بالجزيرة وإقليم ديار بكر وهى الآن فى شمالى العراق كانت تكوّن جميعاً دولة واحدة . وكذلك ظلت مصر والشام والجزيرة تحت سلطان واحد فى أيام الصالح نجم الدين أيوب إذ يذكر المؤرخون ومن بينهم ابن كثير أن الملك الصالح ترك دمشق إلى القاهرة فى المحرم سنة ٦٤٧ هـ ودخل دمشق بعده نائباً عنه فى شهر صفر جمال الدين ابن يغمور وكان ابنه طورانشاه وقتذاك نائبه على حصن كيفا ببلاد الموصل[٣] .

وفى عصر المماليك أصبحت مصر نقطة انطلاق القومية الإسلامية ومحط أنظار المسلمين أجمعين إذ جعلوا يفدون إليها من كل فج وصوب علماء وشعراء وأمراء إذ سقطت بغداد فى أيدى التتار وقتل آخر خلفاء العباسين المستعصم بالله آخر خلفاء بغداد . الأمر الذى جعل المسلمين يلتفون حول سلطان مصر

---

(١) ابن كثير — البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٦٩ .

(٢) جـ ٦ ص ٣٠٣ .

(٣) ابن كثير — البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٧٧ .

ليستطيعوا الوقوف فى وجه التتار وقد تم لهم ذلك فى عصر هؤلاء المماليك . وكان أول نصر ذى بال ــ أحرزه المسلمون ــ على التتار هو انتصارهم فى واقعة عين جالوت بقيادة الملك المظفر سيف الدين قطز سنة ٦٥٨[1]هـ . والقصد من هذا أن نقول إن البلاد العربية المجاورة لمصر قد أصبحت تدين لسلطان مصر كما كانت من قبل فى عهد صلاح الدين الأيوبى وأخيه العادل بالطاعة والولاء أى أن تلك البلاد جميعاً قد انضوت فى وحدة متماسكة تحت لواء واحد هو لواء السلطان فى مصر وأصبحت مصر حاضرة هذا العالم العربى ومقر خليفة الوقت على حد تعبير ابن كثير وسلطان الإسلام[2] ففى أيام الظاهر امتد سلطان مصر إلى بلاد النوبة وبرقة وجميع ربوع الشام والحجاز واليمن وقد قال فيه بعض الأدباء .

تدبر الملك من مصر إلى يمن   إلى العراق وأرض الروم والنوب[3]

وقد جاء فى تقليد الخليفة للظاهر بالسلطنة ما نصه « وأمير المؤمنين يشكر لك هذه الصنائع ويعترف أنه لولا اهتمامك لاتسع الخرق على الراقع وقد قلدك الديار المصرية والبلاد الشامية والديار البكرية والحجازية واليمنية والفراتية[4] . » ومعنى هذا أن البلاد العربية فى الشرق الأوسط كانت تؤلف دولة واحدة عاصمتها القاهرة وهى دار خليفة الوقت وسلطان الإسلام . وفى أيام الناصر محمد بن قلاون أصبحت شبه جزيرة العرب بجميع ما فيها من أقاليم وأقطار كاليمن ونجد والحجاز والحسا والطائف منضوية تحت لواء سلطان مصر وكذلك جميع الأقطار الشامية وبلاد الروم وجبال الأكراد وحصن كيفا وبغداد وغيرها من بلاد الشرق[5] . وإذن فيمكننا أن نقول إن القومية العربية التى استيقظت فى عصرنا الحاضر بفضل ما بذله السيد الرئيس جمال عبد الناصر من جهود مشكورة موفقة فى سبيل بعث تلك القومية وإضرام الشعور بها فى نفوس العرب فى شتى ديارهم ومختلف أقطارهم . أقول

---

(١) المصدر السابق ج ١٣ ص ٢٢٠ — ٢٢١ .
(٢) المصدر السابق ج ١٣ ص ٢٦١ .
(٣) المقريزى — السلوك ج ١ ق ٢ ص ٦٣٨ .
(٤) المقريزى — السلوك ج١ ق ٢ ص ٤٥٤ .
(٥) المصدر السابق ج ٢ ق ٢ ص ٥٣٣ .

إنها وإن كانت جديدة فى ثوبها إلا أنها قديمة فى حقيقتها إذ كانت هذه البلاد التى تسعى وتعمل بل ونأمل من كل قلوبنا أن تتضامن وتتكاتف وتتحد جموعها تحت لواء واحد — كانت كما هو ثابت من التاريخ وواقع الحياة الماضية متضامنة متآلفة يشعر كل فرد من أهل أى من تلك البلاد أن جميع هذه الأقطار من مصر والحجاز والعراق واليمن والشام بلده ودولتها دولته وسلطانها سلطانه ، فهو إن كان مصرياً ثم انتقل إلى الشام لا يحس بأنه غريب عن بلده أو انتقل إلى مدينة غير مدينته وإنما شعوره بأنه فى بلده وموطنه ، ولا غرو فالتقاليد واحدة والعادات واحدة والسلطان واحد ونظام الحكم واحد والشعور بالآلام والأفراح أيضاً واحد .

الجانب الإقتصادى

وبعد هذا العرض الموجز للأمور السياسية والدولية فى عصر ابن دقيق العيد أعرض أيضاً فى إيجاز دون تفريط إلى الأحوال الاقتصادية فأقول :

كانت أمور المعيشة ووسائل الحياة فى هذه الفترة عصيبة لكثرة الحروب التى كانت تقع بين المسلمين والصليبيين والتتار من جهة ، وبين المسلمين بعضهم بعضاً على ما قدمت من جهة أخرى . ولكثرة الأوبئة[1] والأمراض الفتاكة التى كثيراً ما منى بها المسلمون خلال تلك الفترة فى مصر والشام . أضف إلى ذلك ما كان يرتكبه الأمراء وأصحاب الشأن فى الدولة من ظلم الناس واحتكار الأموال[2] وتزييفها والتلاعب بها والاستيلاء بالقوة والبطش على ما تنتجه أرض الفلاحين والزراع من مأكولات ، وكثرة الضرائب على الأفراد والعقارات[3] وأخيراً إجداب الأرض بسبب انخفاض منسوب النيل . وذلك كثيراً ما كان يقع ولكن على تفاوت فى حالات الجدب . فتارة يكون محتملا

---

(١) ابن اياس — تاريخ مصر ج ١ ص ١٠٨ ، السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٠٩ .

(٢) المقريزى — إغاثة الأمة بكشف الغمة ص ٧٠ — ٧١ .

(٣) المقريزى — السلوك ج ١ ص ٤٣٧ ، ٩٠٦ .

وضرره طفيف كالذى حدث فى سنة ٦٢٧ هـ[١] . وسنة ٦٤٣ هـ[٢] وسنة ٦٦١ هـ[٣] وغيرها من ضيق فى العيش وارتفاع فى الأسعار إذ لم يكن هناك مجاعة عامة وإنما كان فقر وإقلال . ولهذا فلم يعد المقريزى جدب هاتيك السنين ضمن المجاعات التى ذكرها فى كتاب « إغاثة الأمة بكشف الغمة » وتارة أخرى يشتد الجدب ويعم القحط وينخفض إلى حد كبير منسوب ماء النيل ويكثر الجراد وتأكل الدودة ما نبت من زرع فى بعض أجزاء الأرض .

وبالجملة فقد كثر فى هذه الفترة الفقر واشتدت الخصاصة ، وعظم الكرب وجاع الناس فى أكثر الأحيان حتى أكلوا الميتة واستمرءوا لحم الآدميين[٤] وقد استفحل — بسبب ذلك الجوع وتلك الفاقة التى سادت أكثر سنى هذا العصر — أمر اللصوص وعظم خطرهم إلى درجة أنهم لم يتورعوا عن نهب قبور الصالحين ومشاهد آل البيت . وشاهد ذلك ما رواه المقريزى فى كتاب السلوك إذ قال ما نصه[٥] :

« نزل خمس نفر فى الليل من الطاقات الزجاج إلى المشهد النفيسى وأخذوا من فوق القبر ستة عشر قنديلا من فضة فقبض عليهم من الفيوم وأحضروا فاعترف أحدهم بأنه هو الذى نزل من طاقات القبة الزجاج وأخذ القناديل وبرأ بقية أصحابه فشنق تجاه المشهد وترك مدة متطاولة على الخشب حتى صار عظاماً » .

هذا وخير شىء يصور لنا مدى ما وصل إليه حال الناس فى ذلك العصر « عصر ابن دقيق العيد » من الفقر والجوع وضنك العيش ما ذكره ابن إياس فى وصفه حوادث عام خمس وتسعين وستمائة ؛ وإليك النص قال[٦] :

---

(١) المصدر السابق جـ ١ ق ١ ص ٢٤٠ .
(٢) ابن تغرى بردى — النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٥٢ .
(٣) ابن اياس — بدائع الزهور جـ ١ ص ١٠٣ .
(٤) المقريزى — السلوك جـ ١ ص ٨١٤ .
(٥) المصدر السابق جـ ١ ق ١ ص ٣٠٦
(٦) ابن اياس — تاريخ مصر جـ ١ ص ١٣٣ .

« دخلت سنة خمس وتسعين وستمائة فيها أجديت البلاد وشح النيل وقد وصل إلى اثنى عشر ذراعاً ثم هبط فشرقت الأراضى ووقع الغلاء والقحط بالديار المصرية وشحط سعر القمح إلى مائة وسبعين درهماً كل إردب وكذلك الفول . وبلغ سعر اللحم كل رطل سبعة دراهم وبيع كل فروج بخمسة عشر درهماً وبيعت البيضة الواحدة بأربعة دراهم وبيعت التفاحة والرمانة والسفرجلة كل واحدة منها بثلاثين درهماً، إذ اشتد الأمر على الناس حتى أكلوا الكلاب والحمير والبغال والخيل والجمال ولم يبق عند أحد شيء من الدواب حتى قيل إنه صار بيع الكلب السمين بخمسة دراهم والقط بثلاثة دراهم » .

ولست بعد هذا النص فى حاجة إلى مزيد من القول فى تصوير الحياة الاقتصادية فى عصر ابن دقيق العيد . ولكنى أقول إن حياة شيخنا تقى الدين كانت إحدى ظواهر سوء ذلك العيش إذ أجمع كل من أرخوه أو ترجموا له على أن الفقر كان يلازمه ولا يكاد ينفك عنه . وشعره يصدق ذلك إذ يقول :

لعمرى لقد قاسيت بالفقر شدة   وقعت بها فى حيرة وشتـــات

إلى آخر ما قال . وقد أوردت الأبيات جميعها فى الفصل الثانى من هذا البحث .

هذا على أن دولة المماليك ، كانت على جانب كبير من الغنى والثراء ووفرة الأموال وبخاصة أيام الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون وابنه الناصر محمد . والسر فى غناء دولة المماليك وثرائها فى ذلك العصر مع ما كان عليه الشعب فى أكثر أوقاته من عوز وإقلال وضنك فى العيش جد شديد يرجع إلى أسباب أهمها أولا :

أولا : احتكارهم للأراضى وحرمانهم الفلاحين والزراع من تملكها ، فقد ذكر ابن أياس فى كتابه[1] تاريخ مصر المعروف « ببدائع الزهور فى وقائع الدهور ما نصه « وكانت البلاد المصرية مقسومة يومئذ على أربعة وعشرين

---

(١) جـ ١ ص ١٣٧ .

قيراطاً منها أربعة قراريط للسلطان ومنها عشرة قراريط للأمراء والإطلاقات ومنها عشرة قراريط للجند كلهم . ومعنى هذا أن الفلاحين والزراع لم يكن لهم حق الملكية وإنما كانوا يعملون ويكدحون فى أرض المماليك وضياعهم وليس لهم إلا ما يقيم الأود » .

ثانيا : جباية الزكاة فقد اتسعت رقعة الدولة وكثر الموالون لسلطان مصر فى المشرق والمغرب ومن مظاهر ذلك ما ذكره المقريزى فى حوادث سنة ٦٦٤ ﻫ إذ قال ما نصه[١] . « وفى جمادى الآخرة سار الأمير أقوش السفيرى ومعه أربعون ديواناً لاستخراج زكاة عرب بلاد المغرب فوصل إليهم وأخذ منهم الزكاة التى فرضها الله وأخذ منهم الحقوق » .

ثالثا : التجارة فقد كانت مصر فى هذا العصر تؤدى للعالم أجل الخدمات بما كانت تطلع به من مهمة نقل التجارة من الشرق إلى الغرب وبالعكس بحكم موقعها الجغرافى وذلك على نحو ما يؤديه الآن مرفق قناة السويس ، وكان سلاطين مصر وأمراؤها بطبيعة الحال يأخذون من تلك القوافل التجارية التى كانت تمر عبر مصر — الضرائب أو الرسوم . هذا على أن أمراء المماليك كانوا يزاولون بأنفسهم مهنة التجارة وشاهد ذلك ما ذكره ابن تغرى بردى فى ترجمته للأمير عز الدين أيدمر إذ قال ما نصه[٢] « وكان محظوظاً من الدنيا له الأموال الجمة والمتاجر الكثيرة والأملاك الوافرة » .

رابعا : وأخيراً تلك المكوس أو المقررات[٣] الفادحة التى كانوا يفرضونها على الأفراد وعلى الأشياء التى تباع وتشترى وعلى أهل الصناعات وأرباب الحرف وراكبى السفن مسافرين أو متجرين .

---

(١) المقريزى — السلوك ج ١ ص ٥٤٤ .
(٢) ابن تغرى بردى — النجوم ج ٧ ص ٢٢٧ .
(٣) المقريزى — الخطط ج ١ ص ٨٧ ، ٨٩ .

الجانب الاجتماعى

أما عن مجتمع ذلك العصر – عصر شيخنا تقى الدين بن دقيق العيد فإنه كان يتألف من عناصر بشرية مختلفة متعددة فمنهم العرب والقبط وبقايا الإغريق والرومان وجماعات من السودانيين والعبرانيين والأرمن والأتراك وغير ذلك ولكنهم كانوا جميعاً ينضوون فى اعتبار العصر نفسه تحت طوائف أو طبقات ثلاث هى :

أولا : طائفة الحاكمين من الأيوبيين والمماليك . أما الأيوبيون [1] فقد اختلف فى جنسيتهم وأصل نشأتهم فقيل إنهم عرب من أحفاد بنى مروان وقيل إن « شادى » جد صلاح الدين كان مملوكاً . ويرجح ابن تغرى بردى أن موطنهم « دوين » بضم الدال وكسر الواو وسكون الياء . وهى بلدة من أعمال أذربيجان فإن أصلهم من الأكراد الروادية وأنه لم يحدث أن دخل أحدهم فى رق أو كان فى يوم من الأيام مملوكاً . وأما المماليك[2] فقد كانوا خليطاً من الترك والأرمن والروم والجركس وغيرهم إلا أن اسم الترك كان غالباً على جميعهم لكثرتهم وميزتهم وكانوا طوائف متميزين بسمات من ينسبون إليه من نسب أو سلطان . فمنهم العزيزية نسبة إلى العزيز عثمان بن صلاح الدين ومنهم الصالحية نسبة إلى الصالح أيوب . ومنهم البحرية نسبة إلى القلعة التى بناها الصالح بين شعبتى النيل إزاء المقياس . وهو ما يعرف الآن باسم الروضة .

والطبقة الثانية هى الرعية ممن كانوا يعتنقون الإسلام وأكثرهم من العرب وهم الذين كانوا من قبل سادة البلاد المتصرفين فى شئونها الداخلية والخارجية ردحاً من الزمان وفى هذا العصر عصر الأيوبيين والمماليك حيل بينهم وبين الحكم وأمور الدولة العليا وأقصوا عن الجندية وشئونها فلم يكن منهم أمير ولا قائد

---

(١) ابن تغرى بردى – النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ١٣ .

(٢) ابن خلدون جـ ٥ ص ٣٧٣ .

وإن كان الأيوبيون والمماليك كثيراً ما استعانوا بالعرب فى حروبهم وذلك فى حالة ضعفهم عن مناهضة الأعداء كالذى حدث فى المعارك التى دارت رحاها فى المنصورة[١] ودمياط . وكان هؤلاء العرب ينظرون إلى الأيوبيين والمماليك على أنهم مستبدون[٢] . بالحكم والسلطان دون أصحابه الشرعيين من أهل البلاد وأصحابها الحقيقيين بمقتضى الفتح الإسلامى . وأعنى بهم العرب أنفسهم ولهذا وجدناهم يثورون على الدولة الأيوبية فى أول أمرها إبان سلطنة صلاح الدين يوسف بن أيوب فى بلاد الصعيد[٣] وفى أخرياتها أثناء سلطنة الصالح[٤] نجم الدين أيوب . وكذلك فى دولة المماليك فقد حدث أن ثاروا سنة ٦٥١هـ بقيادة الشريف حصن الدين ثعلب الجعدى فى الوجهين القبلى والبحرى وهو الذى كان يقول «نحن أصحاب البلاد[٥]» وقد صرح هو وأصحابه بأنهم أحق بالملك من المماليك وأن بنى أيوب خوارج خرجوا على البلاد . وكان السودانيون يؤيدن العرب فى ذلك كله إذ حدث أن ثاروا معهم على الأيوبيين بقيادة كنز الدولة[٦] . كما ثاروا على المماليك بعد الهزيمة التى منى بها الشريف حصن الدين ثعلب وعودة بلاد الصعيد إلى طاعة المماليك وكانت ثورة السودان هذه سنة ٦٥٨هـ[٧] .

أما الطائفة الثالثة فهم أهل الذمة ممن كان بمصر من اليهود والنصارى وأكثرهم عدداً وأعظمهم خطراً الأقباط الذين كانوا يلقون فى أكثر الأوقات من الأيوبيين والمماليك معاملة حسنة حتى إن بعضهم تقدم كثيراً من المسلمين فى مناصب الدولة الهامة . وكانت حالهم الاقتصادية والاجتماعية أحسن أيضاً

---

(١) المقريزى – السلوك جـ ١ ق ٢ ص ٣٤٦ .
(٢) المصدر السابق ص ٣٨٦ .
(٣) تاريخ ابن خلدون جـ ٥ ص ٢٨٨ – ٢٨٩ .
(٤) المرجع السابق ص ٣٧٥ .
(٥) المقريزى – السلوك جـ ١ ص ٣٨٦ .
(٦) تاريخ ابن خلدون جـ ٥ ص ٢٨٨ .
(٧) المقريزى – السلوك جـ ١ ص ٤٤ .

من حالة أكثر المسلمين . فقد قال المقريزى يصف ما كان عليه حالهم قبل وقعتهم المشهورة التى حدثت سنة ٧٠٠ هـ ما نصه[١] : « وفى رجب كان وقعة أهل الذمة وهى أنهم كانوا قد تزايد ترفهم بالقاهرة ومصر وتفننوا فى ركوب الخيل المسومة والبغلات الرائعة بالحلى الفاخرة ولبسوا الثياب السرية . وولوا الأعمال الجليلة » .

ولكنهم رغم حسن تلك المعاملة كانوا ينتهزون الفرص لإثارة الشغب والاضطراب وإلحاق الأذى بالمسلمين كالذى أحدثوه من حرائق بالغة الضرر فى مصر والقاهرة سنة ٦٦٣هـ[٢]. وجملة القول فى أمر الأقباط أنهم كانوا من الوجهة الاجتماعية فى هذا العصر على وضع يحسدون عليه . ولا عجب فقد تحكموا فى أموال الشعب وخراج البلاد [٣].

الطبقات الاجتماعية

هذا وجملة القول فى أهل ذلك العصر وجماعاته البشرية أنهم كانوا يختلفون فيما بينهم اختلافاً بيناً فى الجنس والنوع وفى أصل النشأة والموطن وفى الأشكال والألوان وقسمات الوجه وأبعاد الجسم وفى العقول والعواطف والميول والرغبات والمذاهب والمعتقدات وهم بعد طبقات اجتماعية متغايرة متفاوتة ومن يقرأ كتاب « إغاثة الأمة بكشف الغمة[٤] » للعلامة تقى الدين أحمد بن على المقريزى يدرك من تضاعيفه وثناياه أن المقريزى يقسم ذلك المجتمع إلى سبعة أقسام وهى أولا : أرباب الدولة (وهم المماليك) . ثانياً : مياسير التجار . ثالثاً : متوسطو الحال من التجار . رابعاً : أصحاب الفلاحة والحرث . خامساً : الفقهاء وطلاب العلم (يعنى رجال الفكر) سادساً : أصحاب

(١) المرجع السابق جـ ١ ق ٣ ص ٩٩ .
(٢) المقريزى — السلوك جـ ١ ق ٢ ص ٥٣٥ .
(٣) المقريزى — الخطط جـ ٣ ص ٢٢١ .
(٤) المقريزى — اغاثة الأمة بكشف الغمة ص ٧٣ .

الصنائع وأرباب المهن . سابعاً : أهل الخصاصة والمسكنة .

ورأى المقريزى هذا – كما هو واضح من موضوع كتابه – قائم على أسس اقتصادية أعنى أنه لحظ فى تقسيمه المجتمع – على ذلك النحو – الناحية المادية وأغفل الجانب المعنوى . وعندى أن تقسيم المجتمع وتفصيل طبقاته على أساس المادة وحدها أمر غير سديد ، لأن تقويم الناس – جماعات كانوا أو أفراداً – إنما يكون وفق مظاهر الحياة الإنسانية وأوضاعها . وهى مزاج من الماديات والمعنويات لأن الإنسان ليس جسداً فقط حتى يقدر على وجه لا يقام فيه وزن لغير الماديات . وإنما هو – أعنى الإنسان – روح وجسد أى أنه حقيقة امتزج فيها العنصران المادى والروحى . ومن هنا كان لابد لمن يعرض إلى تبيان طبقات مجتمع من المجتمعات أو أمة من الأمم أن يلحظ فى تبيينه أو تفضيله كلا الجانبين المادى والمعنوى . وعلى هذا التقدير أرى أن المجتمع المصرى كان فى ذلك العصر ينقسم إلى أربع طبقات هى :

أولا : طبقة المماليك ، وكان منهم السلطان ونوابه وأمراء الدولة والجيش وقادته .

ثانياً : طبقة رجال الدين والأدب وكان من هؤلاء القضاة والكتاب والوزراء والمحتسبون أحياناً .

ثالثاً : طبقة التجار وأهل البيع والشراء .

رابعاً : طبقة الصناع والزراع وأرباب الحرف والفلاحين .

هذا على أن وجوه الكلام فى مجتمع ذلك العصر عصر ابن دقيق العيد وأوضاعه كثيرة متعددة وموضوعاته مختلفة متشعبة ومجال الدرس والبحث فيه متسع فسيح . ولسنا فى هذا البحث بصدد دراسة ذلك المجتمع أو تفهمه فى تعمق وتمحيص وإعطاء الناس صوراً عنه تمثله فى مختلف جوانبه ونواحيه وإنما أعرض إليه فى بعض جوانبه مما له علاقة أوطد وصلة أقوى وأوثق بالشيخ تقى الدين

كرجل من رجال الدين وقاض من قضاة مصر المرموقين وذلك على سبيل الإيجاز فى غير تفريط .

القضاء

وأبدأ بالكلام عن القضاء فأقول لم يكن يعرف الحكم أو القضاء فى مصر قبل المماليك — دستوراً غير القرآن الكريم وسنة النبى عليه الصلاة والسلام والاجتهاد . ومن هنا كان السلاطين والأمراء يجعلون أمر القضاء بين الناس والفصل فيما ينشأ بينهم من خصومات ومنازعات إلى رجال الدين . لأن هؤلاء السلاطين لم يكونوا من تفهم الدين وتعلمه بحيث يستطيعون أن يضطلعوا بمهمة القضاء على نحو ما كان يفعل خلفاء المسلمين وأمراء المؤمنين من العرب سيما أنهم لم يكونوا عرباً وإن تكلموا العربية . كما أن اهتمام هؤلاء السلاطين كانوا منصرفاً إلى شئون الجندية والأمور العسكرية ، وإن كان بعض السلاطين يحضرون فى كثير من الأحيان مجالس القضاء على ما سنبينه بعد قليل . فلما جاء المماليك فرقوا فى نظام الحكم بين طبقتهم وسائر طبقات الأمة فجعلوا لهم حاجباً على غرار قاضى القضاة يحكم فيما قد ينشأ بين المماليك من منازعات ومشاجرات أو ما قد يصدر عن أفرادهم من أخطاء وما يرتكبونه من مخالفات . وقد أوضح المقريزى ذينك النظامين فى خططه فقال[1] « وفوضوا — يعنى المماليك — لقاضى القضاة كل ما يتعلق بالأمور الدينية من الصلاة والصوم والزكاة والحج . وناطوا به أمر الأوقاف والأيتام وجعلوا إليه النظر فى الأقضية الشرعية ، كتداعى الزوجين وأرباب الديون ونحو ذلك ، واحتاجوا فى ذات أنفسهم إلى الرجوع لعادة حنكيزخان والاقتداء بحكم "إلياسه" فلذلك نصبوا الحاجب ليقضى بينهم فيما اختلفوا فيه من عوايدهم والأخذ على يد قويهم وإنصاف الضعيف منه . على مقتضى ما فى "إلياسه" وجعلوا إليه مع ذلك النظر فى قضايا الدواوين السلطانية عند الاختلاف فى أمور الإقطاعات لينفذ ما استقرت عليه أوضاع

---

(١) المقريزى — الخطط جـ ٣ ص ٢٢١ .

الديوان وقواعد الحساب . وكانت من أجل القواعد وأفضلها حتى تحكم القبط فى الأموال وخراج الأراضى فشرعوا فى الديوان ما لم يأذن به الله ليصير لهم ذلك سبيلا إلى أكل مال الله تعالى بغير حقه . وكان مع ذلك يحتاج الحاجب إلى مراجعة النائب أو السلطان فى معظم الأمور » .

وكلام المقريزى هذا يشعر بأن المماليك كانوا يتلمسون الوسائل والأسباب لجمع المال والإثراء فيه وإن جاع الشعب واشتدت به الفاقة وأن الرعية كانت تعانى الكثير من ظلم المماليك وجورهم وعسفهم واضطهادهم . هذا وقد ظل القضاء فى مصر منذ ولاية صلاح الدين[١] حتى ولى الظاهر بيبرس منوطاً بالشافعية لا يشركهم[٢] فيه أى من المذاهب الأخرى اللهم إلا نواب أحكام بينهم[٣] قاضى القضاة الشافعى . فلما كانت السنة الخامسة من ولاية الظاهر بيبرس وهى سنة ٦٦٣[٤] هـ تعدد منصب قاضى القضاة فى مصر والقاهرة وفق تعدد مذاهب أهل السنة وهى أربعة شافعى وحنفى ومالكى وحنبلى . وقد أورد المقريزى فى كتابه السلوك قصة تعدد القضاء فقال ما نصه[٥] « وكان الأمير جمال الدين أيدغدى العزيزى يكره قاضى القضاة تاج الدين عبد الوهاب بن بنت الأعز . ويضع من قدره ويحط عليه عند السلطان بسبب تشدده فى الأحكام وتوقفه فى القضايا التى لا توافق مذهبه . فاتفق جلوس السلطان بدار العدل فى يوم الاثنين ١٢ ذى الحجة فرفع إليه بنات الملك الناصر قصة فيها أن ورثة الناصر اشتروا دار قاضى القضاة بدر الدين السنجارى فى حياته فلما مات ذكر ورثته أنها وقف . فعندما قرئت أخذ الأمير أيدغدى يحط على الفقهاء وينقصهم . فقال السلطان للقاضى تاج الدين "يا قاضى هكذا تكون القضاة"

---

(١) السيوطى — حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٢٤ .
(٢) طبقات الشافعية جـ ٥ ص ١٣٤ .
(٣) تاريخ ابن خلدون جـ ١ ص ١٠٣ .
(٤) ابن الوردى جـ ٢ ص ٢١٧ والنجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٢١٨ .
(٥) المقريزى — السلوك جـ ١ ص ٥٣٨ .

فقال تاج الدين "يا مولانا . كل شاة معلقة بعرقوبها" . قال « فكيف الحال فى هذا "قال" إذا ثبت الوقف يعاد الثمن من الورثة » . فقال السلطان "فإذا لم يكن مع الورثة شىء "قال القاضى" يرجع الوقف إلى أصله ولا يستعاد الثمن » . فغضب السلطان من ذلك .

وما تم الكلام حتى تقدم رسول أمير المدينة النبوية وقال "يامولانا السلطان سألت هذا القاضى أن يسلم إلىّ مبلغ ريع الوقف الذى تحت يده لينفقه صاحب المدينة فى فقراء أهلها . فلم يفعل" . فسأل السلطان القاضى عما قاله . فقال نعم . قال السلطان . "أنا أمرته بذلك فكيف رددت أمرى" . قال . « يا مولانا . هذا المال أنا متسلمه . وهذا الرجل لا أعرفه ولا يمكننى أن أسلمه لمن لا أعرفه ، ولا يتسلمه إلا من أعرف أنه موثوق بدينه وأمانته . فإن كان السلطان يتسلمه منى أحضرته إليه ، فقال السلطان "تنزعه من عنقك وتجعله فى عنقى" قال نعم . قال السلطان » "لا تدفعه إلا لمن تختاره" . ثم تقدم بعض الأمراء وقال "شهدت عند القاضى فلم تسمع شهادتى فى ثبوت الملك وصحته" فسأل السلطان القاضى عن ذلك فقال "ما شهد أحد عندى حتى أثبته" . فقال الأمير " إذا لم تسمع قولى فمن تريد". قال السلطان . "لم لا سمعت قوله ؟" فقال "لا حاجة فى ذكر ذلك". فقال الأمير أيدغدى "يا قاضى مذهب الشافعى لك" . ونولى من كل مذهب قاضياً . فصغى السلطان لقول أيدغدى وانفض المجلس إلى أن كان يوم الاثنين تاسع عشرة . ولى السلطان القاضى صدر الدين سليمان بن أبى العز ابن وهيب الأذرعى الحنفى مدرس المدرسة الصالحية والقاضى شرف الدين عمر ابن عبد الله بن صالح بن عيسى بن عبد الملك بن موسى بن خالد بن على ابن عمر بن عبد الله بن إدريس ابن إدريس بن الحسن بن الحسن بن على ابن أبى طالب السبكى المالكى . والقاضى شمس الدين محمد بن إبراهيم الحنبلى (ليكونوا قضاة القضاة بديار مصر وجعل (السلطان) لهم أن يولوا فى سائر الأعمال المصرية مضافاً لقاضى القضاة تاج الدين بن بنت الأعز وأبقى على ابن بنت الأعز النظر فى مال الأيتام والمحاكمات المختصة ببيت المال . وكتب

لكل منهم تقليداً وخلع عليهم . فصار بديار مصر قضاة القضاة من حينئذ أربعة يحكم كل منهم بمذهبه . ويلبس كل منهم الطرحات فى أيام الخدمة السلطانية » .

ويستفاد من هذا النص عدة أمور : أولها . أن سلاطين هذا العصر وأمراءه كانوا يتدخلون فى شئون القضاء ويعترضون على أحكام القاضى التى تجيء على غير هواهم وإن كانت وفق قواعد الشرع الحنيف .

ثانياً : ازدراء القضاة لطائفة المماليك وعدم قبولهم شهادتهم لأنهم فى رأيهم غير عدول .

ثالثاً : شجاعة القاضى وصلابته فى الحق .

والرابع : هو أن سبب تعدد القضاء استياء السلطان الظاهر والأمير أيدغدى من حكم القاضى على غير رغبتهما وكونه لم يقبل شهادة الأمير .

والخامس : كون تعدد القضاء إنما حدث فى أيام الظاهر بيبرس وأنه – أعنى الظاهر – رسم بذلك يوم الاثنين ١٩ من ذى الحجة عام ٦٦٣ هـ وهذا خلاف لما ذكره السيوطى فى كتابه حسن المحاضرة[١] من أن القضاء تعدد أيام الدولة الفاطمية سنة ٥٢٥ هـ وأنه عين وقت ذاك قاض شافعى ، وقاض مالكى وقاض للاسماعيلية ورابع للإمامية . وعندى أن رواية السيوطى هذه غير صحيحة لأنه لم يكن فى مصر أيام الفاطميين نوعان من الشيعة هما الاسماعيلية والإمامية كما يفيده قول السيوطى ، وإنما كان مذهباً واحداً فقط وهو مذهب الإمامية الإسماعيلية . هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن الفاطميين كانوا قد أبطلوا[٢] حين استتب لهم الأمر فى مصر العمل بالمذاهب الأخرى ، وجعلوا القضاء وقفاً على مذهبهم : أما ابن إياس[٣] فقد خالف المقريزى فى زمن التعدد فقط إذ يذكر فى كتابه بدائع الزهور فى وقائع الدهور أن تعدد القضاة

---

(١) جـ ٢ ص ١٣٢ .

(٢) النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ١٢٢ .

(٣) ابن اياس – بدائع الزهور جـ ١ ص ١٠٣ .

حدث سنة ٦٦٠ هـ . وقد وافق المقريزى فى أن تعدد القضاء وقع فى يوم الاثنين ١٩ من ذى الحجة عام ٦٦٣ هـ . كل من القلقشندى فى كتابه صبح الأعشى [١] والسيوطى فى كتابه حسن المحاضرة [٢] وأرى أن لا تعارض بين الروايتين إذ يصح أن يفهم كلام ابن إياس على أن المقصود من نظام التعدد فى القضاء هو ما كان عليه الحال فى تلك السنة من أن القاضى تاج الدين بن بنت الأعز كان قد أناب عنه قضاة ثلاث أحدهم حنفى ، والثانى مالكى ، والثالث حنبلى ، يحكم كل بمذهبه . يدل على ذلك ما ذكره المقريزى فى كتابه السلوك إذ قال ما نصه [٣] « وفى ثالث شهر رمضان عام ٦٦٠ هـ عزل السلطان قاضى القضاة برهان الدين السنجارى عن قضاء مصر والوجه القبلى وأعاد قاضى القضاة تاج الدين عبد الوهاب بن بنت الأعز فصار بيده قضاء القضاة فى مصر كلها وكان متشدداً فى أحكامه فرسموا له فى ذى القعدة أن يستنيب عنه مدرسى المدرسة الصالحية من الحنفية والمالكية والحنابلة فاستنابهم فى الحكم عنه ولم يعرف ذلك فى مصر قبل ذلك الوقت . فجلس القاضى صدر الدين سليمان الحنفى والقاضى شرف الدين عمر السبكى المالكى والقاضى شمس الدين محمد ابن إبراهيم الحنبلى فى أول ذى القعدة وحكموا بين الناس بمذاهبهم . ومعنى هذا" أن قاضى القضاة الشافعى كان ينيب عنه قضاة من المذاهب الأخرى ويطلق على كل منهم اسم (نائب حكم) ولا يسمى قاضياً إلا تجاوزاً وفى شىء من التسامح فى التعبير . ويؤيد رواية المقريزى تلك ما ذكره تاج الدين السبكى فى كتابه الطبقات ما نصه [٤] « سئل تاج الدين (أى ابن بنت الأعز) فى أمر فامتنع من الدخول فيه . فقيل له مرْ نائبك الحنفى . — وكان القاضى وهو الشافعى يستنيب من شاء من المذاهب الأخرى الثلاثة — فامتنع من ذلك

---

(١) جـ ٤ ص ٣٥ .
(٢) جـ ٢ ص ١٣٣ .
(٣) السلوك جـ ١ ص ٤٧٢ .
(٤) طبقات الشافعية جـ ٥ ص ١٣٤ .

أيضاً» ومهما يكن من شيء فقد أناب قاضي القضاة عنه نواباً يحكمون بمذاهبهم وكان ذلك عام ٦٦٠ هـ .

هذا على أن ما أوردناه آنفاً من كلام المقريزى فى معرض قصة التعدد وتبيان أسبابه يعطى أيضاً أن قضاة الأحناف والمالكية والحنابلة كانوا يولون نواباً عنهم فى مذاهبهم فى الوجهين القبلى والبحرى كالشافعى سواء بسواء . هذا وعبارة السبكى تفيد أنه لم يكن من حق أى قاض ينيب نواباً سوى قاضى قضاة الشافعية إذ قال فى ترجمته لتاج الدين عبد الوهاب بن بنت الأعز ما نصه[1] «ثم لما ضم القضاة إلى الشافعية (يعنى الظاهر بيبرس) استثنى للشافعية الأوقاف وبيت المال والنواب إلخ . » أما القلقشندى فإنه قد جاء وسطاً بين عبارتى المقريزى والسبكى إذ قال «ثم كل من الأربعة له التحدث فيما يقتضيه مذهبه بالقاهرة والفسطاط ونصب النواب وإجلاس الشهود ويستقل الشافعى منهم بتولية النواب فى الوجهين القبلى والبحرى لا يشاركه فيه غيره» . ويفهم من هذا النص أن قضاة المذاهب الثلاثة كانوا ينيبون عنهم نواباً فى القاهرة والفسطاط فقط فى حين أن القاضى الرابع وأعنى به قاضى قضاة الشافعية يمتاز عنهم بتولية نواب له فى الوجهين .

ويؤخذ من قول الأسنوى فى طبقاته[2] أثناء ترجمته للشيخ تقى الدين ابن دقيق العيد ، بأنه ولى قضاء المالكية فى قوص لما كانت المذاهب الأخرى تشرك الشافعى فى القضاء بالمدن الكبرى كالمحلة وقوص .

ويستفاد من هذا أن القضاة الثلاثة كانوا يولون نواباً عنهم فى الوجهين القبلى والبحرى كما هى رواية المقريزى حيث يقول «وجعل لهم (يعنى القضاة الثلاثة صدر الدين سليمان بن بنت الأعز الحنفى ، وشرف الدين عمر بن عبد الله المالكى وشمس الدين محمد بن إبراهيم الحنبلى) أن يولوا فى سائر الأعمال المصرية مضافاً لقاضى القضاة تاج الدين بن بنت الأعز) . وبمقارنة هذه النصوص بعضها

---

(١) المرجع السابق جـ ٥ ص ١٣٥ .

(٢) ورقة ١١٤ من النسخة المخطوطة بقلم معتاد بدار الكتب المصرية .

إلى بعض نخرج إلى القول الصحيح وهو أن القضاة كانوا بادئ الأمر ينيبون عنهم نواباً فى مذاهبهم فى الوجهين القبلى والبحرى كالشافعى ولكن فى المدن الكبرى فقط . ثم عاد الأمر فى هذا الشأن إلى ما كان عليه الحال قبل تعدد القضاة وهو أن الشافعى وحده هو الذى ينيب فى الوجهين القبلى والبحرى . وجعل للقضاة الآخرين أمر توليته نوابهم فى مصر والقاهرة فقط .

هذا وقد كان السلطان يعين قاضى قضاة الشافعية لمصر والقاهرة والوجهين القبلى والبحرى معاً وأحياناً يعين للقاهرة والوجه البحرى قاضياً ولمصر والوجه القبلى قاضياً آخر ويجعل[1] أحدهما مقدماً على الآخر ويجلس فوق مرتبته فى دار العدل وقت جلوس السلطان للمظالم .

ويجمل بى أن أذكر هنا أن شيخنا تقى الدين بن دقيق العيد قد ولى منصب قاضى القضاة لمصر والقاهرة والوجهين القبلى والبحرى وبقى على ذلك لا يشركه أحد حتى مات وذلك لأنه جاء خلفاً لتقى الدين عبد الرحمن بن بنت الأعز .

وكان قد استقر فى قضاء مصر والقاهرة والوجهين القبلى والبحرى بعد موت القاضى برهان الدين خضر السنجارى ، ثم إن الذين ترجموا له ذكروا له كتباً أرسلها إلى نوابه فى الوجهين القبلى والبحرى كما سوف نذكره فى الفصل الثانى عند كلامنا عنه أثناء توليته منصب قاضى القضاة .

هذا وقد كان السلاطين يجلسون إلى القضاء أحياناً وينيبون عنهم بعض الأمراء أحياناً أخرى . فمن جلس من السلاطين للقضاء الظاهر بيبرس[2] والسلطان الأشرف خليل[3] بن المنصور قلاوون . ومن الأمراء الذين نابوا عن السلطان فى الجلوس للقضاء الأمير عز الدين الحلى[4] عن الظاهر بيبرس والأمير سلار عن الملك الناصر السلطان محمد بن قلاوون .

---

(١) المقريزى – السلوك ج ١ ق ٣ ص ٧٣٤ .
(٢) المقريزى – السلوك ج ١ ص ٥٠٣ .
(٣) المرجع السابق ص ٧٧٢ والخطط ج ٣ ص ٣٣٣ – ٣٣٨ .
(٤) المقريزى – السلوك ج ١ ص ٥٥٠ .

وكان مجلس القضاء يختلف فى هيئته ونظامه ومكانه فى حالة حضور السلطان عنه فى عدم حضوره . فإذا حضر السلطان كان له روعة وأبهة وهيبة ووقار وقد وصف السيوطى مجلس القضاء فى حالة حضور السلطان فقال ما نصه[1] « قال ابن فضل الله إذا جلس السلطان للمظالم جلس عن يمينه قضاة القضاة من المذاهب الأربعة . ثم الوكيل عن بيت المال ، ثم الناظر فى الحسبة ويجلس عن يساره كاتب السر ، وقدامه ناظر الجيش وجماعة من الموقعين تكملة حلقة دائرة وإن كان ثم وزير من أرباب الأقلام كان بينه وبين كاتب السر ، وإن كان الوزير من أرباب السيوف كان واقفاً على بعد مع بقية أرباب الوظائف ويقف من وراء السلطان صفان عن يمينه ويساره من السلاحدارية والجمدارية والخاصكية ويجلس على بعد تقديره خمسة عشر ذراعاً من يمنة ويسرة — ذوو السن من أكابر الأمراء وأرباب الوظائف وقوفاً . وبقية الأمراء وقوف من وراء أمراء المشورة. ويقف خلف هذه الحلقة المحيطة بالسلطان الحجاب والدوادارية لإحضار قصص الناس ، وإحضار المساكين وتقرأ عليه ، فما احتاج إلى مراجعة القضاة راجعهم فيه ، وما كان متعلقاً بالعسكر تحدث مع ناظر الخاص وكاتب السر فيه . قال « وهذا الجلوس يكون يوم الاثنين ويوم الخميس إلا أن القضاة وكاتب السر لا يحضرون يوم الخميس» .

تلك هى صورة مجلس القضاء وقت حضور السلطان فإذا لم يحضر السلطان مجلس القضاء ، فإن القاضى كان يجلس إما فى مدرسة أو مسجد . قال المقريزى[3] عن برهان الدين السنجارى إنه لما عين فى قضاء القاهرة والوجه البحرى جلس للحكم فى المدرسة المنصورية بين القصرين ، وإذا جمع القضاة بين قضاء القاهرة ومصر خصصوا يومى الاثنين والخميس لقضايا مصر ويجلسون فيهما بجامع عمرو بن العاص ويجتمع حولهم علماء مصر . وقد وصف تاج

---

(١) السيوطى — حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٠٩ .

(٢) ورد هذا النص بيسير من التفصيل فى خطط المقريزى ج ٢ ص ٢٠٨ .

(٣) المقريزى — السلوك ج ١ ص ٧٣٤ .

الدين السبكى مجلس القضاء فى غير حضور السلطان أثناء ترجمته للشيخ تقى الدين بن رزين بما يؤيد كلام المقريزى إذ قال ما نصه[١] « كان قضاة القضاة بالديار المصرية إذا جمعوا بين قضاء القاهرة ومصر كما استقرت عليه القاعدة من الأيام الظاهرية — يتوجهون يوم الاثنين ويوم الخميس إلى مصر فيجلسون بجامع عمرو بن العاص لفصل القضاء بين الناس ويحضر عندهم علماء مصر » .

ومما يجدر ذكره فى هذا المقام أن جميع السلاطين الذين جلسوا على عرش مصر من الأيوبيين والمماليك فى هذه الفترة كانوا يعتنقون[٢] مذهب الشافعية ما عدا سيف الدين قطز . فقد كان حنفيًّا وظل على مذهبه حتى قتل . أما الظاهر فإنه لما ولى السلطنة قلد الإمام الشافعى .

الحياة الدينية

أما من الوجهة الدينية فقد كان المجتمع المصرى فى ذلك العصر منقسماً إلى طوائف وفرق متعددة فمنهم من كان يعتنق المسيحية وأكثرهم من أقباط مصر وبقايا الإغريق والرومان ومنهم من كان يعتنق اليهودية وهم من العبرانيين ومنهم من كانوا يعتنقون الإسلام وهم السواد الأعظم وأكثر أهل البلاد .

وكل من معتنقى هذه الأديان كانوا مذاهب وفرقاً متعددة ؛ فالمسيحيون كان منهم اليعاقبة والملكانية . واليهود كانوا قرائين وربانيين . أما المسلمون فكان منهم السنيون ، وهم إما شافعيون أو مالكيون أو حنابلة أو أحناف . والشيعه وهم الإمامية الإسماعيلية وهؤلاء كانوا يكثرون فى بلاد الصعيد على أن القاهرة لم تخل فى هذا العصر من المتشيعين ولا غرو فإن المؤرخين يحدثوننا عن ثورة

---

(١) السبكى — طبقات الشافعية الكبرى جـ ٥ ص ١٩ .
(٢) المصدر السابق جـ ٥ ص ١٣٥ .

قام بها جماعة من السودانيين[١] والركبدارية والغلمان سنة ٦٥٨ هـ وكانوا ينادون وهم يشقون القاهرة « يا آل على »

ومما يجدر ذكره هنا أن مجد الدين بن على بن وهب والد شيخنا تقى الدين موضوع هذا البحث كان قد جاء بلاد الصعيد وأقام فى قوص لمحاربة[٢] المذهب الإسماعيلى . هذا ومن يرجع إلى كتب التاريخ والأدب وما ألف فى العلوم الدينية إبان ذلك العصر من كتب ومصنفات يدرك معى فى يقين وجزم بأنه كان يسود العالم آنذاك روح وجهتها العقيدة وصبغتها الدين . كان ذلك فى البلاد المسيحية كأوربا مصدر الحركات الصليبية التى تميز بها ذلك العصر وفى البلاد الإسلامية كمصر والشام مهد الديانات السماوية ومعقلها فى مختلف العصور وتعاقب الأزمان ولو شئت أن أفصل القول فى تبيان ذلك الاتجاه الدينى الذى كان يسود المجتمع البشرى فى الشرق والغرب إذ ذاك لاحتجت إلى عدة سنوات ولملأت فى ذلك مئات الصفحات . ولكنى أقتصر هنا على تصوير الطابع العام للحياة الدينية فى مصر إبان القرن السابع الهجرى أو قل فى عصر ابن دقيق العيد وذلك على سبيل الإيجاز . فأقول كانت المجتمعات الدينية على اختلافها وتعددها تتسم بطابع النقاش والجدل وبخاصة بين المسلمين والأقباط إذ كان أقباط مصر قد استشعروا فى القرن السابع الهجرى شخصيتهم وأن لهم وجود ذاتى وكيان . وقد تجلى ذلك فى النشاط الدينى الذى كانوا يبذلونه فى سبيل إعلاء شأنهم والتمكين فى مصر لدينهم فمن ثم اشتد النقاش واحتدم الجدل بين المسيحيين من أقباط مصر وأهل الإسلام ، وخير شىء يصور لنا ما كان عليه الحال فى تلك الفترة بين المسلمين والأقباط تلك القصيدة اللامية التى نظمها الإمام البوصيرى[٣] ومطلعها :

جاء المسيح من الإله رسولا ... فأبى أقل العالمين عقولا
قوم رأوا بشراً كريماً فادعوا ... من جهلهم لله فيه حلولا

---

(١) المقريزى — السلوك جـ ١ ص ٤٤٠ .
(٢) الادفوى — الطالع السعيد ص ٢٣٠ .
(٣) لامية البوصيرى . نسخة مخطوطة بقلم معتاد بدار الكتب المصرية .

ومن يقرأ هذه القصيدة يجد أن البوصيرى قد هاجم فيها كلا من اليهود والنصارى وسفه عقائد الطائفتين كلتيهما .

الأمر الذى يجعلنا نقول أن اليهود كانت تؤيد النصارى من أقباط مصر فى مناهضتهم الإسلام والمسلمين . وإليك طرفاً مما جاء فى تلك القصيدة من الرد على اليهود والنصارى وفى تبيين فساد ما اعتقدوه . قال :

ضل النصارى فى المسيـــح وأقسموا   لا يهتدون إلى الرشـــاد سبيـــلا
جعلوا الثـــلاثة واحداً ولو اهتدوا   لم يجعلوا العـــدد الكثير قليـــلا
عبدوا إلهـــاً من إله كـــائنـــا   ذا صـــورة ضلوا بهـــا وهيولا

هذا مما ورد فى القصيدة بشأن النصارى . أما اليهود فمما جاء فيها بشأنهم قوله

والعابدون العجـــل قد فتنـــوا به   ودّوا اتخـــاذ المرســـين عجولا

ثم يقول أيضاً :

أخلوا كتاب الله من أحـــكامه   عـــذراً وكا ن العـــامر المأهولا
جعلوا الحـــرام به حلالا والهدى   غيا وموصـــول التـــقى مفصولا

وهكذا يمضى البوصيرى فى قصيدته يرد على اليهود والنصارى بهذا الأسلوب المنطقى الجدلى الممزوج بالسخرية اللاذعة والتبكيت الشديد .

هذا ومن المسائل الدينية التى امتاز بها ذلك العصر هى تلك الخرافات والحكايات التى كانوا ينسبونها إلى من يعتقدون فيهم التقى والصلاح . على أنها خوارق أو كرامات يجريها الله على أيديهم أو ألسنتهم فمن ذلك ما ينسبونه إلى ابن دقيق العيد من أنه كان قد أخبر[١] بما وقع بين المسلمين والتتار فى معركة حمص سنة ٦٨٠ هـ ومن ذلك أيضاً ما حكاه السبكى[٢] عن الظاهر بيبرس من أنه رأى الشافعى فى المنام على إثر تعيينه قضاة من المذاهب الأخرى بالإضافة إلى القاضى الشافعى وأنه أى الشافعى لام الظاهر بيبرس على فعلته تلك .

---

(١) الادفوى – الطالع السعيد ص ٣٢٤ والسبكى – طبقات الشافعية الكبرى جـ ٦ ص ٤ .
(٢) السبكى – طبقات الشافعية جـ ٥ ص ١٣٦ .

وغير ذلك من خرافات وأساطير مختلفة لا سبيل إلى تصديقها وبخاصة رؤية الظاهر للإمام الشافعي فإني أرجح أنها محض اختلاق . وإن أصحاب المذهب الشافعي هم الذين نسجوا تلك القصة .

أخلاق أهل هذا العصر

أما من ناحية السلوك والأخلاق فقد كان المصريون فى ذلك الحين قد استكثروا من المعاصى وارتكاب المحرمات وفعلوا الفواحش وأتوا المنكرات .

وخير شيء يصور لنا أخلاق المجتمع المصرى فى ذلك العصر ما ذكره ابن إياس فى كتابه تاريخ مصر المعروف (باسم بدائع الزهور فى وقائع الدهور) وذلك أثناء كلامه عن السلطان الظاهر بيبرس وما أتاه فى مصر والشام أثناء سلطنته من أعمال إذ قال ما نصه [1] « ثم دخلت سنة ٦٦٥ هـ فيها أبطل السلطان ضمان الحشيشة وأمر بإحراقها وأخرب بيوت المسكرات وكسر ما فيها من الخمور وأراقها ومنع الحانات من الخواطى واستتاب العلوق واللواطى وعم هذا الأمر سائر الجهات المصرية وبرزت المراسيم الشريفة بمنع ذلك من سائر الجهات الشامية فطهرت فى أيامه سائر البقاع ومنع الناس من ذلك غاية الامتناع ثم أحضروا إليه فى أثناء هذه الوقعة شخصاً يسمى ابن الكازرونى وهو سكران (نابعة) فأمر بصلبه فصلب بعد حد عظيم فى مستحقه وعلقت الجرة والقدح فى عنقه . فلما عاين أرباب المجون والخلاعة ما جرى لابن الكازرونى امتثلوا أمر السلطان بالسمع والطاعة وقد قال القائل :

لقد كان حـــد السكر من قبل صلبه ... خفيف الأذى إذ كان فى شرعنا جلد
فلما بدا المصلوب قلت لصـــاحبى ... ألا تب فإن الحد قد جاوز الحد »

ثم قال ابن إياس « قال الشيخ شمس الدين بن دانيال صاحب كتاب (طيف الخيال) لما قدمت من الموصل إلى الديار المصرية فى الدولة الظاهرية

(١) ابن اياس — بدائع الزهور جـ ١ ص ١٠٤ — ١٠٧ .

سقى الله من سحب الإنعام عهدها ، وأعذب مشارب وردها فوجدت مواطن الأنس دارسة ، وأرباب اللهو والخلاعة غير آنسة ومن لذة العيش آيسة ، وهزم أمر السلطان جيش الشيطان وتولى الخوان والى القاهرة إهراق الخمور وإحراق الحشيش وتبديد المزور واستتاب العلوق واللواطى وحجر البغاة والخواطى وشاعت بذلك الأخبار ، ووقع الإنكار وصلب ابن الكازرونى وفى رقبته نبيذية ، فدعانى بعض أصدقائى إلى محله ، وأنزلنى من عياله وأهله واعتذر إلى عن تقصيره فى الإكرام إذ لم يأتنى بمدام . وقال قد غلب على ظنى أن أبا مرة قد مات وعد من الرفات . فقم بنا نبكيه ونصف الحالة ونرثيه فابتدأت وقلت فى معنى هذه الواقعة التى وقعت .

مات يا قوم شيخنـــا إبليس وخلا منـــه ربعه المأنوس

وهذا البيت مطلع البليقة التى أنشأها ابن دانيال فى وصف ما آل إليه حال المجون والفجور وفاعلى الموبقات وشاربى الخمور . وهى قصيدة طريفة فى هذا المقام بلغت خمساً وعشرين بيتاً والبيت الأخير منها فى غاية الطرافة وهو قوله :

فسأبـــكيه أرمد العـــين حتى لشفـــائى يعيش جالينوس

فهو كما ترى قد أسف لهزيمة إبليس أو موته على حد تعبيره ، وبكى عليه ورثى لحاله ولحال جميع أهل الفسوق والمجون وأرباب الخلاعة ، وهذا لعمرى أدل شىء على ما كانت عليه أخلاق المجتمع المصرى فى عصر ابن دقيق العيد من فجور ومجون واستهانة بقيم الأخلاق ، وانتهاك لحرمات الدين . ولم تكن تلك الأخلاق قاصرة على الرعاع والدهماء أو أراذل الأمة ، لا بل إن كثيراً من علية القوم وأشرافهم وذوى المكانة فيهم كانوا يشربون الخمر ويتعاطون الحشيش ويأتون الغلمان . ومما يدل على ذلك دلالة قوية ما رواه أكثر من ترجموا لابن دقيق العيد من أنه قال مرة لأبى حيان (أثير الدين الغرناطى) : « فيكم يا أهل الأندلس خصلتان ، شرب الخمر ، وحب الغلمان » . فقال أبو حيان :

« أما الخمر فوالله ما عصيت الله فيها . أما الغلمان فما أشك أن أهل مصر أفسق منا » .

فهذه حجة لى فيما زعمت آنفاً من القول بأن الفساد والمجون والاضمحلال فى الأخلاق ساد المجتمع المصرى فى عصر شيخنا ابن دقيق العيد . وأكثر من هذا فإن رجال الدين أنفسهم وبخاصة أولئك الذين كانوا يتصدون إبان ذلك العصر للإفتاء فإنهم كثيراً ما أباحوا للسلاطين والأمراء ما لم يجزه الشرع وأحلوا لم ما حرم الله . وأصدق شيء يصور لنا ما كان عليه علماء الدين ورجال الإفتاء فى عصر ابن دقيق العيد من استهانة بالشرع وتسامح فى الدين بلغ حد العبث والاستهتار ما ذكره تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب السبكى فى كتابه معيد النعم ومبيد النقم عند الكلام عن المفتى وإليك النص[1] « منهم (يعنى المفتين) من يسهل أمر الشرع ويتناهى إلى أن يفتى ببعض ما لا يعتقده من المذاهب ويرخص لبعض الأمراء ما لم يرخص فيه لعموم الخلق بعض العلماء فيقول مثلا لمن سأله عن انتقاض الوضوء بمس الذكر لا ينتقض عند أبى حنيفة وعن لعب الشطرنج وأكل لحوم الخيل حلال عند الشافعى وعن مجاوزة الحد فى التعزيرات جائز عند مالك وعن بيع الوقف إذا خرب وتعطلت منفعته ولم يكن له ما يعمر به ؛ حلال عند أحمد بن حنبل وهكذا إلخ .
ثم ذكر فى نفس ذلك المعنى لبعضهم هذه الأبيات :

الشافعى من الأئمة قائل ... اللعب بالشطرنج غير حرام
وأبو حنيفة قال وهو مصدق ... فى كل ما يروى من الأحكام
شرب المثلث والمربع جائز ... فاشرب على أمن من الآثام
وأباح مالك الفقاح تكرما ... فى ظهر جارية وظهر غلام
والحبر أحمد حل جلد عميرة ... وبذاك يستغنى عن الأرحام
فاشرب ولط وازن وقامر واحتجج ... فى كل مسألة بقول إمام

---

(١) السبكى — معيد النعم ومبيد النقم ص ١٠١ .

وهذا لعمرى دليل ناصع وبرهان قاطع على وهن الوازع الدينى وفساد الضمائر وضعف الإيمان لدى الناس عامة ورجال الدين خاصة . غير أن ذلك التبذل والتحلل فى الأخلاق والتسامح والتهاون فى الدين قد أدى إلى ظهور رجال نصبوا أنفسهم لإحقاق الحق ودحض الباطل وإعلاء كلمة الدين وذلك كشيخ الإسلام أبى الفتح تقى الدين محمد بن على بن وهب بن دقيق العيد الذى قال عنه معاصروه بأنه العالم المبعوث على رأس المائة السابعة ولا غرو فإن ابن دقيق العيد قد وهب نفسه للدين الحنيف يدرأ عنه الترهات والأباطيل على ما سوف نبسطه عند كلامنا عنه فى الفصل الثانى من هذا البحث .

الجانب الثقافى

عوامل رقى الحياة الفكرية

كانت الحركة الثقافية فى هذا العصر نشيطة قوية فى مصر ؛ والحياة الفكرية بوجه عام ؛ كانت على جانب كبير من الرقى والازدهار . وذلك لعوامل وأسباب خارجية وداخلية . أما الخارجية فهى أولا : غزو التتار لشرق الدولة الإسلامية وتنكيلهم ببلاد فارس وتدميرهم[1] ما كان فيها من حضارة ومدنية . الأمر الذى جعل أهل تلك البلاد يفرون من وجه التتار إلى مصر والشام ناشدين السلامة والأمان . ثانياً : سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ فى أيدى التتار وما فعلوه بالكتب والأسفار وتنكيلهم[2] برجال العلم والدين. فلجأ هؤلاء أيضاً إلى مصر وفيهم العلماء والأدباء . هذا على أن أهل الأندلس فى غرب الدولة الإسلامية لم يكونوا أحسن حالا فى هذا العصر من أهل الشرق فقد كانت انتصارات الفرنجة تتوالى وبطشهم يتزايد فى إقليم الأندلس فلذلك وجدنا كثيراً من الأندلسيين يهاجرون إلى مصر كزملائهم من أهل المشرق فمن لجأ إلى مصر من علماء المشرق

---

(١) ياقوت – معجم الأدباء جـ ١ ص ٣١ .

(٢) مختصر أبى الفدا جـ ٤ ص ١٩٤ .

وقت ذاك على سبيل المثال (الصدر[١]) البكرى أبو على الحسن بن محمد النيسابورى ومن أهل الأندلس أبو الخطاب عمر بن حسن الأندلسى المشهور (بابن دحية)[٢] وأثير الدين يوسف أبو حيان الغرناطى ثم إن هؤلاء كانوا يشعرون دون شك بأن عليهم واجباً وطنياً وعلمياً نحو دينهم وبلادهم فهبوا يستكثرون من التأليف والتصنيف ليعوضوا الثقافة الإسلامية ما فقدته بسبب تخريب التتار .

أما العوامل الداخلية فهى أولا : غيرة السلاطين والأمراء فقد كانوا يتعصبون للدين الإسلامى ويستميتون فى الذود عنه والدفاع عن حظيرته وبالتالى فقد كانوا يكرمون رجال الدين وأهل العلم ويهيئون لهم أسباب الدرس والتحصيل ويشجعونهم على التأليف والتصنيف . هذا وقد كان الأيوبيون والمماليك جميعاً يعظمون العلماء ورجال الدين .

ثانياً : لما شعر المصريون بخطر الوثنية التى كان يعتنقها التتار والمسيحية التى كان يحارب فى سبيلها الفرنجة والصليبيون أحس المصريون بخطر ذلك على الدين الإسلامى ، فهبوا يصنفون ويؤلفون ويضعون الكتب فى نشر الدين والمحافظة عليه . أضف إلى هذا أن الحكام شجعوا علماء أهل السنة فى محاربة العقيدة الشيعية التى كانت لا تزال فاشية فى مصر وبخاصة فى بلاد الصعيد[٣] .

ثالثاً : استكثر الأيوبيون والمماليك من بناء المدارس وأولوها كثيراً من العناية[٤] والاهتمام فجعلوا لها الأوقاف وأجروا عليها الأرزاق وبذلوا جهدهم فى تيسير التعلم والتعليم فيها إذ كانوا يجرون فى كرم وسخاء الأموال والأرزاق على الطلاب والمدرسين .

كما استكثروا أيضاً من إنشاء الخوانق (جمع خانقاه) وأصلها فى الفارسية

---

(١) السيوطى – حسن المحاضرة جـ ١ ص ٢٠١ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) الطالع السعيد ص ٢٣٠ .

(٤) المقريزى – الخطط جـ ٤ ص ٢٠٥ – ٢٠٩ .

مركبة من كلمتين هما خان ومصدرها خاندن ومعناه القراءة أو الذكر . والكلمة الثانية هى قاه ومعناه المكان وعلى هذا فمعنى كلمة خانقاه بالعربية مكان الذكر وهى فى تعبير المصريين تسمى الزاوية وشجعوا حركة التصوف[١] وفتحوا أبواب مصر على مصراعيها للوافدين عليها من الفقراء الصوفية من شرق الدولة وغربها وكانوا يبالغون فى إكرام مشايخ الطرق والمريدين كفعلهم بالمدارس وطلابها ومدرسيها فى غير ما فرق كبير .

هذا وقد أحصى أمين باشا سامى المدارس والمساجد والخوانق والزوايا التى أنشئت من أجل التعليم فى مصر منذ الفتح الإسلامى حتى عصر ابن دقماق فقال[٢] « ومجموع ما شيده حكام مصر للتعليم من أول الفتح الإسلامى إلى عصر المقريزى وابن دقماق من مدارس وجوامع ومساجد وزوايا وربط وخوانق مائة وخمس وخمسون . هذا ولما كان ابن دقيق العيد قد ولى التدريس فى عدد من المدارس بمصر والقاهرة وأسندت إليه أخيراً مشيخة المدرسة الكاملية لذلك فإنى أرى لزاماً على أن أتكلم فى شىء من الإيجاز عن نشأة المدارس فى مصر.

نشأة المدارس فى مصر ونظامها

لم يكن بمصر قبل صلاح الدين الأيوبى مدارس للتثقيف والتعليم وقراءة الحديث اللهم إلا تلك المدرسة التى أنشأها ابن سلار للحافظ السلفى بالإسكندرية وإنما كانت الدراسات الدينية المختلفة فى المساجد والجوامع وفى دار العلم التى أنشأها الحاكم بأمر الله وسمح فيها بالمجادلات الدينية والمناظرات فى المذاهب الإسلامية المختلفة . وبالرغم من أن الفاطميين اهتموا اهتماماً كبيراً بصبغ البلاد بصبغتهم المذهبية الشيعية فإن الدراسات الفقهية على مذهب الشافعى ومالك استمرت فى كل البلاد المصرية كما كثرت رواية الحديث النبوى ودراسته .

---

(١) دكتور محمد كامل حسين — دراسات فى الشعر فى عصر الأيوبيين ص ٦٤ .

ومن يقرأ كتب التراجم والأدب وبخاصة حسن المحاضرة[١] وكتاب فى أدب مصر [٢]الفاطمية يجد كثيراً من علماء الشافعية والمالكية ممن كانوا يلقون تعاليم مذهبهم على جماهير المستمعين فى مصر دون أن يمسهم من رجال الدولة الفاطمية وخلفائها أى سوء .

ومهما يكن من أمر فإن صلاح الدين الأيوبى كان سنيًّا شافعيًّا فأراد أن ينشر مذهب أهل السنة وبالتالى يقاوم مذهب الشيعة الإسماعيلية . فأنشأ أول مدرسة بمدينة مصر قرب مقام الإمام الشافعى وقد عرفت هذه المدرسة باسم الناصرية أو الصلاحية نسبة إلى الملك الناصر صلاح الدين الأيوبى رحمه الله . وقد درّس فى هذه المدرسة ابن دقيق العيد بعد وفاة[٣] تقى الدين ابن رزين .

ومن أمهات المدارس فى عصر ابن دقيق العيد دار الحديث الكاملية وهى التى أسند إليه مشيختها سنة ٦٨٦ هـ . وقد بنى هذه المدرسة الملك الكامل سنة ٦٢١ هـ .

أما عن أنظمة تلك المدارس فإنه ينبغى أن نتأمل أولا هذه النصوص . قال ابن دقماق فى كتابه (الانتصار) أثناء كلامه على المدرسة الطيبرسية ما نصه[٤] « ثم وقفها مدرسة للفقهاء الشافعية والمالكية يجلسون الشافعية فى الإيوان الغربى والمالكية فى الإيوان الشرقى ورتب من كل مذهب مدرساً ومعيداً وخمسة عشر طالباً وقرن الإمامة لمعيد الشافعية المنزلين علوها للمدرسين وعمر مكتبا للسبيل وشرط لكل مدرس ستينْ درهماً ولمعيد الشافعية الإمام فى كل شهر أربعين درهماً والمعيد المالكى فى الشهر أربعين درهماً » . وقال السبكى فى كتابه « معيد النعم ومبيد النقم » فى معرض حديثه عن المدارس ما نصه[٥]: « وحق عليه (يعنى

---

(١) جـ ١ ص ٢٢٧ .

(٢) الدكتور محمد كامل حسين – أدب مصر الفاطمية ص ١٠٠ .

(٣) السيوطى – حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٨٦ .

(٤) ابن دقماق – الانتصار جـ ٤ ص ٩٧ .

(٥) السبكى – معيد النعم ومبيد النقم ص ١٠٥ .

المدرس) أن يحسن إلقاء الدرس وتفهيمه للحاضرين ثم إن كانوا مبتدئين فلا يلقى عليهم ما لا يناسبهم من المشكلات بل ويدربهم ويأخذ بالأهون فالأهون إلى أن ينتهوا إلى درجة التحقيق» . وفى حديثه عن المعيد قال: «المعيد عليه قدر زائد على سماع الدرس من تفهيم بعض الطلبة ونفعهم وعمل ما يقتضيه لفظ الإعادة وإلا فهو والفقيه سواء إلخ» .

ثم قال: «والمفيد عليه أن يعتمد ما يحصل به فى الدرس فائدة من بحث زائد على بحث الجماعة . . إلخ» .

ثم ذكر المنتهى من الفقهاء فقال «عليه من البحث والمناظرة فوق ما على دونه إلخ» .

وقال السيوطى أثناء ذكره المدرسة الصلاحية ما نصه[1] «ثم خلت (يعنى المدرسة الصلاحية) من مدرس ثلاثين سنة واكتفى فيها بالمعيدين . »

وبمقارنة هذه النصوص بعضها ببعض والتأمل فيها نستطيع القول بأن نظام المدارس كان يقضى آنذاك بأن يأخذ كل من الطلبة والأساتذة والمدرسين رواتب يقررها من أوقف المدرسة أو بناها من سلطان أو وزير أو أمير . هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن المنتهى فى تعبيرهم من الفقهاء يساوى طالب الدكتوراه فى عصرنا الحاضر وأن المفيد يساوى طالب الماجستير وأما المعيد فهو يشبه المدرس والمعيد معاً فى النظام الجامعى المعاصر . وأما المدرس فهو بمثابة الأستاذ صاحب الكرسى . وأما شيخ المدرسة فهو يساوى ما نصطلح على تسميته الآن بمدير الجامعة . أما الطلبة الجامعيون فقد كانوا يطلقون عليهم اسم الفقهاء . وربما أضافوهم إلى المدرسة فيقولون فقهاء المدرسة الفاضلية أو الصلاحية مثلا .

هذا وقد كان الأمراء والسلاطين ومنشئو المدارس يعنون عناية كبرى باختيار المعيدين والمدرسين وانتقاء الشيوخ الذين يكلون إليهم أمر الإشراف على أمور المدارس وشئونها وتدريس العلوم فيها فكانوا يختارون من رجال الدين واللغة وعلماء الفقه والحديث من عرفوا بالنبوغ والتفوق والصلاح والتدين من أمثال

---

(١) السيوطى — حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٨٦ .

تقى الدين ابن رزين وبرهان الدين السنجارى وابن بنت الأعز وابن دقيق العيد موضوع هذا البحث .

بعض شيوخ هذا العصر ومؤلفاتهم والوجهة الثقافية العامة

وقبل أن أتكلم عن اتجاه الثقافة فى عصر ابن دقيق العيد والصبغة العلمية فيه أذكر على سبيل المثال بعض علماء ذلك العصر وشيوخه المشهورين وأختص منهم بالكلام هنا عز الدين بن عبد السلام شيخ بن دقيق العيد وأستاذه الروحى[1] وإليك ترجمته فى إيجاز : « هو الإمام المجتهد القدوة عبد العزيز ابن عبد السلام بن أبى القاسم بن حسين بن محمد بن مهذب السلمى سماه تلميذه تقى الدين ابن دقيق العيد القشيرى بسلطان العلماء لعلمه الغزير واطلاعه الواسع وإيمانه القوى وحجته البالغة وزهده وحبه للحق . هذا وقد كانت ولادة ابن عبد السلام فى بلاد الشام سنة ٥٧٧ هـ وقيل سنة ٥٧٨ هـ . ومات رحمه الله بالقاهرة سنة ٦٦٠ هـ أى أنه عمر نحواً من ٨٣ سنة . ومعنى هذا أنه عاصر الدولتين الأيوبية والمملوكية كتلميذه ابن دقيق العيد وإن كانت المدة التى قضاها فى ظلال الدولة الأيوبية أكثر من الفترة التى عاشها فى دولة المماليك وذلك على العكس من حياة ابن دقيق العيد إذ قضى أكثرها فى عصر المماليك الأتراك .

وأيا ما كان فإن ابن عبد السلام عاش فى بلاد الشام حتى سنة تسع وثلاثين وستمائة ثم خرج منها إلى مصر حيث أقام بها حتى وافته المنية سنة ٦٦٠ هـ على ما سبق أن ذكرت .

وهذا يعنى أنه أمضى فى مصر نحواً من إحدى وعشرين سنة وقد ولى

---

(١) قد استقيته ترجمته من كتاب طبقات الشافعية الكبرى للسبكى جـ ٥ ص ٨٠ وفوات الوفيات جـ ١ ص ٣٦٦ . وحسن المحاضرة جـ ١ ص ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٩٢ ، و جـ ٢ ص ١٠٩ وتاريخ ابن اياس جـ ١ ص ٩٤ ، ٩٥ ، ١٠١ ، ١٢٠ .

خلالها مناصب هامة منها قضاء القضاة والتدريس بالمدرسة الصالحية . وكان إليه أمر الإفتاء فلا يجرؤ أحد من العلماء على الإفتاء مع وجود ابن عبد السلام فى مصر والقاهرة . وكان عفى الله عنه معروفاً بالمحافظة على الشريعة والتعصب فى الدين والتشدد فى الحق لا يرهب السلاطين ولا يخشى سطوة الأمراء . يدل على ذلك مواقفه المشهورة من الملوك والأمراء فى مصر والشام . فقد حدث أن امتنع عن الخطبة للملك الصالح إسماعيل ملك دمشق وهو من أحفاد صلاح الدين الأيوبى وكان الملك الصالح هذا قد استعان بالفرنجة على منازعيه من الأيوبيين فشق ذلك على ابن عبد السلام وحز فى نفسه أن يتعاون سلطان دمشق مع الفرنجة ضد المسلمين فلذلك امتنع ابن عبد السلام عن الدعاء لذلك السلطان فى الخطبة وكان معنى هذا التصرف الذى فعله العز بن عبد السلام هو الثورة على السلطان الصالح إسماعيل وتحريض الناس على عصيانه والخروج عليه فاعتقله الصالح ولكنه عاد فأطلق صراح الشيخ ، لكيلا تستشرى الفتنة وكانت تلك النبوة التى وقعت بين ابن عبد السلام والملك الصالح إسماعيل هى السبب الرئيسى فى خروج الشيخ عز الدين من الشام إلى مصر .

ومن مواقفه المشهورة حيال سلاطين مصر وأمرائها قصته المشهورة مع بعض أمراء المماليك ومن بينهم نائب السلطنة فقد رأى ابن عبد السلام أن هؤلاء الأمراء ملك لبيت مال المسلمين إذ لم يثبت لديه عتقهم . فأصر على بيعهم وفعلا عرضوا فى سوق الرقيق وبيعوا ووضع الثمن فى بيت مال المسلمين .

ويحكى أن الظاهر بيبرس قال حين رأى جنازة ابن عبد السلام وقد خرج فى تشييعها الجموع الغفيرة من أهل مصر والقاهرة قال لبعض خواصه « اليوم استقر أمرى فى الملك لأن هذا الشيخ لو كان يقول للناس اخرجوا عليه لانتزع الملك منى» .

هذا ومما يجدر قوله فى هذا المقام كون ابن دقيق العيد قد أشبه أستاذه الشيخ عز الدين فى التعصب للحق والتشدد فى الدين ، فقد وقف ابن دقيق العيد موقفاً مشهوراً من نائب السلطنة الأمير منكوتمر . إذ رفض ابن دقيق العيد قبول

شهادة نائب السلطنة حين أراد أن يثبت أخوة رجل لتاجر قد مات كى يرث ذلك الرجل تركة التاجر على ما سوف نفصله فى كلامنا عن حياة ابن دقيق العيد فى الفصل الثانى .

وهناك قصة وقعت لابن عبد السلام أيام السلطان قطز وكان ابن عبد السلام آنذاك قاضى القضاة . وتلك القصة هى أن المظفر قطز أراد أن يجمع المال من الناس لمحاربة التتار وقد طلب إلى ابن عبد السلام أن يفتى بجواز أخذ المال من الرعية فلم يجز ذلك ابن عبد السلام إلا بشرط أن يجمع الأمراء كل ما لديهم من دراهم ودنانير حتى حلى النساء ثم ينظر فإن لم يكف ذلك لتجهيز الجيش جاز للسلطان أن يأخذ المال من الرعية .

ويقال إن الأمراء قد أحضروا بالفعل جميع ما لديهم . ونفس القصة حدثت لابن دقيق العيد مع السلطان الناصر محمد بن قلاوون . فقد أراد أن يجمع المال من الرعية . وأفتى بجواز ذلك ابن الخشاب وامتنع ابن دقيق العيد على ما سوف نبسطه فى الفصل الثانى .

هذا وقد كان ابن عبد السلام عالماً مبرزاً أقر له الجميع بالفضل والتقدم فى العلم والدين والعدالة فى الحكم والنزاهة فى القضاء وإنه لم يكن يخاف فى الله لومة لائم . وقد ذكروا له كتباً ومؤلفات أربت على العشرين كتاباً فمنها (١) الفتاوى الموصلية (٢) ومختصر النهاية واسمه (الغاية) (٣) وشجرة المعارف (٤) والقواعد الكبرى فى الشريعة (٥) وكتاب مجاز القرآن فى الشريعة . (٦) ومختصر صحيح مسلم (٧) الإمام فى أدلة الأحكام . وبالجملة فإن كتبه لا تخرج عن دائرة العلوم الدينية إذ أن بعضها فى التفسير والحديث وبعضها فى الأصول والفقه والبعض الآخر فى التصوف . وله كتاب مشهور باسم حل الرموز ومفاتيح الكنوز وهو فى التصوف . وقد طبع هذا الكتاب فى مطبعة جريدة الإسلام بمصر سنة ١٣١٧ هـ ومعه كتاب لشيخ الإسلام زكريا الأنصارى واسمه فتح الرحمن بشرح رسالة الولى رسلان وكتاب ابن عبد السلام هذا المسمى حل الرموز ومفاتيح الكنوز يقع فى نحو ٨٦ صفحة من القطع

المتوسط وقد تصفحت هذا الكتاب وموضوعه تصوف خلقى إسلامى . ومن يقرأ هذا الكتاب يدرك السبب الذى حدا بابن عبد السلام إلى تأليفه وهو ما كان قد شاهده من اعتراض بعض العلماء على المتصوفة وما كانوا يأتونه من سلوك وأفعال تتناقض فى ظاهرها مع ظاهر الشريعة وروح السنة والكتاب . فأراد أن يبين لهؤلاء المعترضين سر ما أنكروه على المتصوفة من أفعال وأقوال بأن فسرها وأولها بحيث تبدو غير مخالفة لكنه الإسلام وروح القرآن .

فمن تلك الأمور التى كان ينكرها أهل الظاهر على رجال التصوف ما رواه ابن عبد السلام نفسه فى مقدمة كتابه هذا عن الشيخ قضيب البان وكان ببلاد الموصل فقد ذكر ابن عبد السلام أن قضيب البان هذا لم يكن يصلى ولم يكن يتقى النجاسة وكان يظهر أمام الناس وكأنه أبله أو بعقله خلل أو خبال . فقد كان يبول على ساقه ويأوى إلى المزابل فكان الناس لذلك فى حيرة من أمره . فمن قائل إنه صديق ومن قائل إنه زنديق . ويذكر ابن عبد السلام أن قاضى المدينة مر به يوماً وهو على مزبلة فرآه وقد بال على ساقه . فقال القاضى فى نفسه : تباً لمن جعلك صديقاً وما أنت إلا زنديق فما استتم الخاطر حتى قال قضيب البان يا قاضى قد أحطت بجميع علم الله ؟ فقال له لا والله . قال فأنا من ذلك العلم الذى لا تعلمه وما عليك إن كنت صديقاً أو زنديقاً . فلهذه الحالة وأشباهها وما يكتنفها عادة من غموض وما يلابسها من عبارات مبهمة على أهل الظاهر ، ألف الشيخ عز الدين كتابه هذا وقد قال بعد سرد هاتيك القصة : « فلما رأيت هذه الأقوال الصادرة عن أهل الأحوال وقد أشكل على الأفهام تعليلها وعزب عن الأوهام تأويلها أحببت أن أشرح منها ما انشرح له صدرى وسنح به فكرى وبلغ إليه قدرى » .

ومعنى هذا أن ابن عبد السلام كان يجمع بين الحقيقة والشريعة أو بين علم أهل الظاهر وعلم أهل الباطن ولا عجب فقد كان يدرس فى المدرسة الصالحية الفقه وأصول الفقه وعلوم الحديث وفى الوقت نفسه كان شيخ خانقاه سعيد السعداء وهو بهذا قد زاد على تلميذه ابن دقيق العيد إذ لم يكتب ابن دقيق العيد

فى التصوف ولا تولى مشيخة خانقاه بل روى عنه ما يدل على أنه كان ينكر على المتصوفة ما كانوا يرتكبونه من أفعال وما يتفوهون به من أقوال . إذ يذكر أكثر من ترجموا لابن دقيق العيد أنه قال لتلامذته بالكاملية حين سمع متصوفاً يقول كلاماً مبهماً هل فهمتم شيئاً فقالوا لا . قال وأنا لم أفهم منه شيئاً ، وهذا يدل على أن ابن دقيق العيد لم يك من المتصوفة النظريين أو الباطنيين وإنما كان من المتصوفين العمليين على ما سوف أذكره فى حديثى عنه فى الفصل الثانى .

ولعل السبب فى مخالفة ابن دقيق العيد أستاذه فى ميدان التصوف يرجع إلى أن ابن دقيق العيد كان مصرياً صرفاً . والمصريون بطبيعتهم لا يميلون إلى التعمق والتعقيد فى الآراء والأفكار بخلاف ابن عبد السلام فقد عاش جل حياته فى بلاد الشام . ولعل فيما أوردته من أخبار ابن عبد السلام وذكر شيء من كتبه وبعض مؤلفاته ما يعطينا صورة توضح لنا اتجاه الثقافة والطابع العام للحركة الفكرية والعلمية فى عصر ابن دقيق العيد . وهو أن جهود العلماء قد انصرفت إلى الدين واللغة وذلك بحكم الأوضاع السياسية والأحوال الدينية التى كانت تسود ذلك العصر . إذ كان الصليبيون ثم التتار قد استولوا على كثير من الأقاليم والأقطار الإسلامية حتى كادوا أن يقضوا على الدين الإسلامى ويمحونه من الوجود لولا أن الله سلم فقيض للإسلام والمسلمين أولئك الملوك والسلاطين الذين حكموا مصر من الأيوبيين ومن خلفهم من سلاطين المماليك على ما سبق أن فصلناه عند كلامنا عن الجانب السياسى من عصر ابن دقيق العيد . هذا من حيث الأوضاع السياسية .

أما من الناحية الدينية فإن روح المجتمع البشرى فى ذلك العصر كانت تتسم على وجه العموم بطابع الدين ، كان ذلك فى البلاد المسيحية والبلاد الإسلامية على السواء ، أضف إلى هذا تلك الظاهرة التى نشأت فى مصر إبان القرن السابع الهجرى لدى أقباط مصر وهى طموحهم إلى الرقى بأنفسهم وبلغتهم القبطية وبدينهم ، فقد كثرت مجادلاتهم ومناقشاتهم مع المسلمين المصريين وقد كان من جراء ذلك أن ارتد عن الإسلام بعض ضعاف النفوس ممن كانوا

من قبل أقباطاً واعتنقوا الإسلام . فمن أجل ذلك هب المسلمون يجادلون النصارى من الأقباط ومن كان يؤيدهم فى ذلك من اليهود ويدحضون حججهم دفاعاً عن الدين الإسلامي على ما سبق أن ذكرناه عند كلامنا عن الحياة الدينية للمجتمع المصرى فى عصر ابن دقيق العيد .

فلذلك كله وجدنا العلماء والمفكرين يتجهون بكليتهم إلى الاهتمام بعلوم الدين وتبيان أحكام الشريعة الإسلامية وتدريس الحديث والفقه وغير ذلك من العلوم الدينية . وقد اهتموا تبعاً لذلك بالعلوم اللغوية والنحو والبلاغة . فظهر فى النحو والعربية من العلماء الأعلام كالشيخ زكى الدين بن أبى الإصبع المشهور فى علوم البلاغة . وكالشيخ شرف الدين المرسى أستاذ ابن دقيق العيد فى العربية . وكأبى حيان أثير الدين الغرناطى تلميذ ابن دقيق العيد . فقد برّز هذا أيضاً فى علم النحو والصرف وقواعد العربية وقد لقب بالنحوى . فما من أحد يذكره من المؤرخين إلا قال عنه إنه أثير الدين أبو حيان النحوى .

هذا ومن مؤلفات ابن دقيق العيد وابن عبد السلام وغيرهم نستطيع أن نقول إن التأليف فى هذا العصر كان فى أكثره إما شرحاً لمصنفات ألفها السابقون أو اختصارات لكتبهم . والسبب فى ذلك راجع إلى أن العلوم الشرعية واللغوية والفلسفية كانت قد نضجت ولم يبق ثمة مجال لأن يأتى فيه أهل القرنين السابع والثامن بجديد إذ كان النحو قد تكامل وانفصل عنه الصرف وأصبح علماً مستقلا ، وعلوم البلاغة قد نضجت باتجاهيها الفلسفى الممثل فى كتب سعد الدين التفتازانى والخطيب القزوينى . والأدبى الممثل فى مؤلفات عبد العزيز الجرجانى وأبى هلال العسكرى وإن كان ابن أبى الأصبع قد أوجد جديداً فى البلاغة فإنما هى محسنات استنبطها من تلك المصطلحات العامة التى وضعها من سبقوه وكذلك كان الحال فى علم الفقه وأصول الفقه وكتب الحديث وعلم الكلام فكل هذه العلوم كانت قد أفعمت بمؤلفات السابقين ومصنفاتهم .

أما فى فن التاريخ فالمعروف عن المصريين أنهم أكثر شعوب الأرض اهتماماً بالتاريخ وتدوينه وعرفوا بذلك منذ أقدم العصور .

وأكثر من هذا فقد كان للمصريين فضل كبير فى ظهور فن السير الذى تحدثوا فيه عن أبطالهم وملوكهم وعظماء رجالهم من العلماء والحكماء ورجال الدين أو القادة المحاربين . وقد تجلى تطور عناية المصريين بالتاريخ على اختلاف أنواعه وتعدد فروعه فى العصر الإسلامى منذ القرن الثانى للهجرة . وقد استمر نشاط هؤلاء المؤرخين قويًّا وظل تيارهم جارفاً فى العصر الإسلامى وبخاصة حين استشعرت مصر ذاتيتها المستقلة فى ظل الإخشيديين فمنذ ذلك الحين قوى نشاط المؤرخين المصريين وعظمت عنايتهم بمصر والشام على وجه الخصوص[1] . أعنى أنهم لم يكونوا يحفلون فيما يكتبونه أو يدونونه من كتب تاريخية بالدول الإسلامية الأخرى أى أنهم قصروا عنايتهم على مصر والشام وحدهما دون غيرهما من الأقطار الإسلامية الأخرى لأن كلا من مصر والشام يعتبر جزءاً متمماً للآخر على ما سبق أن فصلناه فى حديثنا عن مكانة مصر وعلاقاتها الخارجية أثناء كلامنا عن الأوضاع السياسية .

ولسنا هنا بصدد تتبع الحركة التاريخية فى مصر وبيان ما وضع فى ذلك من مؤلفات ومصنفات أو من ظهر فى علم التاريخ من علماء أعلام فى مختلف العصور وإنما نحن بصدد عصر معين بالذات وأعنى به تلك الحقبة التى عاشها ابن دقيق العيد وهى تنتظم القرن السابع إلا أقله وأوائل القرن الثامن الهجرى ففى هذا العصر ظهر عدد كبير من المؤرخين ومن كتاب السير نذكر منهم على سبيل المثال لا على سبيل الحصر هذه المجاميع الكثيرة لتراجم العلماء مثل معجم الشهاب القوصى وشرف الدين الدمياطى ، ومعجم عبد اللطيف المنذرى كما كثر الحديث عن سيرة الرسول شعراً ونثراً وكتب تراجم المحدثين كما كثرت كتب المناقب ولعل أشهر المؤرخين الذين ظهروا فى مصر فى حياة ابن دقيق العيد هو القاضى محيى الدين عبد الله بن عبد الظاهر المولود بالقاهرة سنة ٦٢٠ هـ والمتوفى سنة ٦٩٢ هـ وقد تولى القضاء ورياسة ديوان الرسائل للملك الظاهر . وقد وضع هذا القاضى عدة كتب تاريخية نذكر منها الروضة البهية الزاهرة والخطط المعزية القاهرة . والظاهر من اسم هذا الكتاب المفقود أنه حلقة من سلسلة حلقات

(١) محمد كامل حسين — الدكتور — أدب مصر الفاطمية ص ١٨ .

فن الخطط وهو ذلك الفن المصرى الخالص الذى بدأ به عبد الرحمن بن عبد الحكم فى كتابه فتوح مصر ، وتحدث فيه عن خطط الفسطاط وتبعه عدد من المؤرخين المصريين الذين تحدثوا عن الخطط أيضاً إلى أن جاء ابن عبد الظاهر وتحدث عن خطط القاهرة . ولابن عبد الظاهر كتاب آخر فى فن السير هو كتاب سيرة الظاهر بيبرس وهو غير السير الشعبية المعروفة . وله كتاب ثالث اسمه الألطاف الخفية من السيرة الشريفة السلطانية الملكية الأشرفية وهو فى أخبار مصر فى عهد الأشرف خليل قلاوون انتهى به إلى حوادث سنة ٦٩٠ ﻫ كما كتب ابن الزبير تاريخ أسوان . ووضع فخر الدين النابلسى تاريخ الفيوم انتهى فيه بحوادث سنة ٦٤١ ﻫ .

أما ابن العماد الإسكندرانى المتوفى سنة ٦٧٣ ﻫ فقد وضع كتاباً فى تاريخ الإسكندرية ، ووضع يحيى بن حميدة المتوفى سنة ٦٤٠ ﻫ كتاباً فى تاريخ مصر العام مرتباً على حسب السنين كما وضع جمال الدين القفطى المتوفى سنة ٦٤٦ ﻫ كتاباً فى تاريخ مصر انتهى به إلى حكم صلاح الدين الأيوبى وكتب عبد الله ابن محمد المعروف بابن ميسر المتوفى سنة ٦٧٧ ﻫ كتابه تاريخ مصر جعله وقفاً على تاريخ الفاطميين . وكتب واصل بن الحموى المتوفى سنة ٦٩٧ ﻫ كتابه المعروف مفرج الكروب فى دولة بنى أيوب .

ومن هذا كله نستطيع أن ندرك أن المصريين عنوا فى هذه الفترة بتاريخ بلدهم ورجالهم شأنهم فى ذلك شأنهم فى كل العصور التاريخية .

وبالجملة فقد ظهر فى علم التاريخ والتراجم كتب كثيرة فى هذا العصر وكانت ذات اتجاهات مختلفة متغايرة من حيث الموضوع ، فمنها ما كان عاماً يشمل الدول والملوك وتراجم الأعيان ككتاب تاريخ مصر ليحيى بن حميدة ، ومنها ما كان خاصاً بإحدى المدن أو البلدان المصرية ككتاب تاريخ الإسكندرية لابن العماد ، ومنها ما كان قاصراً على تراجم الأعلام وسير الرجال وهذه بدورها متعددة أيضاً من حيث الموضوع فمنها ما كان عامًّا ينتظم تراجم المشاهير والأعلام على اختلاف طوائفهم وأشكالهم وما كانوا ينتمون إليه من المناصب والمراتب

أو العلوم والفنون وذلك ككتاب البدر السافر وتحفة المسافر وهو فى تراجم مشاهير القرن السابع للإدفوى . ومنها ما كان خاصـًا بأحد الأعيان أو المشاهير من العلماء أو العظماء أو الملوك والسلاطين وذلك ككتاب سيرة الظاهر بيبرس للقاضى محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر ، ومنها ما كان وقفاً على تراجم وسير علماء إقليم خاص ككتاب الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد للعلامة كمال الدين الإدفوى .

هذا والصفة العامة التى نجدها فى جميع مؤلفات ذلك على اختلاف أنواعها وتعدد موضوعاتها سواء أكانت دينية أو لغوية أو تاريخية هى صبغة النقد الحر الدقيق . فالمؤرخ إذا ترجم لأحد سواء أكان عالماً أو أميراً معاصراً أو غير معاصر نقده فى غير خوف ولا وجل ولا مداهنة ولا مراء . فالصفدى مثلا إذا ترجم لعالم أو أديب أكثر من ذكر كتبه وأشعاره ثم أصدر حكمه عليها بالحسن أو القبح مع ذكر الشواهد والأدلة . وابن فضل الله العمرى فى كتابة مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار لا يتورع من ذكر عيوب من تصدى لترجمتهم وذكر أحوالهم فهو مثلا حين ترجم لابن دقيق العيد وصفه بما يشبه المجون ويقترب من الخلاعة وعدم الاكتراث بفضائل الأخلاق إذ قال عنه « إنه كان كثير التسرى والتمتع وكان يشترى الجوارى بالدين إلى أجل فإذا حان وقت أداء الدين ماطل حتى تأخذ الأريحية أصدقاءه ومحبيه فيقضون عنه الدين » .

هذا عن صفة النقد فى كتب التاريخ وتراجم الأشخاص . أما فى كتب الفقه والتوحيد والحديث وغير ذلك من العلوم الدينية والشرعية ، فإن صفة النقد تتجلى فى كل فصل وباب بل فى كل جملة من جملها . فإذا كان المؤلف شارحاً فإنه ينقد صاحب المتن الذى تصدى لشرحه أو المصنف الذى اطلع باختصاره إن كان مطولا أو بسطه إذا ما كان مختصراً والشارح أو المختصر أو صاحب الحاشية لا يتسامح فى عبارة النقد بل ينقد فى شدة وعنف وتحمس شديد . وأسلوبهم فى النقد لا يزال قائماً حتى عصرنا هذا . وهو يتمثل فى الطريقة التى ينتهجها أساتذة الأزهر فى التأليف والتدريس فتراه يقول إذا وجد

مطعناً تلمسه تلمساً أو عثر عليه بعناء فى كتاب من سبقه قال هذه العبارة المشهورة .

أما قوله كذا يعنى المصنف أو المؤلف أو صاحب المتن فإنه خطأ من وجهين أو وجوه ثم يسترسل فى تبيان الوجوه والأدلة التى يعتمد عليها فى حكمه بتخطيء ذلك المؤلف . وإذا أراد شرح مسألة أو تفصيل قضية . قال مثلا الكلام فى هذه المسألة أو البحث فيها من عدة وجوه وإليك مثلا ما جاء فى كتاب « إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام » لشيخ الإسلام تقى الدين محمد ابن على ابن وهب المشهور بابن دقيق العيد وهو مدار هذا البحث وموضوعه . قال[1] فى شرحه الحديث الثانى من كتاب الطهارة بعمدة الأحكام للحافظ عبد الغنى المقدسى والحديث هو عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا يقبل الله صلاة أحدكم إذا أحدث حتى حتى يتوضأ » قال ابن دقيق العيد بعد أن ترجم لأبى هريرة راوى ذلك الحديث ما نصه والكلام عليه من وجوه (يعنى الحديث المذكور) .

أحدها — « القبول » وتفسير معناه . قد استدل جماعة من المتقدمين بانتفاء القبول على انتفاء الصحة ، كما قالوا فى قوله صلى الله عليه وسلم « لا يقبل الله صلاة حائض إلا بخمار » أى من بلغت سن المحيض .

والمقصود بهذا الحديث الاستدلال على اشتراط الطهارة من الحدث فى صحة الصلاة ، ولا يتم ذلك إلا بأن يكون انتفاء القبول دليلا على انتفاء الصحة . وقد حرك المتأخرون فى هذا بحثاً . لأن انتفاء القبول قد ورد فى مواضع مع ثبوت الصحة كالعبد إذا أبق لا تقبل له صلاة وكما ورد فيمن أتى عرافاً ، وفى شارب الخمر .

فإذا أريد تقرير الدليل على انتفاء الصحة من انتفاء القبول فلابد من تفسير معنى القبول . وقد فسر بأنه ترتب الغرض المطلوب من الشيء على الشيء

---

(١) إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام ص ١٢ ، ١٣ .

يقال . قبل فلان عذر فلان ، إذا ترتب على عذره الغرض المطلوب منه وهو محو الجناية والذنب .

فإذا ثبت ذلك فيقال مثلا فى هذا المكان الغرض من الصلاة وقوعها مجزئة بمطابقتها للأمر ، فإذا حصل هذا الغرض ثبت القبول على ما ذكر من التفسير وإذا ثبت القبول على هذا التفسير ثبتت الصحة وإذا إنتفى القبول على هذا التفسير انتفت الصحة وربما قيل من جهة بعض المتأخرين . أن « القبول » كون العبادة بحيث يترتب الثواب والدرجات عليها « والأجزاء » كونها مطابقة للأمر والمعنيان إذا تغايرا ، وكان أحدهما أخص من الآخر ، لم يلزم من نفى الأخص نفى الأعم « والقبول » على هذا التفسير أخص من الصحة فإن كل مقبول صحيح وليس كل صحيح مقبولا . . . إلخ .

من هذا النص نستطيع أن نتمثل فى وضوح وجلاء أسلوب الفقهاء ذلك فى شرح المسائل وبسط القضايا وفى أسلوب الدرس والإملاء وطريقة التأليف والتصنيف وهو أسلوب كما ترى قائم على البحث العميق والتحقيق والاستطراد فى الشرح والتبيان وبالجملة فقد كان أسلوب المؤلفين والمدرسين فى ذلك العصر يتسم بطابع النقاش والجدل وكثرة الاحتجاج والاستدلال .

الحركة الأدبية

أما الحركة الأدبية فى هذا العصر فقد كانت نشطة قوية على جانب عظيم من الإجادة والإبداع ، أو قل الرقى بوجه عام .

فقد أجاد شعراء ذلك العصر وكتابه وخطباؤه وكانت لهم صفة التمييز والاستقلال فلم يكونوا مقلدين إلا فى القليل من النثر كتلك السجعات التى كانت ترد فى الرسائل التى كان ينشئها كتاب ديوان الإنشاء باسم السلطان أو الخليفة بشأن تقليد للسلطان أو وزير أو أمير أو أحد القضاة ولكنها أعنى تلك الرسائل التى كتبت فى هذا العصر أو النثر الفنى بوجه عام فإنها كانت وليدة

العصر والوقت والزمان والمكان . ونفس الأحداث التى كانت سبباً فى إنشاء ذلك الكتاب أو تلك الرسالة ، فمثلا كتاب ابن دقيق العيد الذى كتبه إلى نوابه فى الوجهين القبلى والبحرى تبدو فيه الجودة والروعة ولا تكلف فيه وإن وجدت فيه سجعات فهى عفو الخاطر لا تكلف فيها ولا اصطناع . وقد ذكرت رسالة ابن دقيق العيد تلك فى الفصل الرابع من هذا البحث . والذى تحدثت فيه عن أدبية ابن دقيق العيد وشاعريته . أما شعر هذا العصر فهو أيضاً شعر له تميزه وشخصيته وكيانه الذاتى المستقل عن شعر العصور السابقة .

اللهم إلا تلك المدائح التى قيلت فى مدح الرسول عليه السلام فإنها كانت فى أكثرها على غرار قصائد العصر العباسى الأسبق .

أما المقطعات والقصائد الأخرى التى أنشئت فى مختلف الموضوعات الأخرى كالغزل والأحماض والتفكه ووصف الطبيعة وذكر الوقائع الحربية والمعاتبة وحتى ما قيل فى ذكر الأماكن المقدسة وأرض الحجاز وجزيرة العرب والحنين إلى تلك الأمكنة فإنها كانت فى أسلوبها وطابعها وصور تعبيرها وليدة عصرها. وإليك مثلا هذه المقطوعة التى أنشدها ابن دقيق العيد فى الحنين إلى الأماكن المقدسة وأرض الحجاز قال رحمة الله :

تهيم نفسى طرباً عندما ... أستلمح البرق الحجازيّا
ويستخف الوجد عقلى وقد ... أصبح لى حسن الحجازيا
يا هل أقضى حاجتى من منى ... وأنحر البزّل المهاريا
وأرتوى من زمزم فهو لى ... ألذ من ريق المها ريا

فهذا شعر كما ترى يطرق الموضوع مباشرة من غير ما ديباجة ولا تقديم فشاعر هذا العصر عصر ابن دقيق العيد لم يكن يقدم بين يدى موضوع قصيدته شيئاً مما جرى عليه الشعراء السابقون من النسيب والتشبيب أو الحل والترحال وذكر النوق والخيام أو الصحارى والقفار .

هذا ومما امتاز به هذا العصر ذلك الأدب الشعبي الذى كان يسميه المصريون آنذاك بالزكالش وكان على أربعة أنواع هى الزجل والبليق والقرقى والمكفر .

حسب تعبير صاحب كتاب العاطل الحالى والمرخص الغالى[1] . على ما سوف أذكره بشىء من التفصيل فى موضعه من الفصل الرابع إن شاء الله .

(١) انظر ص ١٠ .

الفصل الثانى

ابن دقيق العيد

نسبه — مولده — حياته بوجه عام

نسبه

ترجم له العلامة شمس الدين الذهبي فى كتابه تذكرة الحفاظ فقال[1] : تقى الدين أبو الفتح محمد بن على بن وهب بن مطيع القشيرى المنفلوطى الصعيدى المالكى الشافعى إلخ .

أما الإدفوى فقال فى ترجمته ما نصه[2] : محمد بن على بن وهب بن مطيع ابن أبى الطاعة القشيرى تقى الدين ذاتاً ونعتاً إلخ .

أما ابن فضل الله العمرى فقد قال فى كتابه مسالك الأبصار ما نصه[3] : القاضى أبو الفتح محمد بن على بن وهب بن مطيع بن أبى الطاعة القشيرى المنفلوطى الصعيدى المالكى والشافعى تقى الدين . . إلخ .

هذا وقد ترجم له صلاح الدين الصفدى فى كتابيه الوافى بالوفيات وأعيان العصر فقال ما نصه[4] : محمد بن على بن وهب بن مطيع الإمام العلامة شيخ الإسلام أستاذ المتأخرين قاضى القضاة تقى الدين أبو الفتح بن الشيخ الإمام مجد الدين المعروف بابن دقيق العيد القشيرى المنفلوطى المصرى المالكى الشافعى إلخ .

وترجم له أيضاً كل من تاج الدين عبد الوهاب السبكى فى كتابه « طبقات الشافعية الكبرى[5] » والعلامة عبد الرحيم الإسنوى فى كتابه المسمى أيضاً بطبقات الشافعية[6] ، والعلامة تقى الدين أحمد بن على الشهير بالمقريزى

(١) انظر جـ ٤ ص ٢٧٢ .
(٢) الطالع السعيد ص ٣١٧ .
(٣) مسالك الأبصار جـ ٣ لوحة ٤٣٣ .
(٤) الوافى بالوفيات ورقة ٩٥٧ جـ ٢ وأعيان العصر جـ ٦ لوحة ٨١ .
(٥) جـ ٦ ص ٢ .
(٦) ورقة ١١٤ .

فى كتابه المقفى[١] وابن حجر العسقلانى فى كتابيه « الدرر الكامنة[٢] فى أعيان المائة الثامنة ورفع الأصر [٣] عن قضاة مصر وابن تغرى بردى فى كتابيه « النجوم الزاهرة[٤] والمنهل الصافى [٥]» وغير هؤلاء كثير ولكن من ذكرت هم العدول الثقات المعول على كلامهم والمحتج بأقوالهم وهم جميعاً يتفقون على أن نسب ابن دقيق العيد هو هكذا » محمد بن على بن وهب بن مطيع بن أبى الطاعة القشيرى المنفلوطى المصرى القوصى ، ولقبه تقى الدين وكنيته أبو الفتح ، ولقب أبيه مجد الدين وكنيته أبو الحسن ، وكنية جده أبو العطايا وهو مشهور بابن دقيق العيد وذلك باتفاق جميع من ترجموا له أيضاً . ويذكر الإدفوى فى ترجمته لعلى بن وهب ابن دقيق العيد والد شيخنا تقى الدين أن جده[٦] مطيع كان يلبس فى يوم عيد طيلساناً أبيض فقيل كأنه دقيق العيد فسمى به أى أن مطيعاً هذا عرف بدقيق العيد . ولما كان على بن وهب حفيده دعاه الناس بابن دقيق العيد ومن هنا كانت شهرة الشيخ تقى الدين بابن دقيق العيد .

أما تسميته بالقشيرى فلأنه من أحفاد المحدث بهزر بن حكيم على ما ذكره ابن حجر فى كتابه « الدرر الكامنة[٧] » وبهزر بن حكيم هذا من قبيلة قشير ابن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة وقد ذكره ابن الأثير فى كتابه « اللباب فى تهذيب الأنساب » فقال[٨] « القشيرى بضم القاف وفتح الشين وسكون الياء تحتها نقطتان وفى آخرها راء . هذه النسبة إلى قشير بن كعب ابن ربيعة بن عامر بن صعصعة قبيلة كبيرة ينسب إليها كثير من العلماء منهم

---

(١) جـ ٢ لوحة ١٦٥ .
(٢) جـ ٤ ص ٩١ .
(٣) ورقة ٢٤٧ .
(٤) جـ ٨ ص ٢٠٦ .
(٥) جـ ٣ ورقة ٢١٩ .
(٦) الطالع السعيد ص ٢٣٧ .
(٧) جـ ٤ ص ٩٣ .
(٨) جـ ٢ ص ٢٦٤ .

بهز بن حكيم بن معاوية بن حيدة القشيرى يروى عن أبيه وعن جده وعن زرارة بن أوفى . روى عنه الثورى والحمادان وغيرهم وكان كثير الخطأ واحتج به أحمد بن حنبل وابن راهويه .

ومعنى هذا أن شيخنا تقى الدين سليل العلماء الأعلام من الفقهاء والمحدثين وقد نسب إلى منفلوط لأن أباه على بن وهب ولد فيها[١] ونشأ وترعرع بين ربوعها حتى ولى الحكم فيها كما نسب إلى قوص أيضاً لأنه نشأ بها على ما سوف ما نذكره ثم إلى مصر لأنه استقر بها في أخريات حياته حيث أسند إليه منصب قاضى القضاة وظل كذلك حتى مات رحمه الله وعفى عنه . هذا من جهة أبيه . أما من جهة أمه فإنها كانت بنت الشيخ الصالح التقى الورع الزاهد مفرج بن موفق بن عبد الله الدمامينى وقد ترجم له صاحب الطالع السعيد[٢] فوصفه بالعلم والفضل فأصلاه على حد تعبير السبكى كريمان[٣] .

مولده

وكان مولد الشيخ تقى الدين محمد بن على بن وهب بن دقيق العيد فى الخامس والعشرين من شهر شعبان سنة ٦٢٥ هـ على ثبج البحر وأبواه متوجهان إلى الحجاز بالقرب من ساحل ينبع .

وقد ذكر ذلك المقريزى فى كتابه (المقفى) فقال ما نصه « ولد وأبواه[٤] متوجهان فى بحر الملح إلى الحجاز على ثبج البحر فى يوم السبت الخامس والعشرين من شعبان سنة ٦٢٥ هـ فلما قدم أبوه مكة حمله وطاف به البيت وسأل الله أن يجعله عالماً عاملا .

---

(١) الطالع السعيد ص ٢٣٦ .
(٢) ص ٣٦٩ .
(٣) الطبقات جـ ٦ ص ٣ .
(٤) جـ ٢ لوحة ١٦٥ .

وأما الإسنوى فقد قال ما نصه[١] « ولد رحمه الله على ظهر الماء المالح قريباً من ساحل الينبع وأبواه متوجهان من قوص للحج ولهذا كان يكتب الثبجى والثبج بالثاء المثلثة والباء الموحدة والجيم هو الوسط وكانت ولادته يوم السبت الخامس والعشرين من شعبان سنة ٦٢٥ هـ بناحية ينبع .

هذا وقد ذكر مولده أبو الفلاح عبد الحى بن العماد الحنبلى فى كتابه « شذرات الذهب فى أخبار من[٢] ذهب » فقال « ولد فى شعبان سنة ٦٢٥ هـ وتفقه على والده . . إلخ .

أما شمس الدين الذهبى فقد قال فى كتابه « تذكرة الحفاظ[٣] » ولد فى شعبان سنة ٦٢٥ هـ بقرب ينبع من الحجاز .

أما عبارة ابن فضل الله العمرى فهذا نصها قال[٤] « ولد فى شعبان سنة ٦٢٥ هـ بقرب الينبع من أرض الحجاز .

وأما رواية ابن حجر العسقلانى فى كتابه « رفع الإصر عن قضاة مصر » فهى[٥] « ولد بطريق مكة فى المحرم سنة ٦٢٥ هـ ويقال أن والده طاف به على يديه ودعا له بالعلم والعمل » .

أما فى كتابه « الدرر الكامنة » فقد قال[٦] « ولد فى شعبان بناحية ينبع فى البحر سنة خمس وعشرين وستمائة » .

أما الإدفوى فقد قال فى الطالع السعيد[٧] « ولد الشيخ تقى الدين ووالده متوجه إلى الحجاز الشريف فى البحر المالح فى يوم السبت ١٥ شعبان سنة ٦٢٥ هـ بساحل الينبع رأيته بخطه الثبجى » .

---

(١) ورقة ١١٤ .
(٢) جـ ٦ ص ٥ .
(٣) جـ ٤ ص ٢٧٢ .
(٤) مسالك الأبصار جـ ٣ قسم ٣ لوحة ٤٣٥ .
(٥) ورقة ٢٤٧ — ٢٥٠ .
(٦) جـ ٤ ص ٩١ .
(٧) ص ٣١٧ .

هذا ورواية ابن تغرى بردى فى كتابه « المنهل الصافى هذا نصها[١] « ولد سنة ٦٢٥ ﻫ بناحية ينبع » .

فها أنت ذا ترى جميع الروايات التى أوردناها تتفق على أن مولد ابن دقيق العيد كان فى شعبان سنة ٦٢٥ ﻫ . وأن ذلك كان فى البحر وأبواه متوجهان إلى الحجاز لأداء فريضة الحج . وقد شذ عن هذا الإجماع (رفع الإصر) إذ ذكر أن مولده كان فى شهر المحرم من السنة نفسها وهى رواية غير صحيحة لا يعول عليها لأمرين : أولهما هو أن جميع الذين كتبوا عن ابن دقيق العيد اتفقوا على أن مولده كان فى شهر شعبان من السنة المذكورة ومن بينهم من عاصروا ابن دقيق العيد وخالطوه كصاحب الطالع السعيد العلامة الإدفوى المتوفى سنة ٧٤٨ ﻫ أى بعد موت ابن دقيق العيد بست وأربعين عاماً . وكذلك الحافظ شمس الدين الذهبي فقد ذكر فى ترجمته لابن دقيق العيد أنه سمع من لفظه يعنى أنه سمع الحديث من لفظ ابن دقيق العيد مباشرة . والأمر الثانى هو أن جميع الروايات تتفق على أن ابن دقيق العيد ولد وأبواه متوجهان إلى الحجاز بقصد الحج . وذلك لا يكون فى شهر المحرم ولكن يكون فى شهر شعبان ولعل هذه الرواية قد وقع فيها الخطأ لا من جانب المؤلف وهو ابن حجر العسقلانى ولكن من جانب أحمد بن على السبكى الذى كتب النسخة لنفسه بخطه هو بدليل أن صاحب رفع الإصر ذكر فى الدرر الكامنة أن مولد ابن دقيق العيد كان فى شعبان وإذا فرواية رفع الإصر لا يعول عليها لما قدمت .

حياته بوجه عام

هذا وبعد أن تقصيت أحواله واستقصيت أخباره ووقفت على ما أمكن الوقوف عليه من آثاره أستطيع أن أقول إن حياة ابن دقيق العيد ذات أطوار ثلاثة :

الأول : أيام الطلب أو عهد التلمذة وفق تعبير عصرنا الحاضر .

الثانى : تصدّيه للتدريس والإملاء .

الثالث والأخير : أيام القضاء وسأبدأ الحديث عنه فى طوره الأول .
فالثانى والثالث مسايراً له وفق حياته وواقع عيشه الطبيعى فأقول نشأ الشيخ تقى الدين فى بيت من أشرف بيوتات الصعيد وأكرمها حسباً ونسباً وأشهرها علماً وأدباً وأرفعها مقاماً وأسماها منزلة ولا عجب فقد كان أبوه شيخ الإسلام أبو الحسن على بن وهب مشهوداً له بالتقدم[1] على غيره فى الحديث والأصول ، وفقه المالكية وكان ملقباً بمجد الدين وكذلك جده لأبيه وهب بن مطيع فقد عرف بالعلم والفضل والتقى والورع والبذل والسخاء وكان يدعى بأبى العطايا وكذلك كان حاله من جهة أمه فهى أيضاً كريمة المحتد شريفة النجار وكفاها أن أباها الشيخ الإمام المحقق تقى الدين بن المفرج الذى شدت إليه الرحال وقصده طلاب العلم من كل مكان .

وكانت نشأته رحمه الله فى مدينة قوص بصعيد مصر وكانت آنذاك لا تقل كثيراً عن مصر أو القاهرة من حيث وفرة رجال العلوم الدينية واللغوية وقد كثر فيها المدارس ودور الحديث ومن بينها دار الحديث التى كانت فى بيت لابن دقيق العيد .

ولعل سبب ازدهار قوص فى هذا العصر وارتقائها فى مضمار العلم ودنيا الثقافة راجع إلى أسباب ثلاثة أولها أن قوص أصبحت بعد أن سيطر الصليبيون والفرنجة على الكرك والعقبة طريق الحج الأمين . والثانى أنها كانت بعيدة عن غارات الفرنجة ومعارك الحروب فقد كانت كلها تدور إما فى المنصورة والإسكندرية أو دمياط ورشيد . أما الوجه القبلى فقد كان بعيداً عن ذلك كله فكان يظله على وجه العموم الهدوء والاستقرار إذ لم يكن فى يوم من أيام هذا العصر مسرح حرب أو قتال وأهل العلم ورجال الثقافة ينشدون دائماً الهدوء والاطمئنان والثالث هو أن قوص كانت فى ذلك الحين قاعدة لنشر مذهب السنة ومقاومة مذهب التشيع الذى كان سائداً فى أكثر بلدان الصعيد .

وأيا ما كان فقد كان البيت الذى انحدر منه ابن دقيق العيد بيت علم

---

(١) الطالع السعيد ص ٢٢٩ .

ومعرفة وكذلك كانت المدينة التى نشأ فيها مدينة علم ومعرفة أتاها العلماء والشعراء من شتى البقاع مقيمين أو عابرين وكذلك أمها طلاب العلم وعشاق المعرفة من مختلف الديار والأصقاع ولم يختلف أحد ممن أرخوا لابن دقيق العيد أو ترجموا له فى أنه نشأ بقوص ما عدا أبا المحاسن ابن تغرى بردى فقد ذكر فى كتابه المنهل الصافى أنه نشأ بالقاهرة وهى رواية لا يعول عليها لأمرين .

أحدهما — أن الشيخ مجد الدين على بن وهب والد شيخنا ابن دقيق العيد كان مقيماً فى قوص وليس فى القاهرة .

الثانى — هو أن جميع الذين تلمذوا له مباشرة أو تلمذوا لمن أخذوا عنه أو كانوا يعيشون فى النصف الأول من القرن الثامن ممن ترجموا له قالوا إنه نشأ فى قوص .

فالذهبى والإدفوى والصفدى وابن فضل الله العمرى وغيرهم كثير وهم أسبق من ابن تغرى بردى فى الزمن وأصدق منه حديثاً وأصح خبراً . ومهما يكن من أمر فقد نشأ ابن دقيق العيد فى قوص على حالة واحدة من الصمت والاشتغال بالعلوم ولزوم الصيانة والديانة والتحرز فى أقواله وأفعاله والبعد عن النجاسة متشدداً فى ذلك . وقد حكت زوجة أبيه أم أخيه الشيخ تاج الدين بنت البيقاش قالت[1] « بنى علىّ والده والشيخ تقى الدين ابن عشر سنين فرأيته ومعه هاون وهو يغسله مرات زمناً طويلا فقلت لأبيه ماذا يفعل هذا الصغير فقال له يا محمد أى شيء تعمل . فقال أريد أن أركب حبراً وأنا أغسل هذا الهاون .

وهذا غاية فى التطهير والبعد عن النجاسة وسر ذلك فرط التدين الأمر الذى جعل الوسواس يلازمه طيلة حياته . هذا وقد بدأ ابن دقيق العيد حياته العلمية بقراءة كتاب الله العظيم حتى حصل منه على حظ جسيم ثم درس فقه المالكية على أبيه وفقه الشافعية على تلميذ أبيه البهاء القفطى ودرس أثناء إقامته فى قوص النحو وعلوم اللغة وقد قرأ العربية على الشيخ محمد أبى الفضل المرسى وحضر عند شمس الدين محمود الأصبهانى لما كان حاكماً بقوص وسمع دروسه وكان

---

(١) الطالع السعيد ص ٣١٩ .

أبعد ما يكون عن العبث ودروب اللهو وقد ذكروا أنه لعب مرة الشطرنج مع زوج أخته تقي الدين بن ضياء الدين فلما حان وقت العشاء قاما فصليا ثم قال ابن دقيق العيد لصهره نعود إليها يعني الشطرنج فقال له صهره إن عادت العقرب عدنا إليها يعني الشطرنج فلم يلعبها بعد مدى الحياة .

وهذ يعني أنه كان مثال الجد والاجتهاد من جهة وأنه ينتصح وينصاع لقول الخير من جهة أخرى .

وقد حكى أنه كان فى مجلس شرف الدين[١] أبو الفضل محمد المرسى فسألهم عن شيء فى النحو فسكت من بالمجلس فقال شرف الدين المرسى أراني أتكلم مع حمير . فلم يعد ابن دقيق العيد إلى مجلسه بعد أن سمع منه ذلك .

وهذا يدل على مدى محافظته على العزة والكرامة ثم ارتحل إلى القاهرة حيث اتصل بالشيخ العز عبد العزيز بن عبد السلام ولازمه حتى مات رحمه الله . وقد أخذ عنه الأصول وفقه الشافعي وعلماً كثيراً لكنه كان فى أثناء حضوره على ابن عبد السلام يتردد إلى قوص وفى سنة ٦٦٠هـ[٢] ارتحل إلى دمشق حيث سمع من أحمد بن عبد الدايم والزين خالد وغيرهما وعاد بعد ذلك إلى مصر وزار شيخه البهاء الذى كان قد استقر فى إسنا وصادف أن تهيأت أثناء زيارته لشيخه المدرسة المجدية[٣] للدراسة فطلب إليه واقفها أن يدرس بها بغية التبرك فأجابه ابن دقيق العيد إلى طلبه وكان أول من درس بتلك المدرسة[٤] .

وهذا يدل على مدى ما عرف به ابن دقيق العيد من التقى والصلاح فى أثناء الطلب والتحصيل .

---

(١) الطالع السعيد ص ٣٢٦ .
(٢) جـ ٢ لوحة ١٦٥ المقفى .
(٣) بنيت سنة تسعين الطالع السعيد ص ٤٠١ .
(٤) طبقات الشافعية ورقة ١١٦ .

المرحلة الثانية من حياته

ثم عاد إلى قوص وأخذ يدرس بالمدرسة النجيبية[١] وبدأ المرحلة الثانية من حياته وهى مرحلة التدريس والإملاء وكان ذلك وسنه لم تجاوز بعد السابعة والثلاثين ويقول الإسنوى[٢] إنه ولى قضاء قوص على مذهب المالكية لما كانت بقية المذاهب الفقهية تشرك مذهب الشافعى فى القضاء بكبريات مدن مصر كالمحلة وقوص .

وهذا يعنى أن ابن دقيق العيد لم يكن قد تشفع حتى ذلك الحين ثم تركها إلى القاهرة وهو دون الأربعين يدل على ذلك ما رواه ابن حجر فى « الدرر الكامنة[٣] » عن شهاب الدين أحمد بن إدريس المالكى أنه قال أقام الشيخ تقى الدين أربعين سنة لا ينام الليل إلا أنه كان إذ صلى الصبح اضطجع على جنبه حيث يتضحى النهار ودرس بالفاضلية[٤] والكاملية[٥] والصالحية[٦] بالقاهرة كما درس بالناصرية[٧] قرب مقام الشافعى وكان قد درس المذهبين الشافعى والمالكى وروى الحديث وله أربعون تساعية ولكنه كان قليل التحدث لتشدده فى التثبت والتحرى وكان فى بعض الأحيان يرفض أن يحدث عن بعض من سمع عنهم لأنهم لم يبلغوا فى تقديره مرتبة الثقات وإن كانوا ثقة فى نظر غيره من معاصريه ، وجاءه أحد طلابه بحديث كتبه بخطه ليحقق عليه سماعه فقال له ابن دقيق العيد حتى أنظر فيه فغاب عنه مدة ثم قال له هو خطى ولكن ما أحقق سماعه .

---

(١) بناها النجيب بن هبة الله القوصى سنة سبع وستمائة — انظر الطالع السعيد ص ٢٣٠ .
(٢) طبقات الشافعية ورقة ١١٦ .
(٣) جـ ٤ ص ٩١ .
(٤) نسبة إلى القاضى الفاضل الذى أنشأها
(٥) نسبة إلى الملك الكامل الذى أنشأها سنة ٦٢١ هـ — حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٨٨ .
(٦) نسبة إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب الذى أنشأها سنة ٦٣٩ هـ — المرجع السابق .
(٧) نسبة إلى السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبى الذى أنشأها سنة ٥٧٢ .

وهذا لعمرى غاية فى الدقة والتحرى واشتهر فى هذه الفترة من عمره بالتقى والورع والانقطاع للعلم والعبادة فكان لا ينام الليل إلا قليلا . قال ابن حجر العسقلانى فى كتابه الدرر الكامنة ما نصه[١] «قرأت بخط الشيخ الحافظ أبى الحسين ابن أيبك المصرى سمعت الصاحب بهاء الدين رحمه الله تعالى قال :

كان ابن دقيق العيد يقيم فى منزلنا بمصر فى غالب الأوقات فكنا نراه فى الليل إما مصلياً وإما يمشى فى جوانب البيت وهو مفكر إلى طلوع الفجر فإذا طلع الفجر صلى الصبح ثم اضطجع إلى ضحوة وقد كان ذكيًّا ألمعيًّا ثبتاً حجة فيما يقول ويروى فإذا حدث أمتع وإذا تكلم أبدع وإذا قال لم يترك مجالا لقائل ، ومع ذلك فقد كان طويل الصمت قليل الكلام حتى قال فيه تاج الدين السبكى وابن فضل الله العمرى والإدفوى وغيرهم ينعتونه بكثرة الاشتغال وقلة الكلام ما نصه[٢] «ولم يزل حافظاً للسانه مقبلا على شأنه وقف نفسه على العلوم وقصرها ولو شاء العاد أن يعد كلماته لحصرها» . فأوقاته كلها معمورة بالدرس والمطالعة أو التحصيل والإملاء فإن أراح نفسه من بعض ذلك العناء فلا يرى إلا قائماً يصلى فى المحراب أو جالساً يتلو كلام الله أو ماشياً يتفكر فى خلق الله متدبراً بديع صنعه مستدلا بذلك على قدرة الله ووحدانيته ، وقد وصفه الإدفوى بما هو أهله فقال[٣] «طالما لازم السهر حتى اصفر وجه الإصباح مشتغلا بالذكر والفكر لا بذاوت الألفاظ الفصاح والوجوه الصباح .

وتبدى له الدنيا من الحسن جملة ... يهيم بها النساك لو شاهدوا البعضا
فيعرض عنها لا هياً عن جمالها ... ويوسعها بعداً ويرفضها رفضا
ويسهر فى ذكر وفكر وفى علا ... ومن بات صبًّا بالعلا جانب الغمضا»

فهو منصرف بجسمه وفكره سواد ليله وبياض يومه إلى البحث والتحقيق والاستنباط والتدقيق أو الصلاة والقيام وتقديس الله الملك العلام وأصدق مرآة

---

(١) ابن حجر — الدرر الكامنة ج ٤ ص ٩٤ — ٩٥ .
(٢) طبقات الشافعية الكبرى ج ٦ ص ٣ .
(٣) الطالع السعيد ص ٧١٣ ج

لحياته فى هذه الفترة من عمره قوله :

الجسم تذيبه حقوق الخدمة والقلب عذابه علو الهمـــة
والعمر بذاك ينقضى فى تعب والراحة ماتت فعليها الرحمـــة

فهو مسهد العينين مؤرق الجفنين لا يذوق النوم إلا قليلا أضنى فؤاده علو همته فى درك العلا ونيل المرام فهو دائم الدرس دائب التحصيل شغل فكره بتحقيق المسائل الدينية واستنباط الأحكام الشرعية وفى حفظ الحديث وروايته وغير ذلك من العلوم العقلية والنقلية ما يريحه من ذلك إلا الصلاة والقيام أو تلاوة القرآن، فهو بحق قد أذابت الطاعة جسمه وعذب علو الهمة قلبه وشغل فكره ولبه طلب العلا وبلوغ المنى وقد عرف فى هذا الطور من حياته بالصلاح والتقوى حتى قال فيه الإسنوى[1] والسبكى وغيرهما فى وصفه إنه التقى لقباً ونعتاً، والولى سمة وسمتاً، وذو الطريقة التى لا عوج فيها ولا أمتا ، وقد تمسك من التقوى بالسبب الأقوى فلم يشتهر أحد فى زمانه اشتهاره ولا حاز قوته على الاستنباط واقتداره، شيخ الدهر بلا نزاع ووجه العصر بغير دفاع. وقد ألف وأملى وصنف كتباً كثيرة فى الأصول والفقه والحديث ومصطلح الحديث ، وسوف أبسط الكلام فى هذا المقام إن شاء الله فى الفصل الثالث الذى سوف أتناول فيه بالشرح والتبيان شخصيته العلمية والفقهية . هذا وقد كان عفا الله عنه لا يأخذ المسيء إليه بإساءته بل يعفو ويصفح، يدل على ذلك ما روى من أن أثير الدين[2] أبا حيان الغرناطى قال يوماً فى مجلس ابن بنت الأعز وهو يفسر قوله تعالى (خسر الذين قتلوا أولادهم . . . الآية) فقال أبو حيان قدموا أولادهم يا مولانا وابن بنت الأعز لم يفهم ما يعنيه أبو حيان بقوله هذا ما معنى هذا يا أبا حيان . فقال يا مولانا ابن دقيق العيد نزل عن المدرسة الفلانية لابنه فلان وقد نقل ذلك إلى ابن دقيق العيد فقال . أما أبو حيان ففيه دعابة أهل الأندلس ومجونهم وأما أنت يا قاضى القضاة فيبدل القرآن فى حضرتك وقد غضب الوزير والسلطان

---

(١) طبقات السبكى جـ ٦ ص ٢ وطبقات الاسنوى ورقة ١١٤ .
(٢) جـ ٦ مجلد ١ لوحة ٨١ — ١٠٢ .

كلاهما بسبب ذلك على ابن بنت الأعز وكان جميع العلماء قد أفتوا بقتله ولم يبق إلا ابن دقيق العيد فذهب إليه النقباء بالمحاضر ليوقع عليها كما وقع جماعة العلماء فلم يرض أن يوافق على ذلك ابن دقيق العيد وكان هو السبب فى إنقاذ ابن بنت الأعز من ضرب العنق . وهذا أدل شىء على ورعه وتقواه وكان إلى جانب هذا مستجاب الدعوة .

يحكى أنه دعا على نور الدين بن الصاحب فخر الدين عمر بن عبد العزيز ابن الخليلى لأمر آلمه به فمات فى تلك المدة .

وشهد له الجميع بالكرامات فقد روى السبكى والإسنوى والإدفوى وابن فضل الله العمرى وجميع من ترجموا له أنه قال فى يوم الجمعة عن واقعة التتار[1] بوطأة حمصى مع الملك المنصور قلاوون (سنة ٦٨٠ هـ خامس عشر رجب) انفصل الحال من أمس العصر . فقيل له نخبر عنك فقال نعم . فقال له كمال الدين محمد بن على بن الهمذانى هذا بيقين . فقال أو يقال هذا عن غير يقين . فقال له عن معاينة أو خبر ؟ فقال بل عن خبر . وكان الحال كما قال .

ابن دقيق العيد فى القضاء

أما الطور الثالث أو الفصل الأخير من حياته فهو أيام القضاء ، وهذه الفترة على قصرها إذ لم تزد مدتها على سبعة أعوام كانت أكثر سنى عمره وأيام حياته خطراً وأعظمها شأناً فقد كان من قبل بعيداً عن الدولة وأربابها والسياسة وأصحابها وإن كان له بذلك اتصال فى بعض الأحيان فهو لا يعدو ما هو بسبيله من أمور الشرع والدين . أعنى أن اتصاله بالدولة وأمرائها كان اتصالا ضعيفاً أو من وجه بعيد .

أما بعد أن ولى منصب قاضى القضاة فقد أصبح على اتصال وثيق بالسلطان

---

(١) الطالع السعيد ص ٣٢٤ .

ونائب السلطان والوزير والأمير وشئون الدولة العليا فهو بمثابة وزير العدل فى عصرنا هذا ، بل هو أشرف منزلة وأعظم خطراً إذ كان السلطان إذا أراد أن يستنفر الناس للجهاد ، أو شاء أن يأخذ من أموالهم لتجهيز الجيش والتقوى على العدو لا يستطيع أن يفعل شيئاً من ذلك حتى يقره على ذلك قاضى القضاة ، ومن هنا كانت الصلة وثيقة بين القضاة والسلاطين والأمراء .

ولى ابن دقيق العيد منصب قاضى القضاة فى يوم السبت الثامن عشر جمادى الأولى سنة ٦٩٥ هـ وقد ذكر ابن حجر العسقلانى فى كتابه رفع الإصر عن قضاة مصر توليته القضاء فقال ما نصه[١] « وكان الذى أشار به على المنصور لاجين — الضياء المعتدى — فقال أدلك على محمد بن إدريس الشافعى وسفيان الثورى وإبراهيم بن أدهم ، وولى القضاء بعد موت التقى عبد الرحمن ابن بنت الأعز ثامن عشر جمادى الأولى سنة ٦٩٥ هـ . ومعنى هذا أن الذى عين ابن دقيق العيد فى منصب قاضى القضاة هو السلطان لاجين ، فى حين أن المقريزى يذكر فى كتابه المقفى أن الذى عينه هو السلطان زين الدين كتبغا المنصورى . إذ قال ما نصه[٢] ثم ولاه السلطان الملك العادل زين الدين كتبغا المنصورى قضاء القضاة بالديار المصرية بعد وفاة قاضى القضاة ذى الرياستين تقى الدين عبد الرحمن بن بنت الأعز فى يوم السبت ثامن عشر جمادى الأولى سنة ٦٩٥ هـ ، وعندى ألا تعارض بين الروايتين وأن كلتيهما صحيحة لأن السلطان لاجين كان يشغل منصب نائب السلطنة أيام السلطان كتبغا إذ يصح أن يكون السلطان لاجين هو الذى قلد ابن دقيق العيد منصب قاضى القضاة وهو نائب السلطان كتبغا .

هذا وقد ذكر السبكى فى طبقاته وكذلك الإسنوى فى طبقات الشافعية والصلاح الصفدى فى أعيان العصر أن ابن دقيق العيد تردد فى قبول منصب القضاء حين عرض عليه وأبدى الامتناع والرفض لولا أن تحايلوا عليه على حد قول

---

(١) ورقة ٢٤٧ — ٢٥٠ .

(٢) جـ ٢ ورقة ١٦٥ .

الإسنوى ، إذ قالوا له عن شخصين لا يصلحان عنده للقضاء إن فلاناً وفلاناً قد انحصر فيهما الأمر إن لم تفعل ، ويقول الإسنوى والظاهر أنه كان كذلك فرأى ابن دقيق العيد لذلك أن تولية القضاء أصبحت واجباً دينيًّا لا مناص من القيام به وقول الإسنوى هذا به تناقض ظاهر . فبينما نراه يقول فى صدر كلامه تحايلوا عليه نراه يعود فيقول والظاهر أنه كان كذلك أى أنهم لم يتحايلوا عليه وإنما ذكروا له واقع الحال . ولعل السبب الذى حدا بالإسنوى إلى هذا التناقض فى الكلام هو أنه يريد أن يبرر قبول الشيخ تقى الدين ذلك المنصب الذى عده ابن فضل الله العمرى زلة من زلات الشيخ تقى الدين وكذلك صاحب الطالع السعيد العلامة الإدفوى إذ قال مانصه[1] « لكنه تولى القضاء فى آخر عمره وذاق من حلوه ومره ، وحط ذلك عند أهل المعارف والأقدار من علو قدره وحسّن الظن ببعض الناس ، فدخل عليه البأس وحصل له من الملامة نصيب ، والمجتهد يخطئ ويصيب . . إلخ .

وقال ابن سيد الناس وهو أحد من أخذوا عن الشيخ تقى الدين ولو لم يدخل فى القضاء لكان ثورى زمانه وأوزاعى أوانه ، وفى رأيى أن ابن دقيق العيد كان يتمنى هذا المنصب منذ زمن بعيد يدل على ذلك قوله :

الحمد لله كم أسعى بعزمىَ فى ... نيل العلا وقضاء الله ينكسه
كأننى البدر أبغى الشرق والفلك ... الأعلى يعارض مسعاه فيعكسه

فهو قد سعى بجده وعزمه فى نيل العلا لكن الله سبحانه وتعالى لم يشأ له أن يبلغه ولست أفهم معنى يمكن أن يقصد إليه ابن دقيق العيد من قوله نيل العلا سوى الوصول إلى منصب قاضى القضاة ، لأن هذا المنصب كان فى أيامه هو أسمى ما يصبو إليه رجال الدين ، ولو أراد أحد أن يفهم كلمة العلا بوجه آخر كأن يقول إن المقصود من كلمة العلى هنا العلو المعنوى وليس العلو فى المناصب فإنى أجيب على ذلك بأن ابن دقيق العيد قد بلغ بتفوقه وغزارة علمه ، وحسن تدينه

---

(١) الطالع السعيد ص ٣٣٥ .

وعظم تورعه ما لم يبلغه أحد سواه من رفعة المكانة وسمو المنزلة لدى الجميع من معاصريه؛ فقد كان مقدماً عند الأمراء والوزراء وعامة الشعب على جميع أقرانه فى العلم والدين، وإذاً فلم يكن ابن دقيق العيد يطلب الاحترام والتقدير من الناس وإحلاله من نفوسهم المكانة اللائقة به، لأن ذلك كان أمراً واقعاً وإنما كان يريد إلى جانب الرفعة المعنوية رفعة فى المنصب والمرتبة وليس ثمة منصب يطمع فيه ابن دقيق العيد أكثر من منصب قاضى القضاة. هذا على أن له قصيدة أخرى ذكرها تاج الدين السبكى فى كتابيه (معيد النعم ومبيد النقم، وطبقات الشافعية الكبرى) وأثبتها فى موضعها من الديوان مطلعها :

يقولون لى هلا نهضت إلى العـلا فـما لذ عيش الصابر المتقنـع

فهذه القصيدة تدل دلالة واضحة على أن ابن دقيق العيد كان يطمع فى منصب قاضى القضاة إذ يقول فيها :

وهلا شددت العيس حتى تحلهـا بمصر إلى ظل الجنـاب المرفّع
ففيها من الأعيان من فيض كفـه إذا شاء روى سيلـه كل بلقـع
وفيها قضاة ليس يخفى عليهـمُ تعـين كون العلم غير مضيـع

فهو كما ترى يقول إن الناس ينصحون له بالذهاب إلى مصر حاضرة البلاد ومقر السلاطين والأمراء حيث يجد لديهم المال الوفير ويظفر منهم بالحفاوة والتقدير إذ كان الأمراء والسلاطين فى ذلك الوقت إذا أعجبوا بعالم ولمسوا لديه الكفاءة والجدارة أسندوا إليه منصباً يليق به. وأهم مناصب ذلك العصر بالنسبة لرجال الدين كان منصب قاضى القضاة، ويبدو من هذه القصيدة أن ابن دقيق العيد كان متردداً فى العمل بتلك النصيحة إلا أنه عاد فانتصح بها حيث ترك قوص إلى القاهرة لا للتعلم كما كان الحال من قبل فى حياة شيخه ابن عبد السلام، وإنما ليجرب حظه فى هذا البلد الكبير الذى كان يغص بالعلماء والأدباء من أهل مصر والشام والعراق والأندلس وغير ذلك من بقاع الإسلام. لكنه لم يظفر بادئ الأمر بأكثر من وظيفة التدريس فدرس بالفاضلية والصالحية ثم الناصرية

وأخيراً صار شيخ دار الحديث الكاملية .

والقصد من هذا إن أقول أن ابن دقيق العيد حين ترك قوص ليستقر فى القاهرة ، كان يصبو إلى الظفر بمنصب قاضى القضاة . والقصيدة هذه تدل على ذلك . غير أنه لم يستطع أن يصل إلى ذلك المنصب إلا فى أخريات حياته .

والسبب فى ذلك راجع فيما أعتقد إلى أن ابن دقيق العيد كان معتزاً بنفسه حافظاً لماء وجهه لا يجرى وراء الأمراء ولا يقف على أعتاب السلاطين ، يدل على ذلك قوله فى هاتيك القصيدة التى أسلفت طرفاً منها قوله :

وفيها وفيهـــا والمهـــانة ذلـــة	فقم واسع واقصد باب رزقك واقرع
فقلت نعم أسعى إذا شئت أن أرى	ذليـــلا مهاناً مستخفـــاً بموضعى
وأسعى إذا ما لذ لى طول موقـــفى	على باب محجوب اللقـــاء ممنـــع
وأسعى إذا كان النفاق طـــريقتى	أروح وأغدو فى ثيـــاب التصنع
وأسعى إذا لم يبـــق فىّ بقيـــة	أراعى بها حق التقى والتـــورع

فهذا الشعر كما ترى واضح صريح فى أن المراتب والمناصب فى عصر ابن دقيق العيد لم تكن لتنال فى أكثر الأحيان إلا بالمصانعة والمداهنة والنفاق وبذل ماء الوجه واحتمال المهانة وقبول المذلة . وتلك خصال لا تتوفر فى غير مرضى النفوس وضعاف الإيمان .

أما التقىّ الورع الذى اتخذ الدين شعاره كابن دقيق العيد فإنه لا يعقل أن يتصف بواحدة من تلك الخلال . وبالتالى فإنه من غير الميسور على مثله أن يلى منصب قاضى القضاة . هذا على أن هناك ظاهرة لا يستطيع إنكارها أحد ، وهى أن ابن دقيق العيد كان مالكيّـاً ثم اعتنق مذهب الشافعى ، وقد أجمع على ذلك كل من ترجم له وذلك دليل واضح وبرهان قاطع على أن ابن دقيق العيد كان يطمع منذ أن أنهى مرحلة التعلم من حياته وبدأ مرحلة التدريس والإملاء فى تولى منصب قاضى القضاة الذى كان وقفاً آنذاك على علماء الشافعية ، وإلا فأى شىء حمل ابن دقيق العيد على ترك مذهب الإمام مالك وهو مذهب

أهل الصعيد بوجه عام ومذهب أبيه على بن وهب بوجه خاص .

ومهما يكن من شيء فقد تولى ابن دقيق العيد منصب قاضى القضاة للديار المصرية ومكث فيه حتى توفاه الله فى ١١ صفر سنة ٧٠٢ هـ

هذا على أنه كان متبرماً بالقضاء يتحين الفرص للتخلص منه ، يدل على ذلك ما ذكره ابن حجر العسقلانى فى كتابه (رفع الإصر عن قضاة مصر) قال مانصه(١) « فإن سمع ما يكره عزل نفسه ، فحل ذلك مراراً » وقد عزل نفسه مرة بسبب أوقاف كان بعض الأمراء قد اقتطعها ولم يعد إلى القضاء حتى أعيدت . ومرة أخرى بسبب الأمير منكوتمر نائب السلطنة أيام السلطان لاجين وذلك فى خبر طويل ذكره المقريزى فى كتابه المقفى . وقد آثرت أن أذكر القصة كما رواها صاحب المقفى بنصهالما تحمله فى ثناياها من صور تكشف لنا عن مدى تمسك الشيخ تقى الدين وتشبثه بالدين وصلابته فى الحق وأنه لا يخاف لومة لائم .

هذا من جهة ،ومن جهة أخرى،فإنها تبين لنا كيف أن الأمراء وأرباب الدولة من المماليك كانوا يتدخلون فى أمور القضاء لتحقيق مآربهم وإليك النص قال(٢) « واتفق له فى ولايته القضاء أن بعث إليه الأمير منكوتمر النائب يعلمه أن تاجراً مات وترك أخاً من غير وارث سواه ،وأراده أن يثبت استحقاق الأخ لجميع الميراث من مجرد هذا الأخبار ،فأبى ذلك وترددت الرسل بينهما إلى أن اشتد غضب منكوتمر وبعث إليه كرت الحاجب . فلما دخل عليه سلم ووقف فرد عليه القاضى السلام وقام له نصف قومة وأمره فجلس وأخذ يتلطف بالقاضى فى إثبات أخوة التاجر بشهادة منكوتمر . فقال وماذا ينبنى على شهادة منكوتمر . فقال يا سيدى ما هو عندكم عدل . فقال سبحان الله . ثم أنشد :

يقولون هذا عندنا غير جائز ومن أنتمو حتى يكون لكم عند

وكرر هذا البيت ثلاث مرات ثم قال : « والله هى لم تقم بينة شرعية تثبت عندى وإلا فلا حكمت كل شيء بسم الله » قم فقام كرت وهو يقول : هذا والله

(١) ورقة ٢٤٧ .

(٢) جـ ٢ لوحة ١٦٥ .

هو الإسلام ، وبلغ ذلك الأمير منكوتمر واعتذر إليه فلم يقبل عذره فلما طلع القاضى للخدمة بالقلعة على العادة ومر بدار النيابة ومنكوتمر جالس بالشباك تسارع إليه الحجاب واحداً بعد واحد يقولون: يا سيدى الأمير ولدك يريد الاجتماع بخدمتك ، فلم يلتفت إلى أحد منهم وهم يكررون السؤال فقال: قولوا له ما وجبت طاعتك علىّ ثم التفت إلى من معه وقال: « أشهدكم أنى عزلت نفسى قولوا له فليول غيرى ، ورجع من غير أن يدخل إلى الخدمة السلطانية ودخل بيته وأغلق بابه وبعث إلى النواب فى الحكم يمنعهم ، فشق ذلك على السلطان الملك المنصور حسام الدين لاجين ، وأنكر على الأمير منكوتمر وبعث إلى القاضى بالشيخ نجم الدين حسين بن محمد بن عبود والطواشى مرشد ، فما زالا به حتى ركب معهما إلى القلعة فعندما رآه السلطان قام إليه وتلقاه ، وأخذ بيده ليجلسه على المرتبة فبسط خرقة كانت فى كمه فوق المرتبة وكانت من حرير ثم جلس دون المرتبة وأراد وضع الخرقة فوق المرتبة ستر الحرير حتى لا يراه وهو جالس ، وأخذ السلطان يعرض عليه العودة إلى القضاء ويتطلف به وهو يأبى ذلك إلى أن قبل الولاية فقال له السلطان يا سيدى هذا ولدك منكوتمر وأشار إليه يكون خاطرك معه ادع له ، فنظر إلى منكوتمر ساعة وصار يفتح يديه ويقبضها ثم قال منكوتمر ما يجىء منه شىء يكررها مرات وقام .

وهذا يدل دلالة واضحة على أمور كثيرة ذات بال ولها وزنها فى هذا المقام ، فهو يفيد أن ابن دقيق العيد كان قاضياً عادلا نزيهاً لا يجامل فى الحق ولا يمالئ فى القضاء فهو لا يقبل شهادة الأمير لأنه عنده غير عدل فى حين أن جميع العظماء والكبراء والعلماء والفقهاء يتملقونه ويتقربون إليه ، بل أكثر من هذا فابن دقيق العيد يحقره ويزدريه لا بل إنه يزدرى جميع المماليك إذ يقول رداً على الأمير كرت الحاجب حينما قال له ما هو بعدل عندك يا سيدى قال :

يقولون هذا عندنا غير جائز ... ومن أنتمو حتى يكون لكم عند

فالمماليك إذن فى رأى ابن دقيق العيد لا تقبل شهادتهم حتى ولو كانوا فى منزلة لا تختلف كثيراً عن منزلة السلطان ، كوظيفة نائب السلطنة وهى التى

كان يتبوؤها آنذاك الأمير منكوتمر . ثم إن هذه القصة تدل من جهة أخرى على فضل ابن دقيق العيد وسمو مكانته لدى الأمراء وأصحاب النفوذ والمكانة العليا فى الدولة بما فى ذلك السلطان، وبالطبع لم تكن له تلك المنزلة عند أولئك المماليك لولا أنهم رأوا تقدير الناس له وتعظيمهم إياه وأنه مقدم لدى عامة الشعب وخاصتهم فى العلم والدين على جميع أقرانه . . ومما يدل على تشدد ابن دقيق العيد فى الحق وتمسكه بأحكام الدين وقوانين الشريعة ومحافظته عليها من أن يعبث بها الجهلاء الطامعون أو العلماء الضالون الذين يقدمون العاجلة على الآجلة ويفضلون الدنيا على الأخرى ويبيعون دينهم وضمائرهم فى سبيل حصولهم على المناصب والمراتب أو عرض تافه لا يلبث أن يزول . يدل على ذلك موقفه من بيبرس الجاشنكير وسلار نائب السلطان وكان لهذين آنذاك أمور الدولة والتصرف فى شئونها أعنى سنة ٦٩٩ هـ لما كان العسكر [١] قد عادوا من الشام مهزومين فى حربهم مع التتار وقد أراد هذان الأميران أن يجمعا المال من الشعب لمواجهة عسكر التتار ،وكان القاضى مجد الدين عيسى بن الخشاب قد أراد أن يتقرب إلى بيبرس وسلار فأفتى بأنه يجوز للسلطان أن يأخذ من كل فرد ديناراً ليتقوى به على حرب العدو ،وقد اعتمد فى ذلك على فتوى ابن عبد السلام بجواز ذلك أيام سيف الدين قطز مع عظم الفارق بين الحالتين ، فلما طلب من ابن دقيق العيد أن يفتى بذلك أبى وامتنع فلما احتج عليه ابن الخشاب بفتوى عز الدين بن عبد السلام قال : « إن ابن عبد السلام لم يفت فى ذلك إلا بعد أن أحضر جميع الأمراء كل ما لديهم ولدى نسائهم وأولادهم من حلى وأموال وذهب ، وفضة ، ثم ذكر فى صراحة أن الأمراء لديهم الأموال والذهب وأن فيهم من جهز ابنته لتزف إلى زوجها وأنه عمل فى شوارها الجواهر واللآلئ والحلى والذهب واتخذ لها الأوانى من الفضة ،وأن منهم من رصع مداس زوجته بالجواهر . يريد بذلك الأمير بيبرس سرس ثم قال : «وكيف يحل مع ذلك أخذ شيء من أموال الرعية ،لا والله لا جاز لأحد أن يتعرض لدرهم من أولاد الناس إلا بوجه شرعى » .

---

(١) جـ ٢ لوحة ١٦٥ .

وهذا أدل شيء على عدالة ابن دقيق العيد ونزاهته فى الحكم والقضاء، وأنه لم يكن يخاف غير الله فإن كان غيره يجاملون الأمراء ويتقربون إلى السلاطين على حساب الدين كما رأينا ذلك عند ابن الخشاب فإن ابن دقيق العيد يراقب الله فى قوله وعمله ولا يفتى بغير ما أنزل الله مهما كانت النتائج أو العواقب، فهو غير متمسك بمنصب قاضى القضاة ولا وهو من المتكالبين على المراتب والوظائف ولو كان على شيء من هذا لولى منصب قاضى القضاة قبل أن وليه بسنين لكنه لم يكن من أولئك العلماء الذين يسعون إلى الأمراء . ومما يدل على سداد رأيه وصحة حكمه وأنه يتوخى فى قضائه وآرائه وفتاواه الدقة والعدالة ما حدث إثر واقعة اليهود والنصارى التى حدثت فى شهر رجب سنة ٧٠٠ هـ من أنهم ألزموا بترك زى المسلم وأن لا يركبوا الخيل ولا البغال وأن تكون عمائم النصارى زرقاء وعمائم اليهود صفراء ، وكان الفقيه نجم الدين أحمد بن الرفعة قد أفتى بوجوب هدم كنائسهم من أجل أنها حدثت فى الإسلام فجمع القضاة والفقهاء لذلك، فلم يوافقه ابن دقيق العيد على هدمها وقال[1] « أحتاج إلى بينة تشهد أنها حدثت فى الإسلام، فإن قامت البينة بهذا أفتيت وحكمت بهدمها، ومتى لم تقم البينة على له بذلك لا يجوز هدمها» فوافقه الجماعة على ذلك وامتنع الناس من هدم الكنائس بعد ما هدموا منها بأعمال مصر عدة . ومن هنا أستطيع أن أقول إن القضاء كان مرآة تجلت فيه شخصية ابن دقيق العيد ووضحت وضوحاً تاماً بصفتيها الدينية والعلمية، وقد كانت أعماله وتصرفاته أيام توليته القضاء دليلا قاطعاً وبرهاناً ساطعاً على فرط نزاهته وشدة ورعه وعظم تقواه، ومعنى هذا أنى أعد دخول ابن دقيق العيد فى القضاء من الأمور التى تحملنا على نعته بالتقى والصلاح وصدق الإيمان وسلامة الدين . وهذا على خلاف ما روى عن ابن سيد الناس أنه قال[2] « ولو لم يدخل فى القضاء لكان ثورى زمانه وأوزاعى أوانه » يعنى أنه اعتبر القضاء من الأمور التى تحط من تدين ابن دقيق العيد وتقدمه على غيره فى

---

(١) السلوك جـ ١ ق ٣ ص ٩١٢ .

(٢) الطالع السعيد ص ٣٢٤ .

التقى والصلاح . ولعل ابن سيد الناس كان متأثراً فى مقاله هذا بما كان يتقول به عليه المغرضون أو الشانئون ، وإليك مثلا على ذلك ما رواه الإدفوى قال[1] « وحكى شرف الدين يعقوب الببار المالكى وكان من الفقهاء العدول قال : كان فى نفس الصاحب تاج الدين من الشيخ ، وكان ابن الأرسوفى وصّى بوصية ومات فقال الصاحب لفقير من المصريين رح إلى الشيخ واطلب منه شيئاً من الوصية وقل له كذا وكذا فإذا قال فرغت قل له لو كان فلان القوصى وفلانة دفعتم له ورتبتم . فحضر بجامع مصر وذكر ما رتب فيه . فلما فرغ وخرج رفسه بغل فمات من ساعته » .

وهذا يدل دلالة واضحة على أن أعداء ابن دقيق العيد كانوا كثيراً ما يتقولون عليه وينسبون إليه ما لم يفعله ، وقد قال الصلاح الصفدى بعد أن أورد ما وقع من أثير الدين أبى حيان الغرناطى بين يدى ابن بنت الأعز الذى كان آنذاك قاضى القضاة ، وكان يفسر قوله تعالى (خسر الذين قتلوا أولادهم) فقال أثير الدين يا مولانا القاضى قدموا أولادهم ، قدموا أولادهم ، وابن بنت الأعز لا يفهم ما يعنيه أثير الدين فقال ما معنى هذا يا أبا حيان فقال . يا سيدى ابن دقيق العيد نزل عن المدرسة الفلانية لابنه فلان ، وقد سبق أن ذكرت القصة بجملتها . فلما فرغ الصفدى من سرد القصة وما كان بعد ذلك من ابن دقيق العيد فى حق أبى حيان وهو أن ابن دقيق العيد كان إذا خلت وظيفة وقال الناس هذه تصلح لأبى حيان ، كان ابن دقيق العيد يعين فيها سواه . قال الصفدى بعد ذلك كله « لا يصح أن يرجع أو يعوّل على قول المعاصرين بعضهم فى بعض لمثل هذه الأشياء التى ذكرناها » يعنى أن المعاصرين كثيراً ما يحقد بعضهم على بعض ويضطغن عليه ، ومن هنا فلا يجوز للباحث أو المحقق المنصف أن يعتمد فى أحكامه على أقوال أرباب الضغائن والأحقاد من المعاصرين وبخاصة إذا كانوا من الشعراء فإنهم كثيراً ما يلبسون الباطل ثوب الحق والحق ثوب الباطل فيما يروونه فى شعرهم من أخبار أو يصدرونه على بعض الأفراد أو الجماعات من

(١) الطالع السعيد ص ٣٢٤ .

أحكام، وقد وصفهم القرآن بما هم أهله إذ قال سبحانه وهو أصدق القائلين: (والشعراء يتبعهم الغاوون، ألم تر أنهم في كل واد يهيمون، وأنهم يقولون ما لا يفعلون).

هذا على أن ما قيل في حق ابن دقيق العيد من هجاء جرى على ألسنة بعض الشعراء لم يكن يطابق الواقع ولا يصور شيئاً من الحقيقة ولست أقول هذا تعصباً لابن دقيق العيد وإنما هو حقيقة تنم عنها ظروف ذلك الهجاء وقصته، وإليك ما رواه لنا الإدفوي في هذا المقام قال[1] « وأخبرني برهان الدين المصري الحنفي الطبيب وكان قد استوطن قوص سنين . قال كنت أباشر وقفاً فأخذه مني شمس الدين بن أخي الشيخ وولاه آخر ، فعز عليّ ونظمت أبياتاً في الشيخ فبلغته فأنا أمشي مرة خلفه وإذا به قد التفت إليّ وقال: « يا فقيه بلغني أنك هجوتني » فسكت زماناً ، فقال: أنشدني وألحّ عليّ فأنشدته :

وليت فولى الزهـد عنك بـأسره وبان لنا غير الذي كنت تظهر
ركنت إلى الدنيا وعاشرت أهلها ولو كان عن جبر لقد كنت تعذر

فسكت زماناً وقال: « ما حملك على هذا » فقلت « أنا رجل فقير وأباشر وقفاً أخذه مني فلان » فقال ما علمت بهذا أنت على حالك . فباشرت الوقف مدة وخطر لي الحج فجئت إليه أستأذنه فدخلت خلفه فالتفت إلي وقال: « أمعك هجو آخر ؟ » فقلت « لا ولكنني أريد الحج وجئت أستأذن سيدي . فقال مع السلامة ما نغير عليك » . ثم ذكر بعد ذلك الإدفوي هجاء في الشيخ قاله عبد اللطيف بن القفصي (ويعرف بعبد اللطيف القوصي) وهو عبارة عن بليقة أولها :

قاضي القضـاة عزل نفسه لـما ظهر للناس نحسـه

وهذا هجاء كما ترى لا يدل في شيء على جور ابن دقيق العيد أو ظلمه ولا على أنه ارتكب فعلة تشينه بوصفه قاضياً أو رجلا من رجال الدين .

أما البليقة فلأنها إن دلت على شيء فإنما تدل على ما عرف به المصريون

---

(١) الطالع السعيد ص ٣٢٨ .

من التندر والتفكه وكثرة التنكيت على رجال الحكم وأرباب الدولة فهم لا يدعون حاكماً أو رئيساً مصلحاً كان أو مفسداً، عادلا كان أو ظالماً إلا ويكثرون فى مجالسهم من التندر به وبأفعاله وهم كثيراً ما ينسجون حوله القصص والحكايات بقصد الضحك والتفكه تارة أو الذم والتشنيع تارة أخرى .

أما هجاء برهان الدين المصرى فهو أيضاً لا يدل على ظلم ابن دقيق العيد أو جوره لأن الأوقاف أخذت من برهان الدين دون علم ابن دقيق العيد كما هو واضح من القصة آنفاً . وهى فى جملتها تدل على نزاهة ابن دقيق العيد فى الحكم وعدالته فى القضاء .

هذا وخير شىء يصور لنا شخصية ابن دقيق العيد القضائية كتابه الذى أرسله إلى نوابه فى الوجهين القبلى والبحرى يعظهم فيه ويرسم لهم الدستور الذى يجب عليهم أن ينتهجوه ويلتزموه فى أحكامهم وكيفية معالجتهم مشاكل الناس وقضاياهم . وإليك نص ذلك الكتاب الذى هو أشبه شىء بما نطلق عليه فى عصرنا الحاضر اسم المنشور . قال رحمه الله بعد البسملة ما نصه[1] (يا أيها الذين آمنوا قو أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) .

صدرت هذه المكاتبة إلى المجلس السامى وفقه الله لقبول النصيحة وأتاه لما يقربه قصداً صالحاً ونية صحيحة . أصدرناه إليه بعد حمد الله الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ويمهل حتى يلتبس الإمهال بالإهمال على الغرور نذكره بأيام الله فإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون ، ونحذره صفقة من باع آخرته بدنياه فما أجد سواه مغبوناً عسى الله أن يرشده بهذا التذكار وينفعه ويأخذ هذه النصائح لحجزته عن النار ، فإنى أخاف أن يتردى فيخر من ولاه والعياذ بالله معه ، والموجب لإصدارها ما تلمحناه من الغفلة المستحكمة على القلوب ومن تقاعد الهمم عن القيام بما يجب للرب على المربوب ومن أنسهم بهذه الدار

---

(١) المقريزى — المقفى لوحة ١٦٥ وما بعدها .

وهم يولون عنها ، وعلمهم بما فى أيديهم من عقبة كئود وهمة لا يتحققون منها ولا سيما القضاة الذين تحملوا أعباء الأمانة على كواهل ضعيفة ، وظهروا بصور كبار وهم نحيفة ، ووالله إن الأمر لعظيم وإن الخطب لجسيم ، ولا أرى أن مع ذلك أمناً ولا قراراً ولا راحة ، اللهم إلا رجلا نبذ الآخرة وراءه واتخذ إلهه هواه وقصر همه وهمته على حظ نفسه ودنياه ، فغاية مطلبه حب الحياة والرغبة فى قلوب الناس وتحسين الزى والملبس والركبة والمجلس غير مستشعر خسة حاله ولا ركاكة مقصده ، وهذا لا كلام معه فإنك لا تسمع الموتى وما أنت بمسمع من فى القبور فاتق الله الذى يراك حين تقوم ، واقصر أملك عليه فالمحروم من فضله غير مرحوم ، وما أنا وأنتم أيها النفر إلا كما قال حبيب العجمى رضى الله عنه وقد قال له قائل : ليتنا لم نخلق . فقال : قد وقعتم فاحتالوا . وإن خفى عليك بعض هذا الخطر وشغلتك الدنيا أن تقضى من معرفته الوطر فتأمل قوله صلى الله عليه وسلم : القضاة ثلاثة . وقوله صلى الله عليه وسلم مشفقاً لا تأمرن على اثنين ولا تلين مال يتيم . لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . وما أنا والسير فى متلف يبرح بالذكر الضابط . هيهات . جف القلم ونفذ أمر الله فلا راد لما حكم . ومن هنالك شم الناس من فم الصديق رائحة الكبد المشوية ، وقال الفاروق ليت أم عمر لم تلده ، واستسلم عثمان وقال من أغمد سيفه فهو حر ، وقال على والخزائن بين يديه مملوءة : من يشترى منى سيفى هذا ولو وجدت ما أشترى به مداً ما بعته . وقطع الخوف نياط عمر بن عبد العزيز فمات من خشية العرض . وعلق بعض السلف فى بيته سوطاً يؤدب به نفسه إذا فتر . أفترى ذلك سدى ؟ أم وضح أن نحن المقربون وهم البعداء ، وهذه والله أحوال لا تؤخذ من كتاب السلم والإجارة والجنايات . نعم كلها تنال بالخضوع ، والخشوع وبأن تظمأ وتجوع وتحمى عينيك الهجوع ، ومما يعينك على هذا الأمر الذى دعوتك إليه وتزودك فى سفرك للعرض عليه . أن تجعل لك وقتاً تعمره بالتذكير والتفكير ، وأياماً تجعلها لك معدة بجلاء قلبك . فإنه إن استحكم صداه صعب تلافيه وأعرض عنه حق هو أعلم بما فيه . فاجعل همك الاستعداد للميعاد والتأهب لجواب الملك الجواد فإنه يقول :

(فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون) ،ومهما وجدت من همتك قصوراً أو استشعرت من نفسك عما بدا لها نفوراً فاجأر إليه وقف ببابه . فإنه لا يعرض عمن صدق ولا يعزب عن علمه خفايا الضمائر (ألا يعلم من خلق). هذه نصيحتى إليك وحجتى بين يدى الله إن فرطت عليك، أسأل الله لى ولك قلباً واعياً ولساناً ذاكراً ونفساً مطمئنة بمنه وكرمه[1] » .

فهذا منشور لا يضع قانوناً ولا يبين أحكاماً يلتزم القاضى تطبيقها والحكم بمقتضاها ، وإنما هو وعظ وإرشاد وترهيب ونصح وتوجيه . وكأن ابن دقيق العيد أدرك أن صحة الحكم وعدالة القضاء إنما تصدر عن نفس خيرة تخشى الله وتتقى عذابه وعقابه . فهو لا يريد أن يبسط لهم القضايا الفقهية والأحكام الشرعية لأنها موجودة فى كتب الفقه، وهم، أعنى نوابه فى الحكم، قد درسوها واستوعبوها . فهم إذن ليسوا بحاجة إلى من يشرحها لهم أو ينبههم إليها وإنما هم فى حاجة إلى من يذكرهم بعقاب الله الشديد وغضبه على من جار أو ظلم . إذاً فابن دقيق العيد قد علم ذلك كله علم اليقين فأرسل إليهم كتابه الذى أراد به أن يعالج مرض النفوس وسقم القلوب كما تصح الأحكام وتسود العدالة فيأخذ لكل ذى حق حقه ولا يظلم أحد فتيلا .

هذا ولو عرفنا ما كان عليه أرباب الحكم والقضاء فى ذلك العصر من ظلم الناس والعسف بالرعية والتقرب إلى الملوك والسلاطين على حساب الشعب كما رأينا ذلك عند ابن الخشاب حين أفتى بجواز أخذ المال من المصريين ليتقرب بذلك إلى السلطان أو القائمين على الأمر باسمه من أمراء المماليك ، لو عرفنا ذلك وجعلناه فى حسابنا، لعرفنا كيف استحق ابن دقيق العيد أن يقول عنه الصفدى والإسنوى وغيرهما. «إنه قام بالحق وكل قاعد» . وإلا لعرفنا لماذا وصفه العلماء الثقات المعتد بقولهم كالصفدى والإدفوى والإسنوى وغير هؤلاء كثير بالنزاهة والتقى والورع والتقدم على جميع معاصريه فى العلوم الدينية، والفنون

---

(١) قابلنا بين رواية المقريزى وما رواه الإدفوى فى الطالع السعيد ص ٣٣٦ فاستخلصنا الصورة التى أثبتناها .

الشرعية وبأنه محي الشريعة ومصحح الأوضاع الدينية وبأنه ينطبق عليه الحديث النبوى الذى معناه أن الله سبحانه وتعالى يبعث على رأس كل مائة عام من يجدد للأمة أمر دينها ،وفى هذا يقول العلامة السبكى فى كتابه طبقات الشافعية الكبرى ما نصه[١] « ولم ندرك أحداً من مشايخنا يختلف فى أن ابن دقيق العيد هو العالم المبعوث على السبعمائة المشار إليه فى الحديث المصطفوى النبوى صلى الله عليه وسلم » .

ولا عجب فإن ابن دقيق العيد كما هو واضح مما أسلفت من مواقفه إزاء أرباب الدولة وأمراءها من المماليك كان يطبق الأحكام الشرعية على الجميع لا فرق عنده فى ذلك بين الحاكم والمحكوم ولا بين السيد والمسود فهو يراقب ربه فى كل ما يأتى أو يذر فلم يفت من أجل السلطان والأمراء بجواز ما يرى أنه غير جائز ولم يقبل شهادة نائب السلطنة مع ما كان عليه من الجبروت والهيمنة والسلطان. لا بل أنه احتقر المماليك وازدراهم ولم يقم لمقالة أحدهم وزناً ، وشاهد ذلك قوله رداً على الأمير كرت الحاجب الذى أوفده إليه منكوتمر ليحكم لشقيق التاجر الذى مات باستحقاقه إرثه وكان الأمير كرت الحاجب قد قال لابن دقيق العيد يا سيدى ما هو عندكم عدل ، يعنى الأمير منكوتمر فقال ابن دقيق العيد . هذا

يقولون هذا عندنا غير جائز   ومن أنتمو حتى يكون لكم عند

وقد كان له مآثر أخرى كثيرة فى دنيا القضاء أهمها أنه ارتفع بمنزلة القاضى وحافظ على كرامة القضاء ، فلم يجر خلف الأمراء والسلاطين ولا سار فى ركابهم كما أنه أخذ من بعض الأمراء ماكانوا قد استقطعوه من الأوقاف وأنشأ المودع الحكمى فقد قال ابن حجر العسقلانى فى كتابه الدرر الكامنة ما نصه[٢] « وهو أول من عمل المودع الحكمى وقرر أن من مات وله وارث إن كان كبيراً أقبض حصته ، وإن كان صغيراً أحمل المال فى المودع ، وإن كان للميت وصى خاص ومعه عدول يندبهم القاضى لينضبط أصل المال على كل تقدير ، واستمر

(١) طبقات الشافعية الكبرى جـ ٦ ص ٣ .
(٢) جـ ٤ ص ٩٣ .

الحال على ذلك» . ويشبه صنيع ابن دقيق العيد هذا بالتركة والورثة ما يعرف اليوم باسم الديوان الحسبي وهي لعمري فضيلة لا ينكرها عليه جاحد. وكان له فوق هذا كله من الأعمال ما هو عنوان التقى والورع ، وذلك كخلعه على القضاة الصوف وكانوا من قبل يخلع عليهم الحرير واستمر الحال بعده على ذلك أيضاً .

هذا ومن الصفات التي لازمت ابن دقيق العيد وكانت بارزة في حياته هي الكرم والسخاء . يدل على ذلك ما حكاه الإدفوي في كتابه الطالع السعيد إذ قال ما نصه[1] « وكان كريماً جواداً سخياً . أخبرنا الشيخ العلامة علاء الدين القونوي رحمه الله تعالى أنه كان يعطيه في كثير من الأوقات الدراهم والذهب» . ثم قال: «وحكى الشيخ نجم الدين محمد بن عقيل اليالس أنه قدم في الحفل فحضر عنده وتكلم فأرسل إليه مائتي درهم ثم ولاه النيابة بمصر» ثم قال: «وحكى صاحبنا محمد بن الحواسيي القوصي وكان من طلبة الحديث وأقام بالقاهرة مدة في زمن الشيخ قال : كان الشيخ يعطيني في كل وقت شيئاً فأصبحت يوماً مفلساً فكتبت ورقة وأرسلتها إليه فيها المملوك محمد القوصي أصبح مضروراً . فكتب لي شيئاً . ثم ثاني يوم كتبت المملوك الحواسيي فكتب لي بشيء . ثم ثالث يوم كتبت المملوك محمد فطلبني وقال لي: من هو ابن الحواسيي . فقلت المملوك . قال ومن هو القوصي ؟ قلت المملوك . قال تدلس على تدليس المحدثين . قلت الضرورة . فتبسم وكتب لي » . وهذا لعمري غاية في الدلالة على كرم ابن دقيق العيد وحلمه وحسن خلقه، على أنه كان في أكثر أوقاته في فاقة . وقد ذكر ذلك الإدفوي والمقريزي وغيرهما كابن فضل الله العمري في كتابه مسالك الأبصار . وسأكتفي من أقوال هؤلاء جميعاً في هذا المقام . بقول العلامة الإدفوي وإليك النص قال[2] « لكنه كان غالباً في فاقة تلزمه الإضاقة فيحتاج إلى الاستدانة . وقد تفضي به إلى بذل الوجه المعروف بالصيانة » .

ولست أريد أن أكثر من إيراد النصوص في هذا الصدد وذكر الروايات المختلفة التي تتحدث عن فقره حتى أيام توليته منصب قاضي القضاة إذ قال

(١) الطالع السعيد ص ٣٢٣ .
(٢) الطالع السعيد ص ٣٢٤ .

المقريزى فى مقفاه ما نصه[١] «وطلب مرة وهو متولى الحكم درهماً من أولاده ليشترى به شمعة فلم يجدوه» . لست أريد أن أكثر هنا من ذكر النصوص والأقوال فى مسألة فقره فإن شعره قد كفانا مئونة ذلك إذ يقول :

لعمرى لقد قاسيت بالفقر شدة وقعت بها فى حيرة وشتات
فإن بحت بالشكوى هتكت مروءتى وإن لم أبح بالصبر خفت مماتى
فأعظم به من نازل بملمة يزيل حيائى أو يزيل حياتى

وهذا يدل على أن ابن دقيق العيد قد ذاق مرارة الفاقة وقاسى من الفقر الكثير وأنه كان يبلغ به الفقر إلى درجة يكون لا مناص معها له من أحد أمرين . إما أن يبذل ماء الوجه الذى عرف بالصيانة على حد تعبير الإدفوى أو أنه يحفظ ماء وجهه و يربأ بكرامته فلا يستجدى الناس .

ومعنى هذا أنه سوف يموت جوعاً وبالطبع كان يختار الأولى بحكم غريزة حب البقاء ، على أن استجداء الناس لم يكن تصريحاً ، ولكنه كان فيما أعتقد . وكما يدل عليه شعره تلميحاً أو تلويحاً . يدل على ذلك ما ذكره ابن الكويك التاجر أنه قال[٢] «وجدته مرة فى فاقة فقلت له ألا تكتب ورقة إلى صاحب اليمن ؟ اكتبها وأنا أقضى فيها الشغل فكتب ورقة لطيفة جاء فيها قوله» :

تجادل أرباب الفضائل إذ رأوا بضاعتهم موكوسة الحظ فى الثمن
وقالوا عرضناها فلم نلف طالباً ولا من له فى مثلها نظر حسن
ولم يبق إلا رفضها واضطراحها فقلت لهم لا تعجلوا السوق باليمن

وقوله هذا كما ترى ليس فيه الاستجداء الصريح وإنما هو تعريض أو تلميح وأما ما ذكره ابن فضل الله العمرى فى كتابه مسالك الأبصار[٣] من أنه كان كثير التمتع والتسرى وأنه كان يشترى الجوارى ويغالى فيهن الثمن ، ولكن إلى أجل فإذا حان أداء الدين غدا وهو رهينه فيتسامع بحاله من ربطهم عليه حب دينه

---

(١) جـ ٢ لوحة ١٦٥ .
(٢) الطالع السعيد ص ٣٣٥ .
(٣) جـ ٣ ق ٣ لوحة ٤٣٤ .

وعلمه فيؤدون عنه ما عليه من الدين فذلك كله فيما أعتقد غلو ومبالغة إذ أجمع الرواة من معاصريه أو معاصرى تلامذته أنه كان يديم الدرس والمطالعة والسهر فى القراءة والعبادة وما إلى ذلك مما هو من العلم والدين بسبيل . وهذا يعنى أن ابن دقيق العيد لم يك منصرفاً إلى الدنيا وملذاتها ، وإنما كان منصرفاً بكليته إلى الدرس والتحصيل وعبادة الله وتلاوة كتابه ، وأعتقد أن كل من نسب التمتع والتسرى لابن دقيق العيد قد نقل عن ابن فضل الله العمرى الذى كان يهمه أن تستقيم جمله وتصح سجعاته أكثر من تحقيق المسائل الهامة والتى كانت أولى منه بالاهتمام ، فصاحب مسالك الأبصار حين تكلم عن ابن دقيق العيد لم يك يلتزم الدقة والتحرى فيما يروى وينقد ، فهو وإن كان قد سمع ما كتب فهو إنما سمع من أعداء ابن دقيق العيد والحانقين عليه من أمثال أثير الدين الغرناطى والصاحب تاج الدين .

ومهما يكن من أمر فإن ابتياع الجوارى واقتناءهن أمر أحله الشرع وأباحه الدين والله تعالى يقول فى كتابه العزيز : « قل من حرّم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق » الآية . على أنه لا يوجد فى الأحاديث النبوية الصحيحة ، ولا فى الآيات القرآنية ما يشتم منه لا من قريب ولا من بعيد أن التلذذ والتمتع بالمحللات يتعارض مع التقى والورع والصلاح . وأيا ما كان فإن الجميع قد شهدوا لابن دقيق العيد بالتقى والورع وحسن الدين وصحة اليقين . هذا ومن تأمل أحواله وتتبع أخباره وتدبر أشعاره عرف أنه كان متصوفاً رغم أنه لم تسند إليه مشيخة إحدى الزوايا أو الخوانق ، ولا قيل عنه إنه كان شيخاً لإحدى الطرق الصوفية فقد رويت له كرامات كغيره من أئمة الصوفية ونسبت إليه نبؤات . فالصاحب تاج الدين قد عجل الله بموته بسبب ابن دقيق العيد على ما سبق أن ذكرت ، ثم إنه تنبأ فيما زعموا لأحد الأمراء بأنه لا يرجع إلى مصر من سفره فلم يرجع ، ومسألة انتصار المسلمين على التتار التى كان قد أخبر بها ابن دقيق العيد مشهورة ، وكل من ترجم له ذكرها . وشعره يدل على تصوفه وذلك كقوله :

الجسم يذيبـــه حقوق الخدمة   والقلب عذابه علـــو الهمـــة
والعمر بذاك ينقضى فى تعب   والراحة ماتت فعليهـــا الرحمة

وكقوله أيضاً :

أتعبت نفسك بين لــذة كادح طلب الحياة وبين حرص مؤمّلِ
وأضعت نفسك لا خلاعة ماجن حصلت فيــه ولا وقار مبجل
وتركت حظ النفس فى الدنيا وفى الأخرى ورحت عن الجميع بمعزل

فشعره هذا يدل على أنه كان يسلك فى تصوفه مسلكاً يعتمد على ذكر الله وعبادته ويدعو إلى الزهد والورع والبعد عن المعاصى وترك الموبقات . أى أنه لم يكن من فريق المتصوفة النظريين الذين اعتنقوا مذاهب ونظريات هى إلى الفلسفة أقرب منها إلى الدين كنظرية الحلول عند الحلاج ووحدة الوجود عند محيي الدين بن العربى . هذا ولو أردت أن أستوعب مناقبه لاحتجت إلى زمن طويل وسجل كبير . ومن قبل قال العلامة الإدفوى ما نصه[١] «وبالجملة فالاستغراق فى مناقبه يخرج عن الإمكان ويحوج إلى توالى الأزمان».

وفاته

هذا وقد كانت وفاته رحمه الله يوم الجمعة ٢١ صفر سنة ٧٠٢ هـ . ولم يذكر لنا أحد ممن كتبوا عنه الظروف والملابسات التى اكتنفت وفاته وإنما اقتصروا على ذكر الزمان الذى مات فيه والمكان الذى دفن فيه . فهذا الإدفوى يقول ما نصه [٢]« توفى يوم الجمعة ١١ صفر عام ٧٠٢ هـ ، ودفن يوم السبت بسفح المقطم وكان ذلك يوماً مشهوداً عزيزاً فى الوجود سارع الناس إليه ووقف جيش مصر ينتظر الصلاة عليه .

هذا ورواية المقريزى تتفق فى لفظها ومعناها مع رواية الإدفوى هذه التى أثبتناها وكلتا الروايتين تصور لنا مدى التكريم والحفاوة التى أحيطت بها جنازة شيخنا تقى الدين .

(١) الطالع السعيد ص ٣١٨ .
(٢) الطالع السعيد ص ٣٣٨ .

وكانت وفاته عن سبع وسبعين عاماً قضاها فى التعلم والتعليم والدرس والتحصيل وفى تلاوة القرآن والصلاة بالليل والناس نيام .

عاش عفا الله عنه معظماً مبجلا . ومات رحمه الله معززاً مكرماً . وقد أنجب من الأولاد عشرة سماهم بأسماء الصحابة عرف منهم بالعلم والفضل ابنه الشيخ محب الدين [١] الذى مات بعده بأربعة عشر عاماً .

---

(١) الإسنوى – طبقات الشافعية ورقة ١١٧ .

الفصل الثالث

ابن دقيق العيد ـ العالم الفقيه

قلنا فى الفصل السابق إن ابن دقيق نشأ فى بيت من أشرف بيوتات أهل الصعيد وإن هذا البيت قد عرف أفراده بالعلم والدين. والذى يعنينا هنا، هو الشيخ تقى الدين محمد بن على بن وهب، ولا نريد أن نتحدث عنه حديثاً عاماً مجملا يتناول جميع صفاته، ووجوه حياته، وإنما أقصر الحديث هنا عليه من وجهة خاصة ألا وهى شخصيته العلمية أو الفقهية.

ذكرنا فى الفصل السابق أن ابن دقيق العيد نشأ فى قوص وأنه أخذ العلم عن أبيه وعن الشيخ بهاء الدين هبة الله القفطى وغيرهما، ثم ارتحل إلى القاهرة فسمع بها الحديث واتصل بالشيخ عز الدين بن عبد السلام وأخذ عنه علماً كثيراً، ثم ارتحل إلى دمشق سنة ٦٦٠[1] هـ وسمع من أحمد بن عبد الدايم وزين الدين خالد وغيرهما من علماء دمشق. وقال ابن سيد الناس[2] فى ترجمة له: «سمع الحديث بمصر والشام والحجاز على تحر فى ذلك واحتراز». وقد ذكر آخرون كصاحب الطالع السعيد وطبقات الشافعية الكبرى أنه سمع الحديث أيضاً بالإسكندرية. ويؤيد ذلك ما ذكره العبدرى[3] فى رحلته من أنه لقى الشيخ تقى الدين أبا الفتح محمد بن على بن وهب بالإسكندرية سنة ٦٨١ هـ. ومهما يكن من شىء فإن ابن دقيق العيد كان قبل أن يكون فقيهاً عالماً من علماء الحديث سمعه وارتحل فى طلبه ثم رواه إلى الناس على تحر واحتراز. روى الإدفوى عن الحافظ محمد بن سيد الناس اليعمرى أنه قال فى ترجمته له ما نصه[4] «لم أر مثله فيمن رأيت ولا حملت عن أجل منه فما رأيت ورويت

---

(١) جـ ٢ لوحة ١٦٥.

(٢) الطالع السعيد ص ٣١٨.

(٣) رحلة العبدرى.

(٤) الطالع السعيد ص ٣١٨

وكان للعلوم جامعاً وفى فنونها بارعاً مقدماً فى معرفة علل الحديث على أقرانه منفرداً بهذا الفن النفيس فى زمانه » .

وهذا يدل على مبلغ تمكن ابن دقيق العيد من الحديث وعلومه وقد كتب فى هذا الفن كتاباً أسماه « الاقتراح فى معرفة الاصطلاح » وكل من ذكره أطرى عليه ووصفه بأنه كتاب جليل الفائدة ، وقد أخرج الشيخ تقى الدين لنفسه أربعين تساعية وقد درس الحديث بقوص ثم بمصر وبخاصة فى دار الحديث الكاملية ، فما حدث به ما رواه صاحب الطالع السعيد قال[1] « أخبرنا شيخنا العلامة أثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف الغرناطى ، حدثنا الشيخ الفقيه الإمام العالم الأوحد المتقن مفتى الفريقين الحافظ الناقد تقى الدين محمد بن الشيخ الفقيه الإمام العالم الورع الزاهد مجد الدين أبى الحسن على بن أبى العطايا وهب بن مطيع ابن أبى الطاعة القشيرى رضى الله عنهم يوم الأحد المبارك ثانى شهر رمضان المعظم من سنة ٦٨٦ هـ بمنزله من دار الحديث الكاملية بالمعزية إملاء من لفظه . قال « قرأت على الإمام المفتى أبى الحسن على بن أبى الفضائل هبة الله بن سلامة الشافعى اللخمى بمصر على الإمام الحافظ أبى الطاهر السلفى قراءة عليه بالإسكندرية » . أخبرنا الشيخ الرئيس أيوب عبد الله القاسم بن الفضل الثقفى بأصبهان . حدثنا أبو الفتح هلال بن جعفر بن سعدان قراءة عليه ببغداد حدثنا أبو عبد الله الحسن بن يحيى بن عباس القطان . حدثنا أبو الأشعث أحمد ابن المقدام العجلى . حدثنا حماد بن زيد عن عاصم بن سليمان عن عبد الله ابن سرجس قال : «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إذا سافر : اللهم إنى أعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنقلب ومن الحور بعد الكور ودعوة المظلوم وسوء المنظر فى الأهل والمال» . وقيل لعاصم ما الحور بعد الكور ؟ قال حار بعد ما كار . قال شيخنا أثير الدين قال لنا الشيخ تقى الدين « هذا حديث صحيح ثابت من حديث عاصم الأحول » . أخرجه مسلم من حديث جماعة عنه وفيه نوعان من أنواع العلو . أحدهما العلوّ إلى النبى صلى الله عليه وسلم فإنه

---

(١) الطالع السعيد ، ص ٣٢٠ .

أعلى ما يقع لنا بالأسانيد الجيدة . الثانى العلوّ إلى إمام أئمة الحديث وهو حماد ابن زيد .

وبهذا الإسناد إلى الثقفى . قال حدثنا على بن محمد بن عبد الله بن بشران حدثنا إسماعيل بن محمد الصفار . حدثنا سعدان بن نصر بن منصور . حدثنا سفيان بن عيينة عن عمرو سمع جابر بن عبد الله يقول . لما نزل على النبى صلى الله عليه وسلم « قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم » قال : أعوذ بوجهك أو من تحت أرجلكم » قال : « أعوذ بوجهك «أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض » قال : هاتان أهون وأيسر» قال شيخنا أثير الدين أبو حيان قال لنا الشيخ هذا حديث ثابت صحيح من حديث سفيان بن عيينة وفيه النوعان المتقدمان من العلوّ مع كونه بدلا فإن البخارى أخرجه عن على ابن المدينى عن سفيان . وفيه نوع زائد من العلوّ وهو المسمى بعلو التنزيل : فإن الثقفى كان سمعه من صاحب البخارى ، وبه إلى الثقفى . حدثنا أبو عمرو محمد ابن محمد بن بالويه الصائغ قراءة عليه بنيسابور . حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب بن يوسف الأموى حدثنا العباس بن محمد الدورى . حدثنا خالد بن مخلد . حدثنا سليمان بن بلال . حدثنا عمارة بن غزية عن نعيم بن عبد الله عن أبى هريرة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . « أنتم الغر المحجلون يوم القيامة من إسباغ الوضوء فمن استطاع منكم فليطل غرته وتحجيله » . صحيح متفق عليه من حديث نعيم المجمر وهو من حديث عمارة انفرد به مسلم . وهذا يعطينا صورة لتحديث ابن دقيق العيد وكيفية روايته الحديث ثم هو يدل على مدى معرفة ابن دقيق العيد لعلم مصطلح الحديث وأنه كان به مكيناً وقد كان يمتنع عن رواية الحديث لأدنى شك يخامره إما فى الشيخ أو فى كيفية تحمله عن الشيخ ، فقد ذكر ابن حجر فى كتابه الدرر الكامنة[١] «أن قطب الدين الحلبى قال أتيته (يريد ابن دقيق العيد) بجزء سمعه عن ابن رواح والطبقة بخطه فقال حتى أنظر فيه ثم عدت إليه . فقال هو خطى ولكن ما أحقق سماعه ولا أذكره

---

(١) جـ ٤ ص ٩٢ .

ولم يحدث به ثم قال ابن حجر وكذلك لم يحدث عن ابن المقير مع صحة سماعه منه لكن شك هل نعس حال السماع أم لا ؟ » .

وهذا أكبر شاهد على أن ابن دقيق العيد كان يتشدد فى رواية الحديث فلا يروى حديثاً إلا عن تحر واحتراز على ما سبق أن ذكرت . وقد ترجم له الذهبي فى كتابه تذكرة الحفاظ على أنه أحد حفاظ الحديث الأعلام الموثوق بروايتهم والمقطوع بصحة ما يحدثون به عن النبي عليه السلام . غير أنه كان قليل التحدث لا لقلة ما حفظه من الأحاديث ولكن لفرط التحرى والاحتراز فهو لم يكن يسمح لنفسه أن يروى حديث الرسول عليه السلام وفى نفسه من روايته أقل وهم أو أدنى ارتياب ، كما روينا ذلك فى حديث قطب الدين الحلبي . فهو لم يرض أن يروى له الجزء الذى جاءه به ليصحح عليه سماعه رغم أن الطبقة كانت بخط ابن دقيق العيد كما أنه لم يرض أن يروى عن ابن المقير مع صحة سماعه منه لأنه شك فى كيفية تحمله عنه إذ لم يستطع أن يتذكر حالته التى كان عليها أثناء سماعه هل كان ينعس أم كان يقظاً .

وبالجملة فابن دقيق العيد عالم من علماء الحديث وهو أحد الحفاظ الثقات وليس غريباً أن يكلف ابن دقيق العيد برواية الحديث ودراسة علوم الحديث وأن يعنى بذلك عناية كبرى ليس فى ذلك أى غرابة . إذا عرفنا أن ابن دقيق العيد كان إماماً من أئمة الفقه فمعرفة علم الفقه على الوجه الأكمل تقتضى دراية الحديث ومعرفة علله وطرق الجرح والتعديل فى الرواية والسند لأن الأحكام الفقهية إنما هى مستمدة من كتاب الله الكريم والسنة النبوية الشريفة وهى عبارة عن أقوال الرسول وأفعاله وتقريراته . ومن هنا كانت عناية العلماء والفقهاء وبخاصة المجتهدون شديدة بالحديث وطرق روايته لأن الحديث كان عرضة للوضع والتدليس ، وقد كثر الكذابون فى الحديث بسبب تعدد الفرق الإسلامية من جهة وظهور الشعوبية من جهة أخرى ثم العصبية الإقليمية التى كان لها دخل كبير فى وضع كثير من الأحاديث . فالشيعة كانوا كثيراً ما ينسبون إلى النبى عليه السلام أحاديث تتعلق بإمامة على وذريته . وكذلك رجال علم الكلام كالمعتزلة

والقدرية والأشاعرة وغير هؤلاء كثير . فكل فرقة منهم كانت تنسب إلى النبي عليه السلام من الأحاديث ما يؤيد وجهة نظرها، ثم تلك الأحاديث التي وضعها أهل الأمصار فى تفضيل أمصارهم فأهل المدينة وأهل مصر وأهل الشام وأهل مكة كل ينسب إلى النبي حديثاً فى أن بلده تفضل جميع البلدان . ولست بصدد تبيان ذلك وبسطه وإنما القصد أن أقول إن حاجة الفقيه إلى الحديث وعلومه ماسة جداً وشديدة فلو لم يكن الفقيه على دراية تامة بعلل الحديث ومعرفة وجوه الصحة والضعف لاختلط عليه الأمر ولوقع منه استنباط حكم شرعى من حديث مكذوب وفى ذلك ما فيه من الإضرار بالشريعة الإسلامية . فابن دقيق العيد إذاً كان عالماً محدثاً قبل أن يكون عالماً من علماء الفقه ثم إن الفقيه لابد له من الإحاطة بالنحو والصرف وعلوم البلاغة وغير ذلك من علوم اللغة .

وهذا ما رأيناه فى شخص ابن دقيق العيد إذ كان رحمه الله حاذقاً فى جميع تلك العلوم بشهادة تلامذته والذين كتبوا عنه أو قالوا شيئاً فى حقه وكانوا يعيشون فى القرن الثامن وإليك طرفاً من أقوال وآراء أولئك العلماء الأعلام المعتد بآرائهم والموثوق بأقوالهم من أولئك الذين ترجموا لابن دقيق العيد . قال الإدفوى[1] ينعت ابن دقيق العيد ويصفه بغزارة العلم والتفوق فيه والتقدم على غيره . قال : «هو الشيخ الإمام علامة العلماء الأعلام وراوية فنون الجاهليين وعلوم الإسلام ذو العلوم الشرعية والفضائل العقلية والفنون الأدبية والمعارف الصوفية ، والباع الواسع فى استنباط المسائل، والأجوبة الشافية لكل سائل والاعتراضات الصحيحة التى يجعلها الباحث لتقرير المشكلات وسائل، والخطب الصادحة الفصيحة البليغة التى تستفاد منها الوسائل إن عرضت الشبهات أذهب جوهر ذهنه ما عرض، أو اعترضت المشكلات أصاب شاكلتها بسهم فهمه فأصاب الغرض» .

وقول الإدفوى هذا دليل على أن ابن دقيق العيد كان على إحاطة تامة

---

(١) الطالع السعيد ص ٣١٧ .

ومعرفة صادقة باللغة العربية وعلومها، وأوضح من هذا فى هذا المقام ما ذكره ابن حجر فى كتابه الدرر الكامنة[١] قال ما نصه: « ومما يدل على تقدم الشيخ تقى الدين فى العلم أن زكى الدين عبد العظيم بن أبى الإصبع صاحب البديع ذكره فى كتابه فقال: « ذكرت آية للفقيه الفاضل تقى الدين محمد بن على بن وهب القشيرى أبقاه الله تعالى وهو من الذكاء والمعرفة على حالة لا أعرف أحداً فى زمنى عليها، وذكرت له عدة وجوه المبالغة منها وهى عشرة ولم أذكرها مفصلة وغبت عنه قليلا ثم اجتمعت به فذكر لى أنه استنبط فيها أربعة وعشرين وجهاً من المبالغة يعنى قوله تعالى: (أيود أحدكم أن تكون له جنه من نخيل وأعناب) الآية فسألته أن يكتبها لى فكتبها بخطه وسمعتها منه بقراءتى واعترفت له بالفضل فى ذلك» . ثم قال ابن حجر «وقد عاش الشيخ تقى الدين بعد ابن أبى الإصبع زيادة عن أربعين سنة» . ومعنى هذا أن هذه القصة وقعت لابن أبى الإصبع مع ابن دقيق العيد وهو فى الثلاثين من عمره أو فوق ذلك بقليل لأن ابن دقيق العيد عاش سبعة وسبعين عاماً . فلو فرضنا أن القصة المذكورة حدثت قبل وفاة ابن أبى الإصبع بعام أو عامين وأن ابن دقيق العيد عاش بعده أكثر من أربعين سنة كما يقول ابن حجر . لو قدرنا ذلك كله لكان عمر ابن دقيق العيد وقتذاك لا يزيد عن أربعة وثلاثين عاماً . وهذا يعنى أن ابن دقيق العيد رحمه الله كان مبرزاً فى جميع العلوم ومن بينها البلاغة فى سن مبكرة وفى عهد الطلب «أى أيام التلمذة » . هذا وقد كان يجيد معرفة علم التفسير وأصول الفقه وغير ذلك من العلوم العقلية والنقلية إجادة تامة . وفى هذا المعنى يقول الإدفوى ما نصه[٢] « إن ذكر التفسير فمحمد فيه محمود المذهب ، أو الحديث فالقشيرى فيه صاحب الرقم المعلم والطراز المذهب ، أو الفقه فأبو الفتح العزيز الإمام الذى إليه الاجتهاد ينسب ، أو الأصول فأين ابن الخطيب من الخطيب وهل يقرن المخطئ بالمصيب ؟» ثم قال بعد ذلك بقليل « وقام بوظيفة التحقيق والتدقيق التى لا يطيقها غيره من

(١) جـ ٤ ص ٩٥ .
(٢) الطالع السعيد ص ٣١٧ .

أهل زمنه ولا عليها يقوى مع ترك المباهاة بما لديه من الفضائل والسلامة من الدعوى وجعل وظيفة العلم والعمل له ملة حتّى قال بعض الفضلاء من مائة سنة . ما رأى الناس مثله حازعلماً وديناً ونزاهة فعظم قدراً وجاهاً ووجاهة» . وهذا دليل على رسوخ قدم ابن دقيق العيد فى العلم وتفوقه فى شتّى أنواعه على جميع أقرانه مع التواضع وترك المباهاة والبعد عما ابتلى به كثير من العلماء من مرض الادعاء وحب الظهور وقد وصفه ابن سيد الناس ، الحافظ فتح الدين اليعمرى فى ترجمته له بما هو أهله وإليك النص وفق ما جاء فى طبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين السبكى قال ما نصه[1] « وكان حسن الاستنباط للأحكام والمعانى من السنة والكتاب بلب يسحر الألباب وفكر يفتح ما يستغلق على غيره من الأبواب ، مستعين على ذلك بما رواه من العلوم ، مستبين ما هنالك بما حواه من مدارك الفهوم مبرز فى العلوم النقلية والعقلية والمسالك الأثرية والمدارك النظرية .

وكان من العلوم بحيث يقضى   له من كل علم بالجميع »

وكلام اليعمرى هذا حجة فيما نذهب إليه من القول بأن ابن دقيق العيد كان من العلماء الراسخين الذين جمعوا بين المعقول والمنقول وأخذوا من كل علم بناصيته . هذا وقد وصفه الصفدى بما يكشف لنا عن مقدرته العلمية وطاقته العقلية . قال[2] « بصيراً بعلل المنقول خبيراً بعلل المعقول :

يروى فيروى كل ذى ظمأ لـه   يحمى الحديث تعلق وهيام

ببلبيهة فى العلم يقسم من رأى   ذاك التسرع أنه إلهام »

ثم قال : «وكيف لا يكون ذلك وهو الذى بعثه الله على رأس المائة السابعة ليجدد للأمة أمر دينها ويبين مما ما اشتبه من قواعد شريعتها عند تثبتها». هذا وإن جميع أقوال الثقات تتفق على أن ابن دقيق العيد كان ضليعاً فى جميع العلوم

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى ج ٦ ص ٢ – ٣ .

(٢) الوافى بالوفيات ورقة ٩٥٧ وأعيان العصر ج ٦ لوحة ٩١ .

اللغوية والشرعية والعقلية فهو قد درس النحو والصرف والبلاغة ويقية العلوم اللغوية لأن ذلك ضرورى لفهم كتاب الله وسنة رسوله وبدون ذلك لا يتأتى له بحال من الأحوال تبين المسائل الدينية واستنباط الأحكام الشرعية .

أما العلوم العقلية كالمنطق والمقولات العشرة والمقدمات الفلسفية والبراهين العقلية التى تزخر بها كتب علم الكلام فذلك أيضاً ضرورى، لأن أصول الفقه الذى يرسم طرق الاجتهاد ويبين وسائل الاستنباط يعتمد فى أكثر مباحثه على قواعد منطقية ومسائل فلسفية . وبعد هذا التبيان لشخصية ابن دقيق العيد العلمية وطاقته العقلية والفكرية بصورة عامة أعرض إلى مكانته الفقهية بصورة خاصة محاولا الإجابة على هذا السؤال، هل كان ابن دقيق العيد فقيهاً شافعياً أو مالكياً أو أنه كان مجتهداً أو صاحب مذهب خاص بحيث يصبح فى عداد الأئمة المجتهدين وليس فى عداد علماء الفقه المقلدين وحتى يكون الجواب صحيحاً والحكم سديداً لابد لى من أن أستعرض فى إيجاز لا تفريط فيه ولا تقصير أقوال العلماء المنصفين ممن ترجموا لابن دقيق العيد مما يمت بصلة وثيقة لهذه المسألة بالذات أو يلقى عليها ضوءاً يعين على تبينها فى وضوح . اتفق الرواة والمترجمون على أن ابن دقيق العيد أخذ فقه مالك عن أبيه وفقه الشافعى عن تلميذ أبيه البهاء هبة الله القفطى. ثم عن الشيخ عزالدين عبد العزيز بن عبد السلام وأنه درس أصول الفقه عليه وعلى أبيه وهو لا يختلف فى شىء ذى بال عند الشافعية عنه عند المالكية والأزهر يوحد فى وقتنا الحاضر دراسة الأصول بالنسبة للمذاهب الثلاثة . مالك والشافعى وابن حنبل . ويفرد لأصول الأحناف منهجاً خاصًّا ودراسة خاصة تغاير مغايرة تامة أصول الشافعية والمالكية والحنابلة .

ومعنى هذا أن المذاهب الثـــلاثة تعتمد فى استنباطها الأحكام الشرعية على طريقة أو أصول واحـــدة . أما الأحناف فهم يعرفون بأهل الرأى لأنهم يعتمدون فى استنباط أحكامهم الشرعية على العقل فهم فى علم الفقه يشبهون المعتزلة فى علم الكلام . والقصد من هذا أن أقول إن التقارب والتشابه كبير بين مذهبي الإمام مالك والشافعى . وقد ذكر الطالع السعيد أن ابن دقيق العيد

درس على أبيه فقه مالك وفقه الشافعي معاً .

ولعل هذا مجرد استنتاج أو تقدير من الإدفوى لأنه يعلم أن على بن وهب كان يعرف المذهبين . أعنى مذهب مالك والشافعى على ما ذكره هو فى ترجمته للشيخ مجد الدين والد الشيخ تقى الدين .

ومهما يكن من شيء فإن ابن دقيق العيد قد درس المذهبين ودرّس فيهما ، فقد ذكر الإسنوى فى كتابه طبقات الشافعية أن ابن دقيق العيد اشتغل بتدريس المذهبين فى المدرسة الفاضلية وأنه درس مذهب الشافعي فى المدرسة الناصرية التى أنشأها صلاح الدين الأيوبى بجوار قبة الإمام الشافعى رضى الله عنه . وكان رحمه الله قد حذق المذهبين وتمكن منهما فى ريعان الصبى وشرخ الشباب ، يدل على ذلك ما رواه الصفدى فى كتابه أعيان العصر [1] أن الشيخ ركن الدين محمد بن محمد بن القويع مدح ابن دقيق العيد بقصيدة طنانة جاء فيها قوله :

صبا للعلم صبًّا فى صباه ... فأعل بهمة الصب الصبى
وأتقن والشباب له لباس ... أدلة مالك والشافعى

وهذا يدل على أن ابن دقيق العيد لم يكن قد درس المذهبين وعرف مسائلهما فقط ، وإنما جاوز ذلك بأن وقف على أدلة قضايا كل من المذهبين وتلك مرتبة المحققين المدققين الذين يعرفون لدى الفقهاء بمجتهدى المذاهب ، لأن الفقيه إذا عرف الأحكام على مذهب من المذاهب وعرف بعد ذلك أدلة تلك الأحكام كان معناه أنه خرج من دائرة التقليد إلى دائرة الاجتهاد فرجال الدين الذين يدرسون المذاهب الفقهية ويستظهرون أقوال الأئمة المجتهدين دون أن يبحثوا عن أدلة ذلك يكونون مقلدين . وهذا معنى كون العالم شافعياً أو مالكياً مقلداً فإن بحث عن الأدلة وتعرف البراهين استطاع أن يفاضل بين الآراء ويميز بين الأقوال قوة وضعفاً ولكن فى إطار المذهب وهؤلاء أمثال الرافعى والرملى من الفقهاء الشافعية فقد كان الرملى يرجح آراء لا يرجحها الرافعى وكذلك كان

---

(١) جـ ٦ م ١ لوحة ٨١ .

الرافعي يرجح أقوالا ويستصوب أحكاماً لا يستصوبها الرملي ولا يعدها من الأقوال المعتمدة التي يصح أن يعوّل عليها . وبناء على هذا فابن دقيق العيد لم يك في شبابه مقلداً لا لمالك ولا للشافعي وإنما كان أولا مجتهداً في نطاق المذهبين ثم انتهى به الأمر إلى أن أصبح في عداد الأئمة المجتهدين الذين يقلدون ولا يقلدون، وهو قد حكى ذلك عن نفسه، وكان لا يرضى أن ينسب إلى المذهب الشافعي أيام توليته القضاء . فقد روى الصفدي في كتابه أعيان العصر. «قال شيخنا أبو الفتح وما كان الشيخ تقي الدين يرضى قول من يقول قاضي القضاة الشافعي فإذا قلنا قاضي قضاة الشافعية قال . إيه هذا » .

وذكر الصفدي[١] في موضع آخر أن ابن دقيق العيد قال: « وافق اجتهادي اجتهاد الشافعي إلا في مسألتين . إحداهما أن الابن لا يزوج أمه . والأخرى (ولم يذكرها الصفدي فلعله نسيها)، ثم قال وحسبك بمن يتزل ذهنه على ذهن الشافعي. قلت أما مسألة الابن وعدم تزويجه لأمه ، فلأنه متفرع عن أصلين : أحدهما أبوه ولا ولاية له في تزويج أمه . والثاني أمه وما لها أن تزوج نفسها فبطل أن يكون للابن ولايه في تزويج أمه» . وواضح من شرح الصفدي لمسألة تزويج الولد أمه أنه يؤيد ابن دقيق العيد ويفضل رأيه على رأي الشافعي .

هذا وقد قال الإدفوي في هذا المقام ما نصه[٢] « وكتب له بقية المجتهدين وقرأ بين يديه فأقر عليه ولاشك أنه من أهل الاجتهاد ولا ينازع في ذلك إلا من هو من أهل العناد، ومن تأمل كلامه علم أنه أكثر تحقيقاً وأمتن وأعلم من بعض المجتهدين فيما تقدم وأتقن» ثم قال . «وحكى لنا صاحبنا الفقيه الفاضل العدل علم الدين أحمد الإسنوي . قال ذكره شيخنا العلامة علاء الدين علي بن إسماعيل القونوي . فقلت له ادعى الاجتهاد فسكت ساعة مفكراً . وقال والله ما هو ببعيد» وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن الذين عاصروا ابن دقيق العيد وعرفوه عن كثب ، أقروا له بالاجتهاد . هذا ولقد قال الإسنوي في

(١) الوافي بالوفيات جـ ٢ ورقة ٩٥٧ .

(٢) الطالع السعيد ص ٣١٨ .

طبقاته أثناء ترجمته لابن دقيق العيد قال يصفه بالتقى والورع والدين الصحيح وبالتفوق فى شتى ميادين العلم وأنواع المعرفة فى العلوم الدينية واللغوية والنقلية والعقلية وأنه متفوق فى ذلك كله على جميع أبناء عصره وإليك النص[1] .
قال : «شيخ الدهر بلا نزاع ووجه العصر بغير دفاع ، ذو المناقب المشهورة والكرامات المأثورة ، تمسك بالسبب الأقوى من التقوى وقام من الاجتهاد بعبء لا يطيق أحد حمله ولا يقوى ، الجامع للعلوم الشرعية والعقلية واللغوية حافظ الوقت خاتمة المجتهدين » . وهذا القول يسعفنا فيما ذهبنا إليه ويعضدنا كل التعضيد ويؤيدنا كل التأييد من أن ابن دقيق العيد قد انتهى إلى مرتبة الاجتهاد لا بل قد ختم به الاجتهاد على حد تعبير العلامة الإسنوى وهو بلا شك حجة فى هذا الشأن لأنه كان فقيهاً أصولياً . وكتابه فى علم أصول الفقه على مذهب الشافعى دليل على مكانته العلمية ، فالإسنوى حين قال إن ابن دقيق العيد خاتمة المجتهدين كان يفهم قوله ذلك تمام الفهم . وبالجملة فقد أقر لابن دقيق العيد بالتقدم فى العلم والرسوخ فيه وباليد الطولى والباع الواسع فى البحث والتحقيق أقر له بذلك العدو والصديق والموافق والمخالف قال الإدفوى[2]. «أما نقده وتدقيقه فلا يوازى فيه» . ثم قال «جرى ذكر ذلك مرة عند الشيخ صدر الدين بن الوكيل وكان لا يحبه وكان يتكلم فى شىء يتعلق به ويذكر أنه ليس كثير النقل فشرعت أذكر له شيئاً إلى آخر الكلام . ذكرت بحثاً له . فقال لا يا سيدى . أما إذا نقد وحرر فلا يوفيه أحد» . وهذه شهادة بفضل ابن دقيق العيد وعلو قدمه فى العلم ورسوخه فيه صادرة عن الشيخ أسد الدين الذى يقول عنه الإدفوى . إنه كان يكره ابن دقيق العيد ويتكلم فيه . يعنى أنه كان يطعن عليه ولعل طعنه هذا كان فى أمور تتعلق بوظيفة القضاء . ومهما يكن من شىء فإنها فى رأيى شهادة لها كل وزن وتقدير فى الدلالة على تفوق ابن دقيق العيد على جميع أقرانه وأنه جاوز منزلة التقليد إلى مرتبة الاجتهاد . والمثل العربى يقول . والفضل ما شهدت

---

(١) الإسنوى — طبقات الشافعية ورقة ١١٤ .
(٢) الطالع السعيد ص ٣٢٥ .

به الأعداء . هذا وإن كتب ابن دقيق العيد ومصنفاته لتنطق بغزارة علمه وعظم قدرته على التحقيق والتدقيق،وهي عديدة كثيرة بعضها فى الفقه وبعضها فى أصول الفقه وبعضها فى الحديث وعلومه،وقد وصف المقريزى فى كتابه المقفى[1] أمالى ومصنفات ابن دقيق العيد فقال مانصه: «وصنف وأملى فمن أماليه شرح عمدة الأحكام وهو يدل على منزلته فى العلم . وشرح كتاب الإلمام وهو يتضمن من الفوائد النقلية والقواعد العقلية والأنواع الأدبية والنكت الخلافية والمباحث المنطقية واللطائف البيانية والمواد اللغوية والأبحاث النحوية والعلوم الحديثية والملح التاريخية والإشارات الصوفية،لو كمل لأغنى عن كل مصنف فى هذا المعنى وخرج لنفسه أربعين تساعية . وشرح كتاب العمدة للحافظ عبد الغنى المقدسى ، وشرح المطرزية فى النحو وكتاب الاقتراح فى معانى الاصلاح، وكتاب الأربعين فى الرواية عن رب العالمين . وشرح كتاب ابن الحاجب فى الفقه على مذهب مالك، وشرح كتاب ابن الحاجب أيضاً فى الأصول» .

وأما الصفدى فقد قال فى كتابه أعيان العصر[2] «وله التصانيف البديعة كالإلمام والإمام شرحه ولم يكمل ولو كمل لم يكن للإسلام مثله . وكان يجيء فى خمس وعشرين مجلداً، وله علوم الحديث وشرح العمدة فى الأحكام الذى أملاه على ابن الأثير فاضل العصر الذى يعرفه وهو إملاء . وشرح مقدمة المطرز فى أصول الفقه، وألف الأربعين فى الرواية عن رب العالمين، وشرح بعض مختصر ابن الحاجب . وشرح ابن الحاجب فى فروع المالكية . وشرح مختصر التبريزى فى فروع الشافعية» .

ويفهم من كلام الصفدى أن كتاب الإمام هو شرح كتاب الإلمام فى حين أن الإسنوى قد ذكر العكس إذ قال ما نصه[3] «وكان رحمه الله قد أكمل كتابه الكبير العظيم الشأن المسمى بالإمام بهمزة مكسورة بعدها ميم،وهو

---

(١) جـ ٢ لوحة ١٦٥ — ١٧٢ .

(٢) جـ ٦ لوحة (٨١) .

(٣) الإسنوى — طبقات الشافعية ورقة ١١٤ .

الذى استخرج منه كتابه المختصر المسمى بالإلمام بزيادة اللام فحسده عليه بعض كبار هذا الشأن ممن فى نفسه عداوة فدس من سرق أكثر هذه الأجزاء وأعدمها» . ويؤيد قول الإسنوى هذا ما ذكره ابن حجر العسقلانى فى كتابه رفع الإصر عن قضاة مصر إذ قال ما نصه[1] «وصاحبنا جمال الدين لم يفرق بين الإمام وبين شرح الإلمام كأنه كغيره من الطلبة يظن أن الإمام شرح الإلمام وليس كذلك ، فالإمام كتاب فى أحاديث الأحكام على الأبواب الفقهية وكان استمداد الإلمام منه والموجود منه قطعة نحو الربع ولكنها مفرقة» إلى آخره .

وأيا ما كان فإن ابن دقيق العيد قد ألف وصنف وشرح وأملى كما هو واضح من الأقوال التى ذكرتها وغيرها مما لم أذكره فى الفقه على المذهبين الشافعى ومالك . ولعل هذا كان أثناء قيامه بتدريسهما معاً فى المدرسة الفاضلية وأيضاً فى أصول الفقه ورواية الحديث وعلم مصطلح الحديث وغير ذلك من العلوم الدينية ، واللغوية ، ومؤلفاته فى جملتها تدل على أن ابن دقيق العيد إمام مجتهد له شخصيته المستقلة فى استنباط الأحكام الفقهية واستخراج القواعد الشرعية ، وكتابه المسمى بإحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام يزخر بالمباحث الأصولية والفقهية التى هى صورة واضحة يتمثل فيها اجتهاد ابن دقيق العيد وتتجلى بها شخصيته الفقهية المستقلة . وليس هذا قاصراً على الأحكام الفقهية وإنما هو أيضاً يشمل المصطلحات الأصولية . أعنى أنه ذو شخصية واضحة فى الأصول والفروع فمثلا تواطأ الأصوليون على أن يجعلوا الخاص فى مقابلة العام والمطلق فى مقابلة المقيد أما هو فلم يلتزم هذه القاعدة وجعل المقيد يقابل العام كما هو واضح من أول بحث يواجهنا فى كتابه إحكام الأحكام وأسلوبه فيه يدل فى وضوحه ويسر عبارته وسهولة مأخذه على حسن تصور ابن دقيق العيد للمعانى والأحكام ووضوح المسائل الشائكة المعقدة فى ذهنه . فأنت تقرؤه وكأنك تقرأ كتاب أحد المعاصرين لما به من سهولة التعبير ووضوح الغرض ، وهذا أدل شىء على تمكن ابن دقيق العيد من العلم . غير أن مباحثه فى جملتها وعلى كثرتها

---

(١) أعيان العصر ورقة ٢٤٧ .

فى جل كتبه إنما تتعلق بالعلم من حيث هو حديثاً وأصولا وقواعد كلية ولا سيما فقه الحديث والاستنباط منه مما لا يتوافر فى العادة أو المألوف إلا عند الأئمة المجتهدين . وإليك على سبيل المثال طرفاً مما جاء فى شرحه للحديث الأول من كتاب الطهارة فى عمدة الأحكام لعبد الغنى المقدسى مما يتجلى فيه وضوح الأسلوب وصفاء اللفظ وسلامة التعبير من التعقيد من جهة ثم الإفصاح عما كان عليه ابن دقيق العيد من غزارة العلم والقدرة الفائقة على البحث والتحقيق وتوضيح المشاكل وحل المعضلات مما لا يتوافر فى العادة أو المألوف إلا عند الأئمة المجتهدين من جهة أخرى . وذلك الحديث هو قوله صلى الله عليه وسلم « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى » . الحديث . فقد قال فى شرحه رحمه الله بعد أن ترجم لراويته وهو أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ما نصه « ثم الكلام على هذا الحديث من وجوه[1] أحدها أن المصنف رحمه الله بدأ به لتعلقه بالطهارة ، وامتثل قول من قال من المتقدمين إنه ينبغى أن يبتدئ به فى كل تصنيف ووقع موافقاً لما قال .

الثانى — كلمة « إنما » للحصر على ما تقرر فى الأصول ، فإن ابن عباس رضى الله عنهما فهم الحصر من قوله صلى الله عليه وسلم « إنما الربا فى النسيئة » وعورض بدليل آخر يقتضى تحريم ربا الفضل . ولم يعارض فى فهمه للحصر . وفى ذلك اتفاق على أنها للحصر . ومعنى الحصر فيها إثبات الحكم فى المذكور ونفيه عما عداه وهو نفيه عما عداه ، بمقتضى موضوع اللفظ ، أو هو من طريق المفهوم فيه بحث .

الثالث — إذا ثبت أنها للحصر فتارة تقتضى الحصر المطلق ، وتارة تقتضى حصراً مخصوصاً ويفهم ذلك بالقرائن والسياق كقوله تعالى (١٣ — ٧ إنما أنت منذر) وظاهر ذلك الحصر للرسول صلى الله عليه وسلم فى النذارة . والرسول لا ينحصر فى النذارة بل له أوصاف جميلة كثيرة . كالبشارة وغيرها . ولكن مفهوم الكلام يقتضى حصره فى النذارة لمن لم يؤمن ، ونفى كونه قادراً على

---

(١) أحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام ج ١ ص ٩١ .

إنزال ما شاء الكفار من الآيات . وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم « إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلى » معناه حصره فى البشرية بالنسبة إلى الاطلاع على بواطن الخصوم ، لا بالنسبة إلى كل شيء . فإن للرسول صلى الله عليه وسلم أوصافاً أخرى كثيرة . وكذلك قوله تعالى (إنما الحياة الدنيا لعب) يقتضى — والله أعلم — الحصر بالنسبة لمن آثرها . وأما بالنسبة إلى ما هو فى نفس الأمر . فقد تكون سبيلا إلى الخيرات ، أو يكون ذلك من باب التغليب للأكثرية فى الحكم على الحصر فى شيء مخصوص . فقل به . وإن لم يكن فى شيء مخصوص . فاحمل الحصر على الإطلاق . ومن هذا قوله صلى الله عليه وسلم « إنما الأعمال بالنيات » والله أعلم» . وهكذا يمضى ابن دقيق العيد فى ذكر وجوه شرح الحديث وتبيان معناه حتى أوصلها إلى عشرة وجوه .

هذا ومن الأمور التى تعكس لنا صورته الاجتهادية وتوضح لنا شخصيته الفقهية المستقلة . رأيه فى حديث القلتين وهو قوله صلى الله عليه وسلم « إذا بلغ الماء قلتين لم يحمل خبثاً» . فالشافعية والمالكية قد أخذوا جميعاً بهذا الحديث وقالوا فى كتبهم الفقهية تفريعاً على هذا الحديث . إذا تجمع الماء فى موضع بما يبلغ مقدار قلتين ويشرحونه بتعبير عصرنا هذا فيقولون بمقدار جرتين فإنه لا ينجس هذا الماء أى شيء يقع فيه من أنواع النجاسات ،والفقهاء جميعاً قد اتفقوا على صحة هذا الحديث وصحة العمل به . أما ابن دقيق العيد فقد وافقهم على صحة الحديث من جهة النقل والرواية ونسبته إلى النبى عليه الصلاة والسلام . ولكنه خالفهم فيه من حيث صحة العمل به أو عدمها فهم قد صححوا العمل بهذا الحديث وأجازوه . أما هو فلم يصحح العمل به ولم يجزه لا لمعارض أرجح منه ولكن لأنه لم يثبت لديه بطريق شرعى صحيح تعيين مقدار القلتين . ومن المسائل الفقهية التى خالف فيها الشيخ تقى الدين الإمام الشافعى المسألة التى سبق أن ذكرتها نقلا عن الصلاح الصفدى . وأعنى بها مسألة تزويج الولد أمه ، فإن الشافعى يرى أن الولد يزوج أمه . ومعنى هذا أن الشافعى يجعل للولد الولاية على الأم . أما ابن دقيق العيد فقد رأى أن الولد لا يزوج أمه مخالفاً بذلك

الإمام الشافعى . والحجة العقلية فى هذا تؤيد ابن دقيق العيد لأن الولد إذا استحق الولاية على أمه فهو إنما يستحقها لأحد أمرين اثنين . الأول كونه ابن أبيه وهذا لا يعطيه الحق فى الولاية لأن أباه وإن رثه وتركته فإنه لم يستطع أن يورثه حق الولاية على أمه لأن أم ابنه زوجته والزوج ليس من حقه أن يزوج امرأته، لأنها إما أن تكون على ذمته أو تكون مطلقته فإن كانت على ذمته فلا يتصور بحال من الأحوال أن يزوجها . وإذا كانت مطلقة، فإن ولاية أمرها فى هذه الحالة إما أن تكون إلى أبيها أو من له حق الولاية عليها أو أن يكون بيدها هى . فهى حرة أمرها إن شاءت تزوجت وإن شاءت لم تتزوج . وإذن فالمنطق فى هذا الوجه يؤيد ابن دقيق العيد وهو أن الولد لا يملك بوصفه ابن أبيه أن يزوج أمه . وأما الثانى وهو أن يزوجها بوصفه ابنها فهو أيضاً لا يصح أن يكون ذريعة أو سبباً فى إعطاء الولد حق ترويج الأم لأنها فى هذه الحال صاحبة الشأن فى أمر زواجها وليس هناك من الأسباب الشرعية أو العقلية ما يمنعها من أن تكون ولية أمرها بنفسها، وبناء عليه تكون نظرية ابن دقيق العيد أصح وأسلم بالاعتبارين .

هذا وإنى لأرجو أن أكون قد وفقت فى هذا الفصل إلى رسم صورة توضح لنا شخصية ابن دقيق العيد العلمية بوجه عام والفقهية بوجه خاص كما أرجو أن يحظى رأيى فى ابن دقيق العيد بالقبول والتأييد . وهو أنه أمام مجتهد وليس فقيهاً مقلداً .

وخيراً ما أختتم به هذا الفصل هو ذكر شيوخ ابن دقيق العيد وتلامذته . أما شيوخه فهم أولا والده فقد سمع منه الحديث ودرس عليه الفقه والأصول . ثم بهاء الدين هبة الله القفطى وقد سمع منه الحديث أيضاً ودرس عليه فقه الشافعية وكان يعترف له بالفضل عليه ويقول البهاء معلمى، ومن أهم شيوخه وأجلهم الشيخ عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام فقد درس عليه ابن دقيق العيد فقه الشافعية وعلم أصول الفقه وسمع الحديث فى مصر والإسكندرية والشام فمن سمع منهم الحافظ عبد العظيم المنذرى وأبو الحسن بن الأنجب أبو عبد الله ابن عبد الرحمن

الصوفى البغدادى البغال . والحافظ أبو على الحسن بن محمد بن محمد التيمى البكرى، وأبو العباس أحمد بن عبد الدائم بن نعمة المقدسى، وأبو الحسن عبد الوهاب بن محمد بن الحسن الدمشقى . وأبو الحسن على بن أحمد بن عبد الواحد المقدسى . وقاضى القضاة أبو الفضل يحيى بن قاضى القضاة أبو المعالى محمد بن على بن محمد القرشى، وأبو المعالى أحمد بن عبد السلام ابن المطهر وأبو الحسن عبد اللطيف بن إسماعيل . والحافظ أبو الحسن يحيى العطار ، والنجيب أبو الفرج العز الحرانيين . أوخذ العربية عن الشيخ وأخيه محمد أبى الفضل المرسى ، وحضر على شمس الدين محمود الأصبهانى لما كان حاكماً بقرص .

أما تلامذته أو الذين أخذوا عنه فهم عدد كبير وجمع غفير أذكر منهم على سبيل المثال والاختصار لا على سبيل الحصر والاستقصاء . قاضى القضاة شمس الدين محمد بن أحمد بن حيدرة وقاضى القضاة شمس الدين محمد بن أحمد بن عدلان ، وشيخنا قاضى القضاة شيخ الشيوخ علاء الدين على ابن إسماعيل القونوى ، وشيخنا أثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف الغرناطى والشيخ فخر الدين عثمان المعروف بابن بنت أبى سعيد ، وشيخنا تاج الدين محمد بن الدشناوى والشيخ فتح الدين محمد بن محمد اليعمرى وشرف الدين محمد بن القاسم الأخميمى ، والشخ قطب الدين عبد الكريم بن عبد النور الحلبى .

الفصل الرابع

ابن دقيق العيد ـ الشاعر الأديب

بينت فى الفصل السابق شخصية ابن دقيق العيد العلمية، والفقهية وخلصت فيه إلى القول بأن ابن دقيق العيد كان حاذقاً مدققاً ذكيًّا ألمعيًّا، برّز فى الفنون العقلية والنقلية وتفوق فى العلوم الدينية والشرعية وبلغ فى ذلك مرتبة الاجتهاد. وفى هذا الفصل أقول إن ابن دقيق العيد ذو شخصية متميزة مستقلة لا فى العلم والدين فقط، ولكن فى الشعر والأدب كذلك أيضاً. فإن كان أرباب فن القول يمتاز كل منهم بنوع من أنواعه أو فن من فنونه كأن يبرز أحدهم فى الشعر والقريض، والآخر فى الكتابة والإنشاء والثالث فى الخطابة فإن ابن دقيق العيد قد جمع بين تلك الفنون الثلاثة مع الإجادة والإبداع وشهد له بذلك معاصروه ومن ترجموا له من أهل العدالة والإنصاف.

قال: الإدفوى يصفه بالبلاغة والإجادة والإبداع والتفوق فى الخطابة والكتابة قال «إذا خطب أسهب فى البلاغة وأطنب فى البراعة، أو كتب فوحى الكلام يتنزل على يراعه[1]».

فهو كما ترى يصفه بالقدرة على الخطابة والإسهاب فيها ببلاغة رائعة وبراعة فائقة وأنه إذا كتب كانت كتابته وحياً وطبعاً خالية من التكلف والاعتساف. ثم وصفه فى موضع آخر بالتفوق فى نظم الشعر إذ يقول ما نصه «فإن اقتصرت قلت: نابغة زمانه، وإن اختصرت قلت: حبيب[2]».

وهذا يعنى أن الإدفوى قد عدّ ابن دقيق العيد فى طبقة الشعراء المفلقين فى الجاهلية وبعد الإسلام فهو فى مرتبة النابغة الذبيانى أو فى منزلة أبى تمام حبيب ابن أوس الطائى وكل منهما كان مقدماً على أقرانه مشهوداً له بالإبداع الشعرى فى

---

(١) الطالع السعيد ص ٣١٧.

(٢) المصدر السابق.

زمانه . ثم نقل الإدفوى عن ابن سيد الناس فتح الدين محمد اليعمرى أنه قال فى ترجمته لابن دقيق العيد ما نصه[١] «وله مع ذلك فى الأدب باع وساع وكرم طباع لم يخل فى بعضها من حسن انطباع ، حتى لقد كان محمود الكاتب المجيد فى تلك المذاهب المشهود له بالتقدم فيما يشاء من الإنشاء على أهل المشارق والمغارب . يقول لم تر عينى آدب منه» ثم قال الإدفوى فى موضع آخر[٢] بعد أن وصفه بالتقى والصلاح قال : ومع ذلك فكان خفيف الروح لطيفاً على نسك وورع ودين متبع ينشد الشعر والموشح والزجل والبليق والمواليا ، وكان يستحسن ذلك» ثم قال «حكى لى صاحبنا فتح الدين محمد بن كمال أحمد بن عيسى القليوبى قال : « دخلت عليه موة وفى يده ورقة ينظر فيها زماناً ثم ناولنى الورقة وقال اكتب من هذه نسخة فأخذتها فوجدت فيها بليقة أولها :

كيف أقـــدر أتوب ورأس إيرى مثقوب

وقال لى شيخنا تاج الدين محمد بن أحمد الدشناوى سمعته ينشد هذه البليقة

جلد العميرة بالزجاج ولا الـــزواج

ويقول بالزجاج يا فقيه» . والطريف فى هذا النص الذى نقلته عن الإدفوى والذى ذكر مضمونه كثير ممن ترجموا لابن دقيق العيد . الطريف فى ذلك هو أنه يدل دلالة واضحة على أن ابن دقيق العيد التقى الورع العالم المبعوث على رأس السبعمائة ليجدد للأمة أمر دينها كان ظريفاً خفيف الروح ينشد الأشعار الشعبية التى تتحدث عن الأمور الجنسية وأنه كان يستحسن ذلك ويحب سماعه وإنشاده يدل على ذلك ما رواه الإدفوى إذ قال[٣] «وحكى لى صاحبنا الفاضل الأديب الثقة مجد الدين عمر بن اللمطى . قال كنت مرة بمصر فى حاجة وطلعت إلى القاهرة فقالوا الشيخ طلبك مرات فجئت إليه فقال

---

(١) المصدر السابق ص ٣١٩ .

(٢) الطالع السعيد ص ٣٢٧ .

(٣) نفس المرجع .

أين كنت ؟ قلت بمصر فى حاجة فقال طلبتك سمعت إنساناً ينشد خارج الكاملية :

بكيت قالـوا عاشـق ... سكت قالوا قد سلا
صليت قالوا ذا كـر ... ما أكثر فضول الناس»

قال فأعجبنى وليس فى ذلك غرابة لأن ابن دقيق العيد كان مصرياً والمصريون بحكم طبيعة بلادهم ومناخها مرحون بهم دعابة وظرف لا يعشقون التزمت، ولا يميلون بطبعهم إلى السكينة المملة والوقار الثقيل .

هذا وقد وصفه الإسنوى[١] بأنه أديب نظماً ونثراً وأنه ذو بلاغة تامة إذ قال ما نصه . «صاحب النظم الرائق والنثر الفائق المجمع على كماله فى العلم والدين والزهد والورع مع البلاغة التامة» . ثم استشهد على قوله هذا بذكر شهادة الشهاب محمود الكاتب بتفوق ابن دقيق العيد فى الميدان الأدبى فقال: «قال الشهاب محمود الكاتب ما رأيت أعرف منه بصناعة الأدب» . وقال الإسنوى أيضاً ما نصه «وللشيخ رحمه الله خطباً بليغة مشهورة أنشأها لما كان خطيباً بقوص . وله أيضاً شعر بليغ رقيق» . هذا وقد وصفه الصفدى [٢] بأنه كان نحوياً أديباً ناظماً ناثراً عجيباً لا يباريه فى كل فنه مبار ولا يجاريه فى مضمارها مجار ولا تعلق له الريح إذا أم غاية بغبار . وكان ناقداً جهبذاً يقترب فى النقد الأدبى عند الصفدى من منزلة كبار الأدباء الناقدين فقد قال الصفدى فى كتابه أعيان العصر ما نصه . «أخبرنا شيخنا العلامة أبر الثناء قال لى يوماً الشيخ تقى الدين قول أبى الطيب :

لو كان صادف رأس عازر سيفه ... فى يوم معركـة لأعيى عيسى

فى هذا شىء غير إساءة الأدب ففكرت ساعة ثم قلت . نعم كون الموت ما يتفاوت إن كان بالسيف أو بغيره فالأحياء من الموت سبيل واحدة فقال لى

---

(١) الاسنوى — طبقات الشافعية من ورقة ١١٤ إلى ١١٦ .

(٢) أعيان العصر وأعوان النصر جـ ٦ لوحة ٨١ .

أحسنت يا فقيه» ، وقد عقب على هذا النص الدال على توفر ملكة النقد الأدبى لدى ابن دقيق العيد عقب على هذا النص الصفدى فقال « وهذه المؤاخذة لا تصدر إلا من أديب كبير كالجاحظ أو غيره » . وتلك شهادة الصفدى لابن دقيق العيد وهو أعنى الصفدى من عرف بالتقدم فى الأدب وروايته وبصحة أحكامه على ما يرويه من الأشعار وبليغ الكلام .

ثم قال الصفدى أيضاً(١) « قال لى شيخنا شهاب الدين ما رأيت فى أهل الأدب مثله ، وناهيك بمن يقول مثل الشهاب محمود فى حقه » .

هذا وقد كان شيخ الأدب فى زمانه يعنى (الشهاب محمود) . فمن هذه النصوص وغيرها يظهر لنا فى وضوح أن ابن دقيق العيد كان كما قلت فى صدر هذا الفصل يجيد الأدب بفنونه الثلاث التى كانت سائدة فى عصره ، وهى الشعر والخطابة والكتابة . ولما كان موضوع بحثنا هو جمع شعره وإخراج ديوان له إلى حيز الوجود أرى أن أتكلم أولا وفى شىء من العناية عن شعره وعن الفنون التى مارسها بعد أن جمعت شعره أو على الأصح جمعت كل ما استطعت العثور عليه من أشعاره .

أقول إنه زاول أولا الغزل أو النسيب . ثانياً — مديح الرسول عليه السلام . ثالثاً — الحنين إلى الأماكن المقدسة . رابعاً — المديح التقليدى وهو الذى يقال فى وصف العظماء من الأمراء والوزراء ومن إليهم . خامساً — الزهد والحكمة أو الوعظ والإرشاد .

وهذا كله فى إطار الشعر التقليدى . أما الشعر الشعبى أو الفنون الحديثة ، فقد قال الزجل اوالموشح والبليق والمواليا . وكان وكان . ولما كانت هذه الفنون جميعاً لم يصلنا عنه فيها شعر أو نظم فستتكلم على الفنون التى عثرنا له فيها على شعر وهى أولا — مديح الرسول عليه السلام ، وعندنا له فيه قصائد ثلاث هامة . إحداها وهى أشهرها ومطلعها .

يا سايراً نحو الحجـــاز مشمــــراً   اجهد فديتك فى المسير وفى السرا

---

(١) الصفدى — أعيان العصر وأعوان النصر جـ ٦ لوحة ٨١ .

ولم يذكر أحد ملابسات هذه القصيدة والظروف التى قالها فيها ولا نعرف أيضاً متى وأين أنشأها ولكن مطلع القصيدة نفسه يوحى بالسفر والترحال . ومعناها العام يجعلنا نزعم أنه قالها وهو متجه إلى الحجاز فى طريقه إلى أداء فريضة الحج وزيارة النبى عليه السلام إذ يقول فيها :

فالقصد حيث النور يشرق ساطعاً والطرق حيث ترى الثرى متعطرا
قف بالمناهل والمنازل من لدن وادى قباء إلى حمى أم القرى

وهى فى جملتها تفيض بالأحاسيس والشعور وتسود ألفاظها السهولة والعذوبة مع الرصانة والمتانة وجودة السبك وصدق التعبير . والثانية مطلعها :
شرف المصطفى رفيع عماده ليس يحصى لكثرة تعداده

وهذه القصيدة تبدو فيها الصنعة ويتراءى فى أكثر عباراتها التكلف بشكل ظاهر كما أنك لا تحس وأنت تقرؤها بحرارة العاطفة وصدق الشعور . الأمر الذى يحملنا على القول بأنه كان يقصد إظهار مقدرته على نظم الشعر فى القوافى الصعبة .

وأما الثالثة فهى مخمس ومطلعها :

ذروا فى السرى نحو الجناب الممنع لذيذ الكرى واجفوا له كل مضجع
وأهدوا إذا جئتم إلى خير مربع تحية مضنى هائم القلب موجع
سريع إلى داعى الصبابة طيع

وهذه القصيدة كما هو واضح من مطلعها تفيض برقة الإحساس وصدق الشعور وإن كانت لم تخل من تكلف بعض الكلمات دعت إليها ضرورة القافية وذلك فى مثل قوله :

يقوم بأحكام الهوى ويقيمها فكم ليلة قد نازلته همومها
فسامرها حتى تولت نجومها له فكرة فيمن يحب نديمها
وطرف إلى اللقيا كثير التطلع

فألفاظه فى هذا المخمس بها بعض الفتور والعبارات فيها رائحة التكلف وهو واضح كل الوضوح فى الشطرة الرابعة وهو قوله: « له فكرة فيمن يحب نديمها » فالضمير فى قوله نديمها راجع بلاشك إلى الليلة، والضمير فى له راجع إلى النديم وعليه فيكون تقدير الكلام هكذا « لنديمها فيمن يحب فكرة أو تفكير » وذلك هو السبب فيما يدعيه من السهر ومنادمة الليل . وفى هذا ما فيه من التكلف والاعتساف، على أن قوله فى صدر هذا المخمس يدل ولو من بعيد على أن ابن دقيق العيد أنشأ هذه القصيدة بعد أن ولى منصب قاضى القضاة فى الديار المصرية إذ يقول: « يقوم بأحكام الهوى ويقيمها » . وهذا الفن أعنى المدائح النبوية ظهر فى مصر إبان العصر الأيوبى وكثر فى عصر المماليك . ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى أن المصريين كانوا قد اعتادوا أثناء قيام الدولة الفاطمية التوسل بالأئمة أو الخلفاء الفاطميين . فلما قامت دولة الأيوبيين وتلاشت دولة الفاطميين ساد مذهب أهل السنة ربوع مصر وهو يحظر على الناس وبخاصة الشعراء أن يمدحوا خلفاء الفاطميين أو أن يتوسلوا بأئمتهم . فكان لابد والأمر كما ذكرت أن يبحث شعراء مصر عمن يتوسلون به مع المحافظة على أنفسهم من بطش السلطان وتنكيله، فمدحوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأرضوا بذلك أنفسهم وأرضوا عنهم أصحاب الأمر والسلطان .

وهناك سبب آخر وهو ما كان قد لحق بالمسلمين من ضيم وأسى بسبب احتلال الصليبيين أماكن وبقاعاً عزيزة عند العرب والمسلمين كبيت المقدس وعسقلان وعكا وغير ذلك من مدن الشام .

هذا على أن العرب فى مصر والشام كانوا يشعرون فى قرارة أنفسهم دون شك بالمرارة والألم لزوال السلطان والملك عنهم فى تلك الديار وصيرورته إلى الأيوبيين . ومن بعدهم المماليك وهم جميعاً من عناصر آرية يختلفون فى الجنس واللغة وأصل الدار عن العرب تمام الاختلاف فلذلك رأينا شعراء العرب فى مصر والشام يكثرون من مديح رسول الله فخر العرب ومصدر مجدهم لما فى ذلك من تعلة لهم وتعزية عما فقدوه من الملك والسلطان . وهناك عوامل أخرى ساعدت

على الإكثار من المدائح النبوية فى ذلك العصر أهمها .

أولا — كثرة المجاعات بسبب إجداب الأرض وانخفاض منسوب ماء النيل من جهة، وبسبب ظلم المماليك للشعب وعسفهم بالرعية ثم كثرة تلك الحروب التى كانت تدو ر رحاها فى مصر والشام على ما سبق أن فصلناه فى كلامنا عن الجانب الاقتصادى فى الفصل الأول .

ثانياً — تلك الموجة الصوفية التى غمرت البلاد وعظم فيها خطرها منذ أن ولى صلاح الدين ملك الديار المصرية فقد كثرت الزوايا والخوانق فى مصر ولقيت تشجيعاً كبيراً وعناية بالغة من سلاطين الأيوبيين والمماليك أجمعين.

وأخيراً وليس آخراً الحجيج، فقد أخذ المسلمون من جميع الأقطار المغربية والإفريقية والأقاليم المصرية نفسها يذهبون إلى الحجاز عن طريق قوص وهى فى أعلى الصعيد فى مصر . الأمر الذى كان يحرك فى نفوس المسلمين ذكر الرسول والتشوق لزيارته فكان ذلك الشعور يصاغ فى تلك القصائد والأشعار التى كان ينظمها الشعراء فى مديح الرسول عليه السلام .

هذا ومما يجدر الحديث عنه هنا هو ما نلحظه من فرق كبير بين المدائح النبوية قديمة وبينها فى عصر ابن دقيق العيد وهو أن المدائح النبوية لم تكن فى القديم غرضاً ولا فنًّا بذاته . فحسان بن ثابت حين كان يمدح الرسول عليه السلام لم يكن غرضه من ذلك مديح الرسول فقط وإنما كان يقصد هجاء المشركين من أهل مكة ومن كان يؤيدهم فى محاربتهم المسلمين كيهود خيبر ومن إليهم . وكذلك الحال فى تلك المدائح التى نظمها شعراء الشيعة فى عصر بنى أمية كالكميت وفى عصر بنى العباس كدعبل الخزاعى فإن هؤلاء الشعراء جميعاً حين كانوا يمدحون رسول الله لم يكونوا يمدحونه لذاته وإنما كانوا يتوسلون بذلك إلى مديح على والأئمة من بنيه .

أما فى عصر ابن دقيق العيد فقد كان فنًّا قائماً بذاته إذ كان الشاعر ينشئ القصيدة وليس له غرض سوى مدح الرسول والتوسل به عليه السلام إلى الله عز وجل .

وأما الفن الثانى الذى زاوله ابن دقيق العيد فى إطار الشعر التقليدى فهو النسيب وهو يفيض فى أكثره بالرقة والعذوبة وصدق الشعور وإليك مثلا على ذلك قوله :

أأحباب قلبى والذيــن بذكرهم   وترداده طــول الزمان تعلــق
لئن غاب عن عينى بديع جمالكم   وجار على الأبدان حكم التفرق
فما ضرنا بعــد المســافة بيننــا   سرائرنا تسرى إليــكم فنلتــقى

فهو غزل أو نسيب كما ترى رقيق عفيف فى لفظه لا فحش فى معناه وقد قال فى هذا الفن من الشعر ما هو غاية فى الرقة والعذوبة وسهولة الألفاظ وجودة التعبير كقوله :

كم ليلة فيك وصلنــا السرى   لا نعرف والغمض لا نســتريح
واختلف الأصحــاب ماذا الذى   يزيل من شــكواهم أو يريح
فقيل لى تعريسهــم ساعــة   وقلت بل ذكراك وهــو الصحيح

وهذه الأبيات تصور لنا فى صدق ووضوح ما كان عليه الشيخ تقى الدين من الظرف وخفة الروح .

أما المديح التقليدى وهو ذلك الشعر الذى كان ينشأ فى وصف الأمراء والوزراء والخلفاء والسلاطين وغيرهم من الوجهاء والكبراء بأحب الصفات إليهم وآثرها لديهم، وذلك بقصد الاستجداء وأخذ العطاء فلم يروعن الشيخ تقى الدين أى شعر فيه اللهم إلا تلك الأبيات التى وجدت فى الورقة التى كتبها إلى صاحب اليمن وهى قوله :

تجادل أرباب الفضائل إذ رأوا   بضاعتهم موكوسة الحظ فى الثمن
وقالوا عرضناهــا فلم نلف طالبــا   ولا من له فى مثلها نظــر حسن
ولم يبق إلا لفظهــا واطراحهــا   فقلت لهم لا تعجلوا السوق باليمن

فهذه الأبيات كما ترى وإن كان القصد منها الحصول على المال من

صاحب اليمن فإنها قد خلت تماماً من تلك الصفات التى كان الشعراء يبالغون فى خلعها على ممدوحيهم .

هذا على أنه مدح بعض الأشخاص ولكن فى غير غلو كقوله فى بعض الوزراء :

مقبل مدبر بعيـــد قـــريب   محسن مذنب عدو حبيب
عجب من عجائب البحر والـ   بر ونوع فرد وشكل غريب

فهو يصف الممدوح بأنه مقبل على الخير مدبر عن الشر بعيد عن اللهو قريب من الله محسن إلى ذوى الحاجة من المسلمين مذنب فى حق الزنادقة والمارقين عدو لأعداء الدين حبيب للمؤمنين والمسلمين . فهو كما ترى لم يصفه بأى وصف فيه غلو أو مبالغة وليس فيه تجاوز للحق أو انتحال لصفات لا يحتمل وجودها فى الممدوح .

هذا وأسلوبه فى هذا النوع من المديح أسلوب جديد إذ كان الشعراء قد جروا فى مدائحهم على أن يبدءوا قصيدة المديح بالغزل والنسيب وذكر السفر والترحال أو غير ذلك من المقدمات التى كانوا يجعلونها بين يدى موضوع القصيد والغرض الذى قيلت من أجله وأعنى به نعت الممدوح ووصفه بأحب الصفات وأحسنها .

أما ابن دقيق العيد فإنه لم يصطنع النسيب ولا التشبيب ولا أى شىء آخر من مقدمات القصيد . وإنما كان يطرق الموضوع مباشرة .

هذا وقد قال شيخنا تقى الدين الشعر فى الحنين إلى الأماكن المقدسة فمما أنشأه فى هذا الموضوع قوله :

يهيم قلبى طـــرباً عندمـــا   أستملح الـــبرق الحجازيا
ويستخف الوجد عقـــلى وقد   أصبح لى حسن الحجا زيا
يا هل أقضى حاجتى من منى   وأنحر الـــبزل المهـــاريا
وأرتوى من زمزم فهى لى   ألـــذ من ريق المهـــا ريا

وهذا الفن مما أبدعه المصريون وأكثروا فيه على نحو ما رأيناه فى مديح النبى عليه الصلاة والسلام . فالفنان كلاهما مصرى وإن كان ثمة فرق بينهما فهو أن شعر الحنين إلى الأماكن المقدسة وأرض الحجاز كان أسبق إلى الظهور من شعر مديح الرسول عليه السلام إذ أن شعر الحنين إلى الأماكن المقدسة كان قد ظهر إبان العصر الفاطمى عند أمثال المهذب بن الزبير[1] وأخيه الرشيد وعند بنى عرّام .

هذا والملاحظة الجديرة بالذكر هنا أن شعراء الصعيد كانوا من أسبق شعراء مصر فى ذكر الأماكن المقدسة والحنين إليها فى قصائدهم ولا سيما شعراء قوص وأسوان وإدفو . ولعل السبب فى ذلك راجع إلى أن قوص وما جاورها كانت تزخر بالذاهبين إلى مكة والمدينة والآيبين منهما . أعنى أن تلك البلاد كانت طريق الحج الأمين ولاشك فى أن رؤية الحاج وهو متوجه إلى أرض الحجاز أو استقباله وهو راجع عنها تثير فى نفوس الشعراء وعواطفهم ذكر تلك الأماكن المقدسة وهاتيك البقاع المباركة فتتوق إليها نفوسهم وتتحرق قلوبهم شوقاً إليها . فلا غرو إذن أن يكثر شعراء مصر وبخاصة من كانوا بأعلى الصعيد من ذكر الأماكن المقدسة فى أشعارهم والحنين إليها فى قصائدهم .

أضف إلى هذا أن من بين أهل الصعيد عدداً كبيراً من أحفاد أولئك العرب الحجازيين الذين هم نزحوا إلى صعيد مصر فى العصور السابقة فراراً مما كانوا يلقونه من اضطهاد الولاة وعسف الحاكمين وهم حين تركوا أرضهم وديارهم واستقروا بأرض الصعيد كانوا دون شك يحملون فى جوانحهم وبين أحشائهم نفساً كئيبة حزينة كليمة تفيض بالشوق والحنين إلى أرضهم وديارهم التى خرجوا منها مكرهين . وعلماء النفس يعترفون بأن العواطف والانفعالات إذا كانت مكينة فى النفس متوغلة فى أعماق القلب تورث كغيرها من الصفات البدنية أو الجسمية الأخرى .

---

(١) الإدفوى — الطالع السعيد من ص ١٠٠ — ١٠٥ .

وأما الزهد والحكمة فقد وجدنا له فيه شعراً غير قليل أذكر منه على سبيل المثال قوله :

وقائلة مات الكرام فمن لنا إذا عضنا الدهر الشديد بنابه
فقلت لها من كان غاية قصده سؤالا لمخلوق فليس بنابه
لئن مات من يرجى فمعطيهم الذى يرجونه باق فلوذى ببابه

هذا وشعره فى الزهد والحكمة يفيض بالصدق والإخلاص . أقول الزهد والحكمة ولا أقول التصوف لأن شعر الصوفية فى هذا العصر قد زخر بالنظريات والآراء الفكرية التى تتمثل فى وحدة الوجود عند محي الدين بن العربى وفى نظرية القطب أو تنقل النور المحمدى كما وجدناه فى شعر إبراهيم الدسوقى فابن دقيق العيد لم يكن من هؤلاء الشعراء الذين تغنوا فى شعرهم بوحدة الوجود أو الاتحاد بين الخالق والمخلوق أو نظرية الحب الإلهى التى نجدها فى ديوان ابن الفارض .

أقول إن ابن دقيق العيد لم يكن من نوع هؤلاء لأن شعره الذى بين أيدينا لم يتضمن أية نظرية يمكن اعتبارها فى عداد النظريات الفلسفية، وإنما هو فى شعره زاهد واعظ يرشد الناس إلى ما فيه الخير والصلاح .

وأما الأشعار الشعبية والفنون الحديثة الأخرى كالموشح والزجل وكان وكان والمواليا، فلم نعثر له فيها على شيء . وأما البليق وهو فن مصرى خالص وإن كان لا يخرج فى أوزانه عن الأزجال التى كانت تعرف فى مصر والذى أصلها يرجع إلى الأندلس فقد ذكروا أنه أنشد فيه ، ولكن لم يذكروا سوى مطلع بليقتين الأول قوله :

وكيف أقدر أتوب ورأس إيرى مثقوب

والثانى قوله :

جلد العميرة بالزجاج ولا الزواج

واسم هذا الفن البليق نسبة إلى طائر جميل الشكل حسن المنظر، واسم الواحدة

منه بليقة وتجمع على بلاليق والتسمية والجمع كل أولئك يرجع إلى اللغة المصرية الشعبية . والبليق كالزجل ولكنه كان أكثر ما يقال فى الموضوعات الجنسية أو على حد تعبير صفى الدين الحلى[1] فى الهزل والخلاعة والأحماض وهو أشبه شىء بالأدب المكشوف ، ودليلنا على أن البليق نوع من أنواع الزجل وأنه مصرى خالص ما ذكره صفى الدين الحلى فى كتابه العاطل الحالى والمرخص الغالى وذلك فى معرض حديثه عن فن الزجل وإليك نص ما قال [2] « وقد قسمه مخترعوها (يعنى الزجل) على أربعة أقسام يفرق بينها بمضمونها والمفهوم لا بالأوزان واللزوم . فلقبوا ما تضمن الغزل والنسيب والخمرى والزهدى زجلا . وما تضمن الهزل والخلاعة والأحماض بليقاً » . ثم قال بعد ذلك « وقد تتفق هذه الألقاب الأربعة فى وزن واحد وقافية واحدة ويكون الفارق بينها ما تقدم ذكره من اختصاص كل واحد منها بقصد الناظم وباقى البلاد لا يعتبرون هذا الفرق بل يسمون كل ما أعرب موشحاً وكل ما خلا من الإعراب زجلا وما اشترك فيه الإعراب واللحن مزنماً فى أى فن قصد الناظم » .

وهذا النص الصريح فى أن البليق فن مصرى خالص فى اسمه وموضوعه . وبالجملة فإن الصفات العامة التى نستخلصها من شعر ابن دقيق العيد هى أولا السهولة والعذوبة مع الجزالة فى الألفاظ وحسن السبك وعدم التنافر بين الكلمات مع قرب المأخذ ووضوح المعنى وصدق الشعور وحيوية العاطفة ، كما أننا نلحظ فى شعره وجود العبارات الدينية والمصطلحات الفقهية وأساليب الشيوخ فى الشرح والإفتاء والبحث والتحقيق مع عدم الإخلال والإفساد إذ كانت الشاعرية أو الفنية لا تتأثر بتلك العبارات والأساليب والمصطلحات فى شىء ، بل أستطيع أن أقول إنها كانت تزيد فى جمال الشعر وروعته كما نرى ذلك واضحاً فى قوله :

---

(١) العاطل الحالى والمرخص الغالى ص ١٠ .

(٢) المصدر السابق .

كم ليلة فيك وصلنـــا السرى   لا نعرف الغمض ولا نستريح
واختلف الأصحاب ماذا الذى   يزيل من شكواهم أو يريح
فقيل تعــريسهم ســاعة   قلت بل ذكراك وهو الصحيح

وأفضل شيء يقال فى هذا المقام ما عقب به الصفدى على هذا القول فى كتابه الغيث المسجم فى شرح لامية العجم إذ قال بعد أن أورد الأبيات السالفة الذكر ما نصه[1] « انظر إلى هذا النظم ما ألطف تركيب ألفاظه وأحلاه وكونه استعمل طريق الفقهاء فى البحث فى ذكر اختلاف الأصحاب وأنه قيل كذا وقيل كذا وهو الصحيح كأنه إمام الحرمين ، وقد ألقى درساً فى مسألة فيها خلاف بين الأصحاب وقد رجح ما رآه هو عنده من الدليل وما رأيت أحسن من هذا . بينما هو يصف أحوالهم فى السرى ومشاقهم فى التعب وتشاورهم فيما بينهم وما أشار به كل منهم فى إزالة ما حصل لهم من العناء إذا به قد برز من بينهم برأى أدخل فيه ذكر الممدوح ونص على تصحيحه ، فكأنه فى حلقة الدرس وقد شرع فى مسألة خلافيه ويحرم هذا النظم على غير الشيخ تقى الدين » .

وهذا أوضح دليل وأقوى برهان على عظم توفر الشاعرية لدى ابن دقيق العيد وتفوقه فى نظم القريض وعلى ضوء ما تقدم وبعد تتبع أشعاره نستطيع القول بأن ابن دقيق العيد لم يكن ينتمى فى أسلوبه وطريقة شعره إلى إحدى المدرستين اللتين كانتا سائدتين فى أوائل العصر الأيوبى وهما مدرسة الكتاب التى كان يمثلها أو يتزعمها القاضى الفاضل . ومدرسة الرقة والسهولة وهى التى تزعمها البهاء زهير . وإنما هو أعنى ابن دقيق العيد مزاج بين المدرستين إذ ظهرت الرقة والسهولة فى شعره إلى جانب وجود الصنعة والمحسنات البديعية التى كانت الطابع العام لمدرسة الكتاب .

وأما خطابته فقد شهد له الجميع بالبراعة والإبداع ومدحه بالفصاحة والبلاغة

---

(١) الغيث المسجم شرح لامية العجم جـ ١ ص ١٨٧ .

وفرط الإجادة فيها أبو الحسين الجزار إذ قال فيه بعد أن سمعه يخطب بقوص مادحاً :

يا سيد العلماء والأدباء والـ	بلغاء والخطبـاء والحفاظ
شنفت أسماع الأنام بخطبة	كست المعانى رونق الألفاظ
أبكت عيون السامعين فصولها	فزكت[؟] على الخطباء والوعاظ
وعجبت منها كيف حازت رقة	مع أنهـا فى غاية الإغلاظ
ستقول مصر إذ رأتك لغيرها	ما الدهر إلا قسمة وأحـاظ
ويقول قوم إذ رأوك خطيبهم	أنسيتنا قساً بسوق عكاظ

على أن خطبه لم يصلنا منها شىء اللهم إلا تلك الخطب التى كان يكتبها بين يدى كتبه كمقدمة شرح الإلمام وإليك طرفاً منها قال[١] : «أما بعد حمد الله فإن الفقه فى الدين منزلة لا يخفى شرفها وعلاها ولا تحتجب عن العقول طوالعها وأضواها وأرفعها بعد فهم كتاب الله المنزل البحث عن معانى حديث نبيه المرسل إذ بذاك تثبت القواعد ويستقر الأساس وعنه يقوم الإجماع ويصدر القياس وما تعين شرعاً تعين تقديمه شروعاً وما يكون محمولا على الرأس لا يحسن أن يجعل موضوعاً .. إلخ » .

وهذه الخطبة كما ترى تمس من المخاطبين العاطفة الدينية وتحرك فى نفوسهم حب العلم والجد فى طلبه ، وعباراتها كما ترى سهلة واضحة لا تعقيد فيها ولا غموض ولا وحشية فيها ولا إبهام والسجع فيها جار على الطبع لا تكلف فيه ولا تصنع وبالجملة فهى فصيحة بليغة تؤثر على القارئين أو السامعين بالغ التأثير .

وأما نثره فهو أيضاً بديع رائع شهد له بذلك من هو حجة فى الحكم على الأدب وتقديره . أعنى الصلاح خليل بن أيبك الصفدى . فقد قال فى كتابه أعيان العصر بعد ذكره كتاباً وقع إليه من كتبه[٢] « ما أعرف من كتب

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى جـ ٦ ص ١٢ .

(٢) أعيان العصر جـ ٦ م ١ لوحة ٨١ — ١٠٢ .

الإنشاء بعد القاضى الفاضل رحمه الله تعالى مثل القاضى محي الدين بن عبد الظاهر وما له مثل هذه المكاتبة إذ لم تعتبر التورية علم ذلك من علمه أوجهله من جهله » .

وإليك نبذة من ذلك الكتاب الذى أرسله الشيخ تقى الدين إلى قاضى القضاة شهاب الدين الخوبى شافعاً ومتشوقاً على حد تعبير الصفدى قال[1] « ولا برح يمطر على القضاة سحايب كرمه ويروى الرواة من بحار علوم تمتد من قلمه ويجلو أبكار الأفكار مقلدة مما نظم السحر من حلى كلمه ، ويبرز خفيات المعانى منقادة بأيدى ذهنه وأيدى حكمه ، ويسمو إلى غاية المعانى حتى يقال أين سمو النجم من همه » .

وهذا كما ترى كلام تكثر فيه المحسنات البديعية كالطباق والجناس وكذلك أنواع البيان كالتشبيه والاستعارة المكنية ثم هو سهل سلس يسوده السجع الذى يأتى فى أكثره عفو الخاطر وإن وجد فيه تكلف فهو قليل .

وأخيراً وفى ختام هذا الفصل أقول كما قلت فى أوله إن ابن دقيق العيد كان ممتازاً متفوقاً فى أدبه نظماً ونثراً وخطابة يكاد لا يجاريه فيه أحد فهو وإن أشبهه أو ماثله أحد فى الشعر على حدة ، أو فى النثر على حدة أيضاً فإننا لم نجد أحداً يشبهه أو يدانيه فى الجمع بين هذه الفنون الثلاثة مع الإجادة والإتقان فى إبداع رائع وبلاغة تكاد تكون منقطعة النظير .

وبالجملة فهو قد بز أقرانه وفاق معاصريه فى فنون الأدب كما بزهم وتفوق عليهم فى ميدان العلم والاجتهاد .

---

(١) المرجع السابق .

مقدمة الديوان

لم يكن أهل العلم والمعرفة وأصحاب الشعر والأدب فى هذا الجيل وسابقه يعرفون عن ابن دقيق العيد شيئاً ، اللهم إلا فئة قليلة وأكثرهم من الأزهريين كانوا وما زالوا حتى هذا الحين يعرفون ابن دقيق العيد على أنه عالم من علماء الدين وربما كثر علم أحدهم بأخبار ابن دقيق العيد واتسعت فيه معرفته ، فعلم أنه كان قاضى قضاة مصر وأنه من علمائها العاملين .

هذا هو مبلغ علم الناس فيما أعتقد بابن دقيق العيد .

أما كونه شاعراً أو أديباً فلم يكن أحد من المعاصرين ولا من الذين عاشوا فى القرن الماضى ممن يعنون بالشعر والأدب أزهريين كانوا أم جامعيين لم يكن أحد من أولئك ولا هؤلاء يعرف عن شاعرية ابن دقيق العيد شيئاً . إذ لم نجد أحداً منهم ذكره فى كتاب له أو مقال على أنه شاعر أو كاتب أو خطيب أو على الأقل ، روى لنا شيئاً من شعره . ولو من ذلك النوع الذى نظمه رحمه الله فى الزهد والحكمة .

على أن شعر الزهد والحكمة كثيراً ما يتردد على ألسنة الأدباء والعلماء من المدرسين والكاتبين ، ولعلهم فى ذلك معذورون إذ لم يكن ثمة ديوان مطبوع ولا مخطوط يضم بين دفتيه شتات ما روى عن ابن دقيق العيد من قصائد ومقطوعات . اللهم إلا ذلك المجموع الذى جمع فيه صلاح الدين الصفدى مختارات من دواوين بعض الشعراء كالأمير تميم والعزازى وأبى الحسين الجزار فإنه قد اشتمل على قصائد ومقطعات لابن دقيق العيد . ولست أدرى على وجه التحقيق لماذا أغفل المعنيون بجمع الشعر ونشر الدواوين قصائد ابن دقيق العيد وأشعاره ، إلا أنى أبيح لنفسى القول بأن السبب فى ذلك راجع إلى أمرين .

أولهما — كون ابن دقيق العيد لم يكن يعنى بتدوين شعره وجمعه لا بنفسه ولا بواسطة أحد تلاميذه أو خلطائه ومحبيه . إذ لم يذكر لنا أحد ممن سمعوا منه

الشعر مباشرة أو نقل إليهم لم يذكر أحد من هؤلاء ولا أولئك أنه وجد شعراً مكتوباً بخط ابن دقيق العيد على أنه قائله ، ولا أنه أملى على طلابه لنفسه شعراً .

والثانى — كون ابن دقيق العيد غلبت عليه صفة العلم وصبغة الدين مما جعل العلماء والمتأدبين لا يحفلون بجمع شعره وروايته كثيراً بل صرفوا جهدهم فى تعرف كل ما له صلة بشخصيته العلمية والدينية وأن ذكروا له شعراً ،فإنما يذكرونه عرضاً أو على سبيل الاستطراد .

لذلك كله وجدتنى بعد أن وافق مجلس كلية آداب القاهرة الموقر على أن يكون موضوع البحث الذى أتقدم به لنيل درجة الماجستير فى الآداب « حياة ابن دقيق العيد وديوانه » الذى هو عبارة عن تلك القصائد والمقطعات التى ذكرها الصفدى فى مجموعه الذى أسلفنا له ذكراً ، وجدت أنى لا أقوى على المضى فى بحث هذا الموضوع ودراسته إذ هو دون شك صعب المسلك وعر السبيل حتى كدت أعتزم العدول عنه إلى غيره ، لولا أن أستاذى الجليل الدكتور محمد كامل حسين هوّن على الأمر وما هو بهين . ولكن توجيهاته وإرشاداته هى التى شرحت صدرى للموضوع وبفضلها بعد عون الله مضيت بجد وعزم باذلا قصارى جهدى فى تحقيق ما اختاره الصفدى من شعر قاضى القضاة تقى الدين أبو الفتح محمد بن على المعروف بابن دقيق العيد ولم أقتصر على ذلك بل جهدت كل الجهد فى جمع ما أمكن الوقوف عليه مما لم يذكره الصفدى فى مجموعه من شعر ابن دقيق العيد فكان نتيجة الجهد وثمرة الاجتهاد هذا الديوان الذى أحمد الله تعالى على أن وفقنى فى جمع شتاته وتحقيق أجزائه حتى خرج مما كان عليه من حالة هى أشبه ما تكون بالعدم أو الفقدان إلى حيز العالم الثقافى والوجود الأدبى . وهو قسمان .

الأول : خاص بتلك القصائد والمقطعات التى اختارها الصلاح الصفدى فى مجموعة من شعر ابن دقيق العيد . وهذا المجموع كتاب أفرد فيه الصفدى من كتابه المعروف بالتذكرة مختارات من شعر القاضى الفاضل والوراق والأمير

والعزازى وأبى الحسين الجزار وختمه بقصائد ومقطوعات اختارها من شعر ابن دقيق العيد والموجود منه فيما نعلم نسخة واحدة بخط المؤلف نفسه وهى محفوظة بمكتبة أيا صوفيا فى بلاد الأتراك تحت رقم ٣٩٤٨ ، وقد تحصلنا على صورة لتلك النسخة بالفوتستات ، ولم نعثر لها على نسخة أخرى حتى نستعين بها فى فى تحقيق ما أخذنا على عاتقنا تحقيقه ونشره مما جاء فى ذلك المجموع من شعر ابن دقيق العيد .

لذلك كان كل اعتمادنا فى تحقيق ذلك الجزء على تلك الروايات المختلفة التى عثرنا عليها لنفس هاتيك القصائد والمقطعات التى اشتمل عليها مجموع الصفدى وذلك فى بطون الكتب المختلفة التى ترجمت لابن دقيق العيد وذكرت له شعراً . أما القسم الثانى من هذا الديوان ، فهو تلك القصائد والمقطعات التى ظفرت بها أثناء البحث والتنقيب ،ولم يذكر الصفدى فى مجموعه شيئاً منها . وقد رتبت هذا القسم على حروف المعجم لأن ذلك أدعى إلى الضبط وأيسر فى الحصر وأسهل فى التناول .

هذا ، والكتب التى رجعت إليها فى تأليف هذا البحث بقسميه كثيرة جمة ذكرتها جميعاً فى ثبت خاص جعلته فى آخر الرسالة ،ولكنى أقتصر هنا على ذكر ما هو أوثق رواية وأصدق خبراً وأصح حديثاً ، وذلك كالطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد للعلامة كمال الدين الإدفوى المتوفى سنة ٧٤٨ هـ . ومسالك الأبصار فى ممالك الأمصار لابن فضل الله العمرى المتوفى أيضاً سنة ٧٤٨ هـ . وكتاب طبقات الشافعية للقاضى جمال الدين عبد الرحيم ابن الحسن بن على بن عمر المشهور بالإسنوى والمتوفى سنة ٧٧٢ هـ . وطبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين أبى نصر عبد الوهاب بن شيخ الإسلام على المعروف بتقى الدين السبكى . وتاج الدين هذا توفى سنة ٧٧١ هـ أى قبل العلامة الإسنوى بعام . ثم كتاب أعيان العصر وأعوان النصر . والوافى بالوفيات وكلاهما للعلامة صلاح الدين الصفدى المتوفى سنة ٧٦٤ هـ . وكتاب فوات الوفيات لابن شاكر الكتبى المتوفى أيضاً سنة ٧٦٤ هـ . وكتاب المقفى لتقى الدين أحمد بن على

المقريزى المتوفى سنة ٨٤٥ هـ . وكتاب رفع الإصر عن قضاة مصر لابن حجر العسقلانى .

وأخيراً المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى وهو لأبى المحاسن يوسف بن تغرى بردى المتوفى سنة ٨٧٤ هـ . وقد قدمت فى التوثيق رواية الطالع السعيد على على رواية ابن فضل الله العمرى مع أنهما ماتا فى سنة واحدة لأن الإدفوى صعيدى مصرى من جهة ولأنه يعد أحد تلامذة ابن دقيق العيد من جهة أخرى . كما أنى قدمت أيضاً كتاب الإسنوى على كتاب السبكى مع أن تاج الدين السبكى توفى قبل جمال الدين الإسنوى بعام . وذلك لأن الإسنوى ولد سنة ٧٠٤ هـ أى قبل مولد عبد الوهاب السبكى بأربع وعشرين سنة ، إذ أجمع الذين ترجموا لتاج الدين السبكى على أنه ولد سنة ٧٢٨ هـ وقد قدمتهما معاً على الصلاح الصفدى رغم أنه ولد ومات قبلهما . وذلك لأن كلا من السبكى والإسنوى كان مصرياً . والمصريون بعضهم أدرى بأخلاق بعض . وبالتالى فهم أصح من غيرهم فهماً لروح المجتمع المصرى وطابعه الخلقى ، فإن وثق أحدهم رواية أحد روى عن ابن دقيق العيد فإنما يوثقه عن بينة . هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن الصبغة الدينية والطابع الفقهى قد غلبا على كل من السبكى والإسنوى . الأمر الذى يجعلهما أكثر تحرياً فى النقل والرواية بخلاف الصفدى فإنه غلبت عليه صناعة الأدب والإنشاء ورواية الشعر وآداب العرب ، والذين هم يعرفون باتجاهاهم الأدبى وكلفهم بالشعر ونظم القريض يعتبرون أقل من رجال الفقه والدين من حيث العناية والضبط فى النقل والرواية . وكذلك قدمت ابن شاكر الكتبى على تقى الدين المقريزى لأن ابن شاكر عاش ومات ولما يكد المقريزى يحبو على وجه الأرض ، لأن المقريزى ولد سنة ٧٦١ هـ فى حين مات ابن شاكر الكتبى سنة ٧٦٤ هـ على ما أسلفت . ومعنى هذا أن ابن شاكر مات وعمر المقريزى لا يكاد يجاوز ثلاثة أعوام . كما قدمت المقريزى أيضاً على ابن حجر رغم أنه مات قبل المقريزى بثلاثة أعوام وذلك لأن المقريزى مصرى

والقول فيه على نحو ما قلناه عند توضيح السبب الذى من أجله قدمت الإسنوى والسبكى على العلامة الصفدى .

وأخيراً تأتى مكانة ابن تغرى بردى لأنه ولد ومات فى القرن التاسع الهجرى هذا والله أسأل أن ينفع بهذا الديوان وذلك البحث رجال العلم والأدب ، وأن يقينى نقد الناقدين ولوم اللائمين على ما جاء فى هذه الرسالة بقسميها من خطأ وتقصير فإنى بشر أتعرض إلى ما يجوز أن يقع فيه غيرى من بنى الإنسان من الخطأ والنسيان .

ترجمة العلامة الصفدى

صاحب المجموع

هو العلامة أبو الصفاء صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى . وقد ترجم له كثير ممن عاصروه وخالطوه كتاج الدين أبى نصر عبد الوهاب بن شيخ الإسلام تقى الدين السبكى[1] ومن جاءوا بعده كابن حجر العسقلانى فى كتابه الدرر الكامنة[2] وابن تغرى بردى فى كتابه النجوم الزاهرة[3] وأورد له يوسف إلياس سركيس ترجمة فى (معجم المطبوعات العربية والمعربة[4]) .

وقد عنى به وبكتبه جماعة من المستشرقين فنشرت جمعية المستشرقين الألمانية تاريخه الكبير المعروف باسم الوافى بالوفيات سنة ١٩٣١ . وترجم له كل من (كارل بروكلمان وفريتس كرنكو) . وإليك ترجمته ملخصة من كتابى (الدور الكامنة لابن حجر ، وطبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين السبكى) قال ابن حجر ما نصه « خليل بن أيبك بن أيبك عبد الله الأديب صلاح الدين الصفدى أبو الصفا ولد سنة ست أو سنة سبع وتسعين وستمائة . »

ومعنى هذا أن بن حجر يشك فى تحديد سنة مولده على حين جزم ابن تغرى بردى فى كتابه (النجوم الزاهرة بأن مولده كان سنة ست وتسعين على سبيل التعيين ويؤيده فى ذلك رواية عبد الوهاب السبكى إذ ذكر أن مولد الصفدى كان سنة ست وتسعين . وعبد الوهاب السبكى حجة فى ذلك إذ كان من خلطاء الصفدى وأصدقائه والذين هم كانوا على صلة به حتى مات رحمه الله .

---

(١) طبقات الشافعية جـ ٦ ص ٩٤ .
(٢) جـ ٢ ص ٧٨ .
(٣) جـ ١١ ص ١٩ .
(٤) ص ١٢١٠ – ١٢١٣ .

ومهما يكن من أمر فقد ذكر الصفدى عن نفسه أن أباه أغفل أمره ولم يعن بتثقيفه وتأديبه ولا يسر له سبل العلم وتحصيله وقد ظل على ذلك حتّى بلغ العشرين من عمره. ثم جعل يطلب العلم ويجد فى تحصيله معتمداً على نفسه وكان أول شىء عنى به هو الرسم حتى برع فيه ثم تعلق بالأدب وولع فيه فأكثر من النظم والنثر والترسل والتواقيع . وقد أخذ عن الشهاب محمود . وابن سيد الناس وابن نباتة وأبى حيان وغير هؤلاء من رجال العلم والأدب .

وسمع بمصر من يونس الدبوسى ومن معه وبدمشق من المزى وجماعة وطاف مع الطلبة وكتب الطباق ثم أخذ فى التأليف فجمع تاريخه الكبير الذى سماه (الوافى بالوفيات) فى نحو ثلاثين مجلداً على حروف المعجم وأفرد منه أهل عصره فى كتاب سماه (أعيان العصر وأعوان النصر) فى ست مجلدات وله (الغيث المسجم شرح لامية العجم) وهو كثير الفوائد . (وألحان السواجع بين المبادئ والمراجع) ومن تصانيفه اللطاف (التنبيه على التشبيه وجر الذيل فى وصف الخيل وتوشيح الترشيح وكشف الحال فى وصف الخال . وجنان الجناس وفض الختام عن التورية والاستخدام وخلوة المذاكرة ، والروض الناسم) .

هذا وإن كتبه ورسائله ومصنفاته كثيرة جمة ، ذكر ابن حجر أنه وجد بخط الصفدى نفسه ما نصه « كتبت بيدى ما يقارب خمسمائة مجلد » قال (يعنى الصفدى) ولعل الذى كتبته فى ديوان الإنشاء ضعف ذلك .

وذكر السبكى « أن الصلاح قال له إنه كتب أكثر من ستمائة مجلد تصنيفاً . » ومن أجل كتبه وأجداها فى الشعر والأدب كتابه المعروف (بالتذكرة الصفدية) وقد جمع فيه الكثير من نوادر الأشعار ولطائف الأدب نثراً ونظماً وأتى فيه على تاريخ الآداب العربية وفنونها من أيام نشأته إلى عصره . وقد أربى هذا الكتاب على الخمسين مجلد الموجود منها بدار الكتب المصرية خمس أجزاء فى خمس مجلدات وهى الجزء الثانى والثالث عشر والرابع عشر والثامن والعشرون . والمجلد الخامس مكتوب عليه بخط جديد أنه الثامن والأربعون . ولكن يؤخذ من مراجعة الورقة السابعة والورقة الثالثة والتسعين منه أنه الجزء الثانى

والحمسون ويظهر أن هذا الجزء هو آخر التذكرة .

هذا وأغلب الظن أن الصفدى أفرد من كتابه التذكرة أشعار القاضى الفاضل وأبى الحسين الجزار والوراق والعزازى . وأخيراً أشعاراً مختارة للشيخ تقى الدين محمد بن على بن وهب بن دقيق العيد وذلك على نحو ما فعله فى تاريخه الكبير المسمى (الوافى بالوفيات) إذ أفرد منه تراجم أهل عصره فى ست مجلدات أطلق عليها اسم أعيان العصر وأعوان النصر . وقد سمى مجموعة تلك الأشعار المختارة من شعر كل من القاضى الفاضل والعزازى والوراق والجزار وابن دقيق العيد بالمجموع المبارك . إذ قال فى ختامه هذه العبارة « تم المجموع المبارك بحمد الله وعنايته وحسن توفيقه ثامن عشر رمضان المبارك سنة تسع وأربعين وسبعمائة » . والموجود من هذا المجموع نسخة واحدة بخط المؤلف نفسه وهى محفوظة بمكتبة الآستانة بأستنبول وقد أخذت لها جامعة الدول العربية صورة كاملة بالميكروفيلم . وخط الصفدى حسن جيد يروق الناظر . ولعل السر فى حسن خطه راجع إلى اشتغاله بالرسم وهما أعنى الخط والرسم فنان جميلان بينهما شبه كبير .

هذا ، وقد ولى الصفدى مناصب كثيرة منها الكتابية والإدارية . فأول ما وليه كتابة الدرج بصفد ثم بالقاهرة وباشر كتابة السر بحلب وقتاً وبالرحبة وقتاً والتوقيع بدمشق ووكالة بيت المال . وذكر عبد الوهاب السبكى أنه ساعده آخر عمره فى توليه كتابة الدست بدمشق . ثم فى كتابة السر بحلب وأخيراً فى توليه وكالة بيت المال وكتابة الدست معاً فى دمشق واستمر بها إلى أن مات بالطاعون ليلة عاشر شوال سنة أربع وستين وسبعمائة . عفى الله عنه وأحسن مثواه .

هذا وقد كان فى حياته محبباً إلى الناس حسن المعاشرة جميل المودة . ويذكر ابن حجر أنه ثقل سمعه فى أخريات حياته وأنه كان قد تصدى للإفادة بالجامع وقد سمع منه من أشياخه الذهبى وابن كثير والحسينى وغيرهم ثم قال ابن حجر . قال الذهبى فى حقه « الأديب البارع الكاتب شارك فى

الفنون وتقدم فى الإنشاء وجمع وصنف » . وقال أيضاً « سمع منى وسمعت منه» .
وبالجملة فقد كان الصفدى رحمه الله أديباً عالماً شاعراً كاتباً مكثراً فى ذلك على ما أسلفت . وشعره فى أكثره سهل سلس وكتابته واضحة بليغة وقد أكثر فى رسائله وكتبه من اقتباس الآيات القرآنية والاستشهاد بالحكم والأمثال وأشعار العرب . وكتابه (الغيث المسجم فى شرح لامية العجم) يزخر بالحكمة البالغة والنقد الأدبى الصحيح الذى يصدر عن ملكة قوية راسخة وذوق أدبى سليم .

القسم الثانى من البحث

الديوان

القسم الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله . وبعد فهذا ما اختاره العلامة صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى من شعر شيخ الإسلام تقى الدين ابن دقيق العيد . قال عفى الله عنه .

قال قاضى القضاة تقى الدين أبوالفتح محمد بن الشيخ العلامة مجد الدين أبى الحسن على بن وهب بن مطيع بن أبى الطاعة القشيرى الشافعى المعروف بابن دقيق العيد رحمه الله تعالى يمدح سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . كامل

يا سايراً (١) نحوَ الحجاز مُشمراً ... اجْهَدْ فَدَيْتُكَ فى المَسيرِ وفى السُّرى

وتدَرَّع (٢) الصبرَ الجميلَ ولاتكُنْ ... فى مطلب المَجد الأثيل مُقَصراَ

اقصدْ إلى حيثُ المكارمُ (٣) والندى ... يلقاكَ وجههما مضيئاً مقمرا (٤)

---

(١) ذكر هذه القصيدة ابن حجر العسقلانى فى كتابه رفع الإصر (انظر ورقة ٢٤٧ إلى ٢٥٠ من النسخة المخطوطة بقلم معتاد رقم ١٠٥ تاريخ بدار الكتب فقال أخبره أبو الحسن محمد بن الحسن أدباً . شافهه عن الحافظ أبى الفتح اليعمرى ، أنشدنا قاضى المسلمين أبو الفتح محمد بن المجد على بن وهب بن مطيع القشيرى لنفسه يمدح رسول الله صلى الله عليه وسلم . يا سايرا . . . إلخ) وأسقط منها البيتين ١٨ ، ٣٥ . وذكرها الصفدى فى كتابه *الوافى بالوفيات* تاريخ تيمور ٩٤٨ مخطوط بقلم معتاد جزء ثان (انظر ورقة ٩٥٧ إلى ٩٦٧) فقال أنشدنى من لفظه الشيخ فتح الدين محمد بن سيد الناس . قال أنشدنى شيخنا تقى الدين بن دقيق العيد لنفسه (ثم ذكر له بعض المقطوعات) بهذا السند . ثم قال «وبالسند المذكور إجازة له يمدح رسول الله صلى الله عليه وسلم قال» يا سائرا . . . إلخ . وقد أورد منها ستة وعشرين بيتاً فقط ، إذ حذف من ثناياها ومن آخرها الباقى خشية الإطالة . وذكرها ابن شاكر الكتبى فى كتابه فوات الوفيات الجزء الثانى . مطبعة بولاق بالقاهرة سنة ١٢٨٣ هـ (انظر ص ٣٠٥ و ص ٣١٠) فقال «وقال يمدح رسول الله صلى الله عليه وسلم» يا سايرا . . . إلخ وقد أورد منها ١٧ بيتاً فقط . وذكرها أبوالمحاسن يوسف بن تغرى بردى فى الجزء الثالث من المنهل الصافى تاريخ ١١١٣ خصوصية (من ظهر ورقة ٢١٨ إلى ٢٢١ مخطوط بقلم معتاد) فقال ومن شعره قصيدته المشهورة فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم وهى طويلة جداً . أذكر منها بعضها . وذكر ستة فقط .

(٢) فى رفع الإصر بلفظ (تترع) بتاءين فوقيتين . وعبارة الأصل أقوم . فقد ورد فى المحيط قوله فى مادة (درع) ادرعت لبست الدرع . والرجل لبس درع الحديد (كتدرع) وورد فى مادة (ترع) تترع به إلى الشر (تسرع) واترع كافتعل (امتلأ) وهذا لا يناسب المقام .

(٣) أورده فى رفع الإصر بلفظ (العلا) ورواية الأصل أنسب لأن الندى هو أكثر ما يقصد إليه .

(٤) فى رفع الإصر بلفظ (مسفراً) ولفظ الأصل أليق بالمقام لما فيه من مغايرة المعنى فى اللفظين . وتكراره فى (مسفرا) رواية رفع الأصر . فى القاموس فى (سفر) بمعنى أشرق وأضاء . وفى (قمر) القمر فى الليلة الثالثة ، والقمراء ضوءه ، وطائر ، وليلة فيها القمر كالمقمرة ، ووجه أقمر شبه به .

وإذا سهرت الليلَ فى طلب العلا | فحذارِ ثم حَذارِ من خدْع الكرى
إن كلت النجبُ الركائبُ تارةً[١] | فأعِدْ لها ذكر الحبيب مُكررا
وابعثْ[٢] لها سرّ المُدام فإنهـا | بالذكرِ لا تنفكُّ حتى تسكرا
وإذا اختفتْ طُرقُ المسير وظلّ مِن أشكالِها نظرُ البصير محيرا
فالقصدُ حيثُ النورُ يشرق ساطعًا | والطرق حيثْ ترى الثرى مُتعَطرا[٣]
قف[٤] بالمنازل والمناهِل من لدُنْ | وادى قباءَ إلى حِمى أمِّ القرى
وتوخ[٥] آثارَ النبى فضعْ بِها | مُتشرفًا خدّيكَ فى عفْرِ الثرى
وإذا رأيتَ مهابِطَ الوحيِ التى | نشرتْ على الآفاق نورًا نوّرا
فاعلمْ بأنّكَ ما رأيتَ شبيهها | مُذْ كنتَ فى ماضىَ الزمان ولا يرى[٦]
شرفًا لأمكنة تنزّلَ بينها[٧] | جبريلُ عن رب السماء مُخبّرا
فتأثرتْ عنهُ[٨] بأحسنِ بهجة | أفدى الجمالَ مُؤثّراً ومؤثرا[٩]

(١) هى فى رفع الإصر بلفظ (زاده) والأصل أصوب إذ لا يستقيم المعنى مع رواية رفع الإصر .

(٢) هى فى رفع الإصر بلفظ (وانعش لها سير المدام . . .) على خلاف الأصل . وهى لا يستقيم معها المعنى لأن مادة (نعش) كما فى القاموس لا يناسب معناها جو البيت ، هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن (السير) لا يتأتى من المدام . ولكن لها سر يأخذ بالألباب .

(٣) وردت هذه الشطرة فى المنهل الصافى بلفظ (والطرف حيث يرى الشرى متقطراً) وهى رواية لا يستقيم معها المعنى . ولعله تصحيف . كما أنه لم يوجد فى مادة (شرى) ما يتمشى مع المقام .

(٤) اتفق الرواة مع الأصل بتقديم (المنازل) على المناهل ما عدا الصفدى نفسه فقد قدم فى كتابه الوافى بالوفيات لفظ (المناهل) على (المنازل) .

(٥) فى رفع الإصر (بالفاء ، فتوخ) والأصل أسلم لغة لأن الفاء تفيد السببية والترتيب والتعقيب . وليس من ذلك شىء مقصود هنا .

(٦) هى فى جميع الروايات (ولا ترى) بالتاء لا بالياء . والأصل أبلغ لأنه يفيد نفى الرؤية من المخاطب وغيره فى الماضى والحاضر والمستقبل .

(٧) فى رفع الإصر بلفظ (يمنها) . والأصل أصوب لأن كلمة (يمن) لا تعطى المعنى المقصود .

(٨) هى فى رفع الإصر بلفظ (عنها) وهو تحريف . حيث لا مرجع لضمير التأنيث .

(٩) هى فى رفع الإصر بلفظ (مؤثراً وموتّراً) الأولى بالثاء . وفى الثانية بالتاء والأصل أنسب لأن مادة (وتر) لا تساعد على انسجام المعنى المراد .

فتردَّد المختارُ(١) بينَ بَعيدِها ... وقريبِها مُتَبدِّيًا مُتَحَضِّرَا(٢)
فتبرمتْ(٣) بجماله وتشرَّفتْ بجَـ ... ـلالِهَ ورَأتْ مَقَامًا أكْبَرَا
واسْتَوْدَعَتْ من سره ما كاد أنْ ... يُبدى لنا مَعْنَى الكمال مُصَوَّرَا
سرٌّ فهمنَا كنههُ لَم يَشْتَبهْ ... فنشكَّ فيه ولم يهن(٤) فَيُفَسَّرَا
اللهُ أكْبَرُ مَا أعزَّ جَنَابَهَ ... وأجلَّ رفعتَه عَلى كُلِ الورَى
ولقدْ أقولُ إذا الكواكبُ أشرَقَتْ ... وترفعتْ(٥) فى منتهىَ شرف الذرى
لا تفخرا(٦) زُهراً فإنَّ مُحَمَّداً ... أعلى عُلاً منهَا وأشرقُ(٧) جوهرَا
أحيي الإلهُ بِبعثِهِ سُنَنَ الهُدَى ... وأعادَ مِن عَهْدِ النُّبُوَّةِ أعْصُرَا
وأتى به والنَّاسُ فى ظُلَمِ الْعَمَى ... مُولى(٧) المعَارفُ والقلوب فأنشرا

---

(١) هى فى جميع الروايات بلفظ (المختار) بالخاء المعجمة وهى أصح من رواية الأصل التى هى بالحاء المهملة . ويؤيد ذلك أن التردد حيرة ، فكأنما كرر الشاعر الحيرة هذه هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن جو القصيدة يوحى بأن المقصود بالتردد هو تنقل النبى صلوات الله وسلامه عليه بين تلك الأمكنة . ومن أسمائه عليه السلام (المختار) .

(٢) وردت فى رفع الإصر بلفظ (متمصراً) وكلمة (متحضراً) أنسب لأن المقابلة غير تامة مع رواية رفع الإصر والمقابلة المعروفة هى بين الحضارة والبداوة .

(٣) فى رفع الإصر بلفظ (فتبرجت) وهى أصوب إذ التبرج معناه التزين وهو الأنسب للجمال هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن التبرم معناه الضجر وهو لا يناسب المقام .

(٤) هى هكذا فى الأصل . والأصوب أن تكون بلفظ (ولم يهم) بالميم لا بالنون لأن (لم يهن) لا تؤدى المعنى المراد .

(٥) وردت فى رفع الإصر بلفظ (فترفعت) بالفاء . والأصل أقوم لأنه لا محل للتعليل هنا .

(٦) فى رفع الإصر بلفظ (لا تفخرن زهراء) وفى فوات الوفيات (لا تفخرى زهواً) والأصح الأصل لأن الخطاب موجه لمجموعة الكواكب لا لكوكب خاص .

(٧) هى فى رفع الإصر ، وفى فوات الوفيات والوافى بالوفيات بلفظ (أشرف جوهراً) بالفاء لا بالقاف . والأصل أنسب لأن الأشراق يلائم الكواكب . وأيضاً فإن الشرف يكون قد كرر بلا فائدة إذ أن (أعلا علا منها) يعطيه .

(٨) هى هكذا فى الأصل ، وفى رفع الإصر بلفظ (موق المعارف) وهى أصح لاستقامة المعنى معها وفساده مع الأصل .

نِلنَا بِه [١] ما قد رأينا من عُلاً مع ما يؤمل [٢] في القيامة أنْ نرى [٣]
فَبِهِ المَلاَذُ تَقَدُّمًا وَتَأَخُّراً وَلَهُ الجَمِيلُ مُحَقَّقًا وَمقرَّرَا
لله مَا فِيهِ مِنَ الشرفِ الَّذِى أعيَا على حُسَّابِهِ أنْ يُحْصَرَا
فَسَعادَةٌ أزَلِيةٌ [٤] سَبَقتْ ومَا هوَ ثابتٌ أزلاً [٦] فلنْ يَتَغيرَا
وسيادَةٌ بارَى [٧] الأنامَ لَهَا وَلا سيما [٨] إذا قدموا عليها [٩] المحشرَا
وَزَهَادَةٌ مَا استَصْلَحَتْ شَيئًا من الدُّنيا لأنْ يُصغِى إليهِ ويَنظُرا
وجَلالَةٌ فى الخُلْقِ حتَّى أنَّهُ أثنى عليهَا [١٠] منَ بَراهُ وَصوَّرا
وطهارةٌ فى الخَلْقِ حتى إنَّهُ يندَى [١١] مع الأعرافِ مِسكًا أذْفَرَا

---

(١) هى فى الوافى بلفظ (فلنآبه) وفى رفع الإصر (بلسانه) والأصل أقوم لاستقامة المعنى وهو أولى .

(٢) هى فى فوات الوفيات والوافى ورفع الإصر بلفظ (نؤمل) بالنون والأصل أولى لأن المعنى يستقيم معه .

(٣) ذكرها فى رفع الإصر بلفظ (يرى) بالياء ، والمعنى مع الأصل سليم وهو أولى .

(٤) فى الوافى (أبدية) والأصل أنسب لموافقتها وملاءمتها (كلمة أزلية) فى عجز البيت

(٥) فى كل من الفوات ورفع الإصر بلفظ (سيقت) بالياء التحتية ولعله تصحيف للباء الموحدة .

(٦) فى رفع الإصر بلفظ (أولا فلا يتغيرا) والأصل أقوم لأن كلمة (أولا) لا تناسب كلمة (أزلية) فى صدر البيت من جهة ولما فيها من تكلف حذف حرف التضعيف من جهة أخرى . كما أن فى قوله (لا يتغيرا) خروج على القواعد النحوية .

(٧) فى الوافى والفوات (بارى الأنام بها) وفى رفع الإصر بلفظ (تأوى الأنام لها) وهى أنسب لأن كلمة (بارى) لا تخرج فى معناها اللغوى عن المعارضة . وهى لا تناسب مقام المديح

(٨) أسقطها كل من الوافى والفوات . وأثبتها رفع الإصر .

(٩) فى الوافى والفوات بلفظ (عليه) بتذكير الضمير ، وفى رفع الإصر كالأصل (عليها) بتأنيثه .

(١٠) فى رفع الإصر بلفظ (عليه) وهو على خلاف الظاهر من السياق لأن المقصود بالثناء هو جلالة الخلق وسموه ، هذا من جهة ؛ ومن جهة أخرى فإن تذكير الضمير يفقد البيت جمال الجرس .

(١١) فى رفع الإصر بلفظ (فى ملامع الأعراف مسكاً أوفرا) ولعله تصحيف إذ لا يتمشى معه المعنى .

وتجاوزٌ يُنسي العيوبَ تكرمًا ... ويُغادر الذنب الكبير مُحقرا

ومواهبٌ يأتي لها التأميلُ مُسْـ ... تقصًى[١] فيرجعُ[٢] عندَه مُستقصرًا

ومهابةٌ ملأ القلوبَ بهاؤُها ... واستنزلتْ كِبْرَ الملوك مُصغَّرًا

نزلَتْ على قدَم الزمان بتُبَّعٍ ... ودنَتْ على بُعد المزار بقيصرًا

ولربما هبَّ[٣] القتالُ فلوْ غدَتْ ... لليثِ نالَ بها الفريسةَ[٤] مُخْدَرًا

وبديعُ لُطفِ شمائل من دونها ... ماءُ الغمامةِ والنسيمِ إذا سرَى

مع سطوةٍ لله في يوم الوغَى ... تعنو[٦] لشدةِ بأسها أُسْدُ[٧] الشرى

متعادلُ الطرَفَيْن في طُرق العلا ... عدلاً وحاشاهُ بأن يَستَجْورا[٨]

لا يُنْكَرُ المعْرُوفُ من أخلاقه ... فإذا استبيحَ حمى الإلَه تنكَّرًا

عضبا[٩] لو أن البيض تدركُ كنهه ... دانتْ لها رعبًا[١٠] فسالتْ أنهُرًا

---

(١) هي هكذا في الأصل على صيغة اسم المفعول . والأليق بالمعنى المقصود من البيت أن تكون هذه الكلمة على صورة اسم الفاعل .

(٢) في رفع الإصر بلفظ (فرجع عندها منتصراً) وهو تصحيف لما فيه من غموض المعنى .

(٣) في الوافي ورفع الإصر بلفظ (كفت) وهي أصح من رواية الأصل لاستقامة المعنى معها وغموضه مع لفظ الأصل .

(٤) في رفع الإصر بلفظ (الفراسة مجدرا) وهو تصحيف ظاهر .

(٥) في رفع الإصر بلفظ (بمائل) وهو تصحيف أيضاً إذ لا معنى لكلمة (بمائل) هنا .

(٦) في رفع الإصر بلفظ (يعفو) ولعله تحريف إذ لا يوجد في مادة عفا ما يناسب المقام .

(٧) في رفع الإصر بلفظ (أشد السرى) وفي الوافي بلفظ (أسد الثرى) وهو تصحيف حيث أن كلا الروايتين لا تفيدان المعنى المقصود للشاعر وهو أن الرجال الصناديد الذين هم في قوة الأسد الضارية يقعون في الأسار مستسلمين لمهابته وصولته عليه الصلاة والسلام دون قتال . هذا والمأثور أن يقال (أسد الشرى) نسبة إلى مكان أو أمكنة بجزيرة العرب (انظر – مادة شرى) .

(٨) في رفع الإصر بلفظ (يتجورا) والأصل أصوب لأن كلمة (يتجور) لا تتمشى مع اللغة .

(٩) في رفع الإصر بلفظ (غضاً لو أن البعض يدرك كنهه . . وأنت لها رعباً فسالت أنهرا) وهو تصحيف ظاهر .

(١٠) الأصوب تذكير الضمير في (لها) لأن مرجعه هو النبي عليه الصلاة والسلام . ولعل ذلك وقع عفواً من الشيخ وتصحيفاً .

شوقِي لِقُرب جنانه[١] وصَحابه ... شوقًا[٢] يجل يسيرُه[٣] أن يذكرا

أفنى كنوزَ الصَّبر من إسرافه[٤] ... وجرى على الأحشاء منه ما جرى

إن لاح صُبحٌ كانَ وجدًا مقلقًا[٥] ... أو جن ليلٌ كانَ[٦] همًّا مسهرًا

لا وَاخذَ اللهُ الزمانَ فإنّـه ... أعيى[٧] مُرادى منهُ أنْ يتيسرًا

أرجو وصَالَ أحبتى فكأنّما ... أرجو المحَالَ وجُودَه المتعذرًا

وأسيرُ[٨] نحْو مقامهم حتى إذا ... شَارفتُ رؤيته رَجعتُ القَهقرَا

متلوّنا[٩] فى الحال والمتغير الأحوَا ... ل يلقَى شربَهُ متغيرا

يا خاتم الرُّسل الكرام نداءَ من ... وافى إليك مديحَه[١٠] مُستعذرًا

أنا ضَيفك المدعو يوم معادنا[١١] الـ ... ـمرجوّ فاجعل من قراى[١٢] الكوثرا

---

(١) هى فى الوافى ورفع الإصر بلفظ (جنابه) وهو أصوب .

(٢) هى فى رفع الإصر بلفظ (شوقى) بالإضافة إلى ياء المتكلم . وفى الوافى بلفظ (شوق) بالرفع ورواية الأصل أبلغ فى تصوير رغبة الشاعر لرؤية مقام النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه

(٣) فى رفع الإصر بلفظ (يحل بسيره) وفى الوافى والفوات بلفظ (يجل يسيره) كالأصل وعليه فما ورد فى رفع الإصر تصحيف .

(٤) فى الفوات بلفظ (إشراقه) وفى الوافى بلفظ (أشواقه) بالواو ورواية رفع الإصر كالأصل وهى أصح لأن الإسراف فى الشوق هو اللى أفنى كنوز الصبر .

(٥) فى الفوات بلفظ (كان وجد مقلق) بالرفع فيهما . والأصل أصح معنى ولغة ويؤيده رفع الإصر .

(٦) فى رفع الإصر بلفظ (ميّا) وتبين بعد الرجوع إلى المعاجم ألا أصل لها فى اللغة .

(٧) فى رفع الإصر بلفظ (أعيى) بالياء .

(٨) هذا البيت فى رفع الإصر هكذا :

وأسير نحو ما منهم حتى إذا ... سارفت روبته رجعت القهقرا

وهو بين التصحيف .

(٩) ورد فى رفع الإصر هكذا :

ملونًا فى الحال والمتغير الأحوا ... ل يلقى يسره متغيرا

وهو غير واضح المعنى ولعله تصحيف .

(١٠) فى رفع الإصر بلفظ(متعذرا)وهى أصح لغة من رواية الأصل التى لم ترد فى كتب اللغة .

(١١) هى فى رفع الإصر (معاديا) بالياء يعقبها ألف مقصورة . والأصل أجود لما فيه من التعميم . هذا على أن فى رواية رفع الإصر ضرورة شعرية سلمت منها رواية الأصل .

(١٢) فى رفع الإصر بلفظ (قرى) بتنوين المقصور . ولفظ الأصل وقع جرسا وأوضح معنى .

وقال يمدحه صلى الله عليه وسلم (١)

خفيف

شرَفُ المُصْطفَى رفيعٌ عمادُه ... ليس يُحْصَى بكثرة تَعْدَادُه
لاح للمهتدين منه سراجٌ ... بيَد الله قَدْحُهُ وزنَادُه
وبدا لِلْغَاوينَ سَيفَ انتقامٍ ... مستحيلٌ عليهمُ إغمادُه
بَعْثُهُ بَعْثُ كل خَير وميلا ... دُ الهدى والتقَى مَعًا ميلادُه
فالمعالى (٢) لِذاتِه وعُلومُ الغَيْـ ... ـبِ لَذاتُه ومنها مدادُه
وله فى صفَاتِه وَمزَايَاهُ كَمَالٌ ... تَشْجَى (٣) بِه حَسَّادُهْ
لا ينالُ العدوُّ منها ولا يقـ ... ـدَحُ فيها عُتُوُّه وعتَادُه
بَهرَتْ كُلَّ منْ رآها كمالاً ... وأقرتْ بِفَضْلِهَا أضْدَادُه
ثَابتُ الجأش طَاهرُ النفْس ... سَمْحُ الطَّبع فى البذل الجزيل جواده
جامِلُ الكل وَافرُ الفضْلِ وا ... فى العدلَ هَنِىٌّ المرامِ سَهْلٌ قياده
أبْطَحِىٌّ له منَ النَّسب الوافـر ... فخرٌ تنمَّى (٤) به أجْدَادُه
وله فوقَ فخرِهمْ منْ مساعيه طريـ ... ـقٌ لا يدَّعيه تِلادُهْ
وبه قدْ تَدَارَكَ اللهُ أهلَ الـ ... أرْضِ لما طَغَى علَيْهَا عِبادُهْ
وغَدَا فيهمو لإبْليس سُوقٌ ... قائمٌ بَيْنَهمْ بعيدٌ كسادُهْ
وضلالٌ لوْ أنَّهُ لاحَ للأعْيُنُ غَـ ... ـطى وجهَ الصباح سوادُهْ
فأتَاهُمْ نُورٌ مُبينٌ ودينٌ ... واضحٌ حَقُّهُ جَلِىٌّ سَدَادُه
جَاءَ مِن عندِ ربه بِكتاب ... مُحْكَمِ النَّظْمِ كامل إرشَادُهْ

---

(١) لم يذكر هذه القصيدة كلها ، بل ولا بعضها أى من المصادر التى هى بين أيدينا والتى اعتمدنا عليها فى إخراج هذا الديوان .

(٢) رأينا ضبط الكلمتين المتجانستين دفعاً للإيهام .

(٣) مضارع شجى . فقد ورد فى القاموس والشجا ما اعترض فى الحلق من عظم ونحوه شجى به كرضى شجى .

(٤) ورد فى القاموس قوله (فى مادة نمى) وانتمى إليه انتسب . والبازى ارتفع من موضعه إلى آخره كتنمى .

هو غَضٌ علَى الزَّمانِ لَذيذٌ ... دَرْسُهُ لا يَمَلّه تَـرْدَادُهْ
أعْجزَ العَالَمينَ طُرًّا ومَنْ غا ... لَبَ بَحْراً وَدَتْ به أطْـوادُه
سُخرَ الكَوْنُ لِلرَّسُولِ فَأبْدَى ... صَامِتٌ نُطْقَه وحَيًّا جَمادُه[1]
وله الجذعُ حَـنَّ لما شَجَاهُ ... بُعْدَ قرب المزارِ مِنْهُ بعادُه
وأجابَ استِدعاهُ الشَّجَرُ المنفا ... دُ طَوْعًا لمَّا أريد انقِيادُه
وأتى بانْشِقَاقِ بَدْرِ الدَّيَاجِي ... خَبَرٌ عَنْهُ ثَابِتٌ إسْنَـادُهْ
كَثُرَت مُعْجِزاتُ أحمدَ حتَى ... صَارَ خرقُ العادات فيها اعتيادُه
هيَ كالدُّرِ فى الغنا إنْ يُؤلَف كا ... نَ فَضْلاً أوْ لاا كْتَفَتْ آحَادُهْ
ثُمَّ لوْ لمْ يكنْ لَكَانَ دَليلاً ... وَاضحًا حُسْنُ شرْعِه واعتِقَادُهْ
وَيقِينًا بِاللهِ حَقًّا فَلا تَلْقَا ... هُ إلا عَلَىَ الإلَه اعتِمَـادُهْ
وَعُلُومٌ لمْ يدرها قومهُ قبل وحْـ ... كَمٌ لا تَقْتَضِيه بِـلادُهْ
وَعِبَادَاتُه التى لمْ يَحُلْ عَنهَا ... ملالاً وَطَالَ فيهَا اجْتِهَـادُهْ
سعدَت منهُ أنجمُ الليل بالصحبة ... اشْتَكَى الفِراقَ وسَادُهْ[2]
تعبٌ لِلجسوم يبذلِهُ اللهُ مـ ... نْ رَاحَةِ المَعَادِ مُـرَادُهْ
يا رَسولَ المليكِ دعوة مَنْ ... زَادَ بِه شَوْقهُ وصَحَّ ودادُهْ
لكَ أشكُو حالاً من الدين والدنْـ ... يا شديدٌ غُلُوّهُ واقْتِصَـادُهْ
هوَ حَدٌّ بَيْنَ السرور وَبَيْنِى ... كَدَّرَ العَيْشَ عَكْسُه واطرادُهْ
وعليكَ السلامُ من ذى اشتياق ... أنتَ فى الحشر كَنْزُهُ وَعَتَادُهْ

---

(١) يشير فى هذه الأبيات إلى ما جرى على يد النبى صلى الله عليه وسلم من المعجزات والخوارق للعادات . ومن ذلك نطق الحصى فى كفه . وحنين الجذع إليه . وغيرها وفى البيت (سخر الكون . . . إلخ) يبدو فيه ضعف الأسلوب ، وثقل التركيب .

(٢) فى هذا البيت ركاكة فى الترتيب وتكلف فى التركيب .

وقال رحمه الله تعالى فى مخمس [١]

طويل

ذروا فى السَّرى نحو الجناب [٢] الممنَّعِ   لذيذَ الكرى واجفُوا له [٣] كل مضجع
وأهدوا إذا جئتم إلى خير مرْبع   تحيةَ مضنًّى هائم القلبِ موجَع
سريع إلى داعِى الصَّبابة طَيِّعِ [٤]

يَقُومُ بِأحكَام الهوَى ويُقيمها   فكمْ ليلة قدْ نازلتهُ همُومُها
فسَامَرَها [٥] حتى تولَّتْ نجومُها   لهُ فِكرةٌ فيمَنْ يُحبُّ نديمها [٦]
وطَرْفٌ إلىَ اللقيا كثير التَّطَلّع

وكمْ ذَاقَ فى أحوَالِه طَعم محنة   وكمْ عاذَ مِنهُ من مواقف فِتنة

---

(١) ذكر هذا المخمس الشيخ تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن تقى الدين السبكى (رضى الله عنه) فى كتابه طبقات الشافعية الكبرى فقال (انظر جـ ٦ ص ٦ المطبعة الحسينية بالقاهرة) . وقال بقية المجتهدين أبو الفتح القشيرى « ذروا فى السرى . . . الخ » .

كما ذكره أيضاً ابن شاكر الكتبى فى كتابه فوات الوفيات فقال (انظر جـ ٢ من ص ٣٠٥ إلى ص ٣١٠ . مطبعة بولاق بالقاهرة سنة ١٢٨٣ هـ) وقال أيضاً رحمه الله تعالى (يعنى ابن دقيق العيد) ذروا فى السرى . . . الخ . وقد أسقط من هذا المخمس مقطعين هما الرابع عشر والسادس عشر .

(٢) فى طبقات السبكى بلفظ (الجهاد) وهو تصحيف لأنه لا يتفق مع المعنى المراد .

(٣) هى فى طبقات السبكى بلفظ (يهوى) والأصل أصوب لأن كلمة (يهوى) لا تناسب المقام .

(٤) فى طبقات السبكى بلفظ (تبع) وهو واضح التحريف .

(٥) هى بلفظ (يسامرها) فى طبقات السبكى والأصل أقوم لأن ذلك فى صدد الإخبار عن المتيم بالنبى صلى الله عليه وسلم .

(٦) فى فوات الوفيات بلفظ (يحب يديمها) وفى طبقات السبكى بلفظ (يجيب نديمها) والأصل أسلم من كلا الروايتين ؛ أما الأولى فلما فيها من توالى فعلين . كما أن المسامرة فى صدر البيت يناسبها كلمة (نديم) كما فى الأصل . أما الثانية فلأنه لا معنى لكلمة (يجيب) هنا . ولعله تصحيف لكلمة يحب .

وكم (١) أنَّةٍ يأتى بها بعدَ أنَّةٍ تنمُّ علَى سر لهُ فى أكنَّة
وتُخبِرُ عَنْ قَلْب لَهُ مُتَقَطِّع

نعىَ (٢) صَبْرَهُ شَوْقٌ أقامَ ملازما وحبٌّ (٣) يحاشى أن يطيعَ اللوائما
وجفنٌ ترى (٤) أنْ لايرى الدهر نائما وعقلٌ ثوىَ فى سكرة الحب دائما
وَأقسَمَ أن لا يَسْتَفِيقَ وَلا يَعِي

أقامَ علَى بُعْد المزَار مُتَيَّماً وَأبكاهُ برقٌ بالحجاز تَبَسَّمَا (٥)
وشوَّقه (٦) أحبابَهُ نَظَرُ الحمى دَعوهُ لأمْر دُونَه تَقْطر الدما
فَيَاوَيْحَ (٧) نَفْس الصب مَا لَه دُعِي

---

(١) فى طبقات السبكى بلفظ

وكم آية يأتى بها بعد آية تنم على أسئولة فى أكنة
ونحن على قلب لها متقطع

وهى رواية لا تؤدى الغرض فى هذا المقطع فإن القصد منه تصوير الآلام كما يشعر به قوله (وكم ذاق فى أحواله طعم محنة) هذا على أنه لم يرد فى اللغة فى مادة (سول وسال وسيل) صيغة أسئولة على الإطلاق . كما أن قوله (ونحن على قلب له متقطع) غامض التركيب غريب المعنى .

(٢) فى طبقات السبكى بلفظ (وفى صدره) ورواية الأصل أبلغ لإفادتها فناء الصبر لشدة الشوق .

(٣) هى فى الطبقات أيضاً بلفظ (وحيث يحاشا أن تطيع اللوائما) وهو واضح التحريف إذ لا يصح معه المعنى .

(٤) فى الفوات بلفظ (يرى) بالياء . وفى الطبقات بلفظ (نرى بالنون) والأصل أنسب من كلا الروايتين . أما الأولى فلسقم المعنى ، وأما الثانية فلعدم استقامته معها لأن المعلوم هو أن الشاعر يتحدث عن نفسه واصفاً حاله للغير ، وذلك إنما يقتضى الخطاب .

(٥) هى فى طبقات السبكى بلفظ (وإنكاره برق الحجاز تنسما) وهو تصحيف لأنه لا معنى لإنكار البرق من المحب ، من جهة . ولأن البرق لا يوصف لغة بالتنسم من جهة أخرى .

(٦) فى طبقات السبكى بلفظ (ومشوقه أحبابه بطر الحما) وهو واضح التصحيف .

(٧) فى الفوات بلفظ (ما ذاله دعى) وفى الطبقات بلفظ (ما زانه دعى) . ورواية الفوات أصح تمشياً مع اللغة .

له عندَ ذكرِ المُنْتَحَنا سَفْحُ عبرة وبين الرجا والخوف موقفُ عِبرةٍ [١]
فَحِينًا يُوافِيهِ النعيمُ بِنَظْرَة وحينًا ترى [٢] فى قلبه نار حسرة
يَجِيء [٣] إليه الموْت منْ كل مَوْضع

سَلامٌ علَى صَفْو الحيَاة وطِيبِهَا إذا لم تفز عيني [٤] بِلُقْيا حَبِيبِها
ولمْ تحظَ من إقباله بِنَصِيبِهَا وَلا استعطفته [٥] عَبرتِى بِصَبِيبِها
وَلا وَقَعَتْ شَكْوَاىَ منه بمَوْقِع

مُوكل طَرْفى بالسهَاد المُؤرّق وَمُجْرِىَ [٦] دَمْعِى كَالحيا المتدفّق
وملهبَ [٧] وَجدٍ فى فؤادى مُحَرّق بِعينَيْك ما يَلْقَى الفؤادُ وما لَقِى
وعِنْدَكَ مَا تَحوى وتُخْفِيه أضْلُعِى

أضرتْ [٨] بى البلوى وذو [٩] الحب مبتلى يعالجُ داءً بينَ جَنبيْه مُعْضِلا

---

(١) فى طبقات السبكى بلفظ (غيرة) ولا معنى للغيرة هنا .

(٢) فى الطبقات بلفظ (يرى) بالياء . والتأنيث أفصح .

(٣) فى الطبقات (تخبى له الموت فى كل موضع) ورواية الأصل أجود .

(٤) رواية الطبقات بلفظ (إذا لم تر عين المحب حبيبها) ورواية الأصل أقوم لملاءمتها روى هذا المقطع . ولأن التعبير بالفوز أبلغ من التعبير بالرؤية .

(٥) فى طبقات السبكى بلفظ (ولا أعطفته مقلتى بصيبها) وهو تبديل وتحريف واضح .

(٦) فى الطبقات (ويجرى أدمعى) وفى الفوات (مجرى دموعى) والأصل أصوب من رواية السبكى لأن اسم الفاعل مطرد فى أول شطرات المقطع لا فعلا مضارعاً كما هو تعبير السبكى الذى لا يستقيم معه المعنى ، هذا على أن كلمة (أدمعى) تخل بموسيقى البيت وأيضاً فإن الأصل أصوب من رواية الفوات لأنه جعل (مجرى) مرفوعاً على الابتداء ليستقيم الوزن مع كلمة (دموعى) وذلك يتنافى مع السياق المبنى على الخطاب والمناجاة .

(٧) فى الطبقات بلفظ (وملتهب) والأصل أصوب لأن المحب يتحدث عن أحاسيسه ومشاعره هو فحسب .

(٨) فى طبقات السبكى (أضر) بحذف التاء ، والتأنيث كما فى الأصل أفصح لغة وأحسن وقعاً .

(٩) فى فوات الوفيات بلفظ (وذا الحب) بالألف ، والأصل أصح إذ لا محل للنصب على المشهور .

وَيُثْقِلُه مِنْ وَجْده مَا تحملا وتبعثه[١] الشكوى فَيَشْتَاقُ منزلا
بِه يَتَلَقَّى رَاحَـةَ الْمُتَوَدِع

مقر[٢] الذى دلَّ الأنام بشرْعِه على أصل دين الله حَقًّا وَفرعِه
به انضم شمل الدين من بعد صدعه لنا مذْهبُ العشاق فى قَصْد رَبعه
نُقيمُ بِه رَسْمَ البُكَا والتَّضَرع

تحلُّ[٣] بِه الأنوارُ مِلءَ رحَابِه ومستودَعُ الأسرار عِند صحَابِه
هِدايةُ منْ يحتار[٤] تأميل بَابِه وتشريف منْ يختارُ قَصْدَ جنابِه
بِتَقْبِيلِه وَجْهَ[٥] الثرَّى المتَضوع

أقامَ لنا شرْعَ الهدَى وَمَنَارَهُ وَأَلْبَسَنَا ثَوْبَ التقَى وشِعَارَهُ
وجَنَّبَنَا جورَ العَمَى وَعِثَارَهُ سَقَى اللهُ عَهْدَ الهاشِمِيِّ وداره
سَحَابًا من الرضْوَان لَيْسَ بِمقلعِ

بنى العز للتوحيد[٦] من بعد هدِّه[٧] وَأَوْجَبَ ذُلَّ الْمُشْرِكينَ بِجِده

---

(١) فى الطبقات بلفظ (وتنعشه الشكوى ويشتاق منزلا) الأصل أكثر ملاءمة للمعنى من عبارة السبكى إذ أن الشكوى لا تنعش . ولعله تصحيف .

(٢) فى الطبقات بلفظ (محل) والأصل أروع وأوقع .

(٣) فى الطبقات (محل) بلفظ اسم الفاعل وهو لفظ غامض لتعقيد المعنى معه . هذا إن قرئت بضم الميم وكسر الحاء . أما إذا قرئت بفتحها فلا غموض فيه ، وفى الفوات كالأصل بفعل المضارعة . وهو يرجح للأصل .

(٤) فى طبقات السبكى بلفظ (تختارنا ملء بابه) وفى الفوات (يختار تأميل بابه) والأصل أنسب من الفوات . لأن الحيرة تناسب الهداية إذ الهداية إنما تلتمس عند الحيرة ؛ وهى أيضاً أصوب من رواية السبكى لأن المعنى لا يستقيم معها .

(٥) فى الطبقات (رحب) ولفظ الأصل أقوم إذ المألوف لغة قولنا قبل الثرى أو وجهه . ولم نسمع أو نقرأ مثل هذا التعبير الغريب .

(٦) فى طبقات السبكى (والتوحيد) بالواو والأصل أصوب لأن الذى هدم هو التوحيد بعد أن كان عزيزاً فى زمن إسماعيل وأبيه إبراهيم عليهما السلام .

(٧) فى الفوات بلفظ (هدمه) بزيادة الميم . والسبكى كالأصل وهو أبلغ . ففى القاموس (الهد) الهدم الشديد .

عزيزٌ قضَى رَبُّ السَّماء (١) بسعده وَأيّدَهُ عِنْدَ اللقَاء بِجُنْدِه
فَأوْرَدَهُ(٢) لِلنَّصر أعْذَبَ مشرَع

أقُولُ لِركْبِ سَائِرِينَ لِيثْرب ظَفِرتُم بِتَقْرِيبِ النَّبي المقَرَّب
فَبُثُوا إليْه كُلَّ شَكْوَى وَمتعب وَقُصُّوا عَلَيْه كُلَّ سُؤلٍ وَمَطْلَب
فَأنْتم (٣) بِمرْءى للرَّسُولِ ومَسْمَعِ

ستحمون(٤) فى مغناهُ غير (٥) حماية وتكفونَ ما تخشونَ أيَّ كفاية (٦)
وتبدو لـــكمْ منْ مجده(٧) كل آيَة فَحلو من التعظيم أبْعَدَ غَايَة
فَحَق رَسُول الله آكَدُ(٨) ما رُعى

أما والذى آتاهُ مَجْداً مُؤَثّـــلاً لقد كان كهفاً(٩) للعفاة ومعقلاً

---

(١) فى الطبقات (العباد) ولفظ (السماء) أخلق بعظمة الرب وجلاله .

(٢) فى الطبقات بلفظ (فأورد نصر الله أعذب مشرع) ولعله تصحيف إذ لا يفهم هذا التركيب إلا فى تكلف واعتساف .

(٣) فى طبقات السبكى بلفظ (وأنتم) بالواو ؛ والفاء فى الأصل أنسب لإفادتها السبب .

(٤) فى الطبقات بلفظ

سيحمون فى مغناه خير حماية ويكفون ما يخشون أى عماية
وتبدو لكم من عنده كل آية فحلوا من التعظيم أبعـــد غاية
فحق رسول الله أكبر ما رعى

وفى هذه الرواية يبدو الاضطراب فى الأسلوب بشكل يفسد المعنى .

(٥) فى السبكى بلفظ (خير) وهى أنسب وأروع من رواية الأصل لأن (غير) تفيد تعدد الحماية وهو غير مراد إذ المقصود تبيين مقدار الحماية وعظمها وأن كل حماية تلتمس فى غير كنف الرسول صلى الله عليه وسلم لا تبلغ المأمن المنشود .

(٦) هذا اللفظ أنسب للخشية من لفظ (عماية) فى رواية السبكى السابقة .

(٧) لفظ (مجده) أليق بالمقام من لفظ (عنده) فى تعبير السبكى المذكور .

(٨) رواية الأصل أنسب للمعنى من رواية السبكى فى قوله (أكبر) .

(٩) فى السبكى بلفظ (قام) والأصل أصوب لإفادة (كان) مطلق التوقيت ، ولعدم وضوح المعنى مع رواية (قام) فى رواية السبكى .

يبوِّئهمْ ستراً منَ الحِلمِ مسبِلا[١]   ويمطرهم غيثاً[٢] من الجود مُسبَلاَ
وَينزعُ [٣]فى إكرامِهِ كُلَّ منزعِ

تَعبنْنا[٤]بعيش ما هنا فى وروده   وضرٌّ ثقيل الوطء فيه شَديده
فرُحنْنَا إلىَ ربّ النَّدى وَعميده   وَلما قصدْناهُ وثِقنْنا بجُودهِ
ولَمْ نَخشَ رَيْبَ الحادثِ المُتوقّعِ

لقدْ[٥] شرّفَ الدُّنيا قدومُ محمد   وألْقى بها أنوارَ حقٍّ مُؤيَّدِ
تَزينُ بهِ وُرّاثهُ كلَّ مَشهَدِ   فهُمْ بيْنَ هَادٍ للأَنام ومهتدِ
ومَنْبِتُ أصْلٍ فى الهُدَى ومُفرّعِ

---

(١) فى الفوات (مسدلا) بالدال وهما بمعنى .

(٢) فى الطبقات بلفظ (ويمطرهم عيناً من الجود سلسلا) ورواية الأصل أفصح وأوفى بالغرض من كلمة (عين) لأن استعمالها فى هذا المعنى قليل وغير شائع من جهة ، ولأنها تطلق فقط على السحاب الآتى من جهة القبلة أو من قبلة العراق أو عن يمينها من جهة أخرى ؛ على أن الغيث كما هو فى الأصل أرق لفظاً وأعم فائدة وأشمل معنى ، ومن يتتبع (غوث أو غيث) فى اللغة يجدها أكثر ملاءمة فى هذا المقام . والأصل أليق كذلك وأنسب من (سلسلا) فى رواية السبكى لأن معناه الماء العذب أو البارد فقط وهو وإن جمل ؛ فيه قصور بخلاف كلمة (مسبلا) كما فى الأصل . فهى أعم وأشمل لما فيها من إصباغ لنعمة الهدى وسعة الكرم .

(٣) فى الطبقات بلفظ (ويسرع فى إكرامهم كل مسرع) وعبارة الأصل أبلغ لما فيها من الدلالة على عظم كرم الرسول صلى الله عليه وسلم إذ هو يذهب فى الإكرام كل مذهب . بخلاف عبارة السبكى فإنها تفيد مجرد سرعته صلى الله عليه وسلم إلى الإكرام فقط .

(٤) فى طبقات السبكى هكذا

بقينا بعيش ما هنا فى وروده   وصبر ثقيل الوطء فيه صديده
فرحنا إلى رب البرا وعميده   ولما قصدناه وقفنا نجوده
ولم نخش ريب الحادث المتوقع

ورواية السبكى هذه يظهر فيها الغموض والاضطراب لما فيها من تحريف وتبديل .

(٥) فى طبقات السبكى هكذا

لقد شرف الدنيا قدوم محمد   وأبقى لها أنوار حق مؤيد
ندين به وادانه كل مشهد   فهو بين هاد للأنام ومهتد
مثبت أصل للهدى ومفرع

والمعنى فى هذه الرواية غير مترابط ولا مستقيم ولعل ذلك راجع إلى ما فيها من تغيير وتصحيف .

سَلاَمٌ عَلَى مَنْ شرَّفَ اللهُ قَدْرَهُ سَلاَمَ مُحِبٍ عمَّر الدهر[1] سِرَّهُ
له مطلبٌ أفنى تَمَنيه[2] عُمْرَهُ وحَاجَاتُ نفس لا تجاوز[3] صدره
أعَدّ لها جَاه الشَّفِيع الْمشَفَّعِ

وله رحمه الله[4] :

---

(١) هى فى طبقات السبكى (عمر الحب) ورواية السبكى أولى هنا ، لتلاؤمها مع المعنى ؛ على خلاف الأصل .

(٢) فى الطبقات بلفظ (يمنيه) بالياء والأصل أصح لسلامة المعنى معه ولعدم مساعدة اللغة أيضاً فى رواية السبكى .

(٣) فى طبقات السبكى بلفظ (صده) بحذف الراء . وهو تصحيف لاختلال المعنى معه .

(٤) ذكر هذه المقطوعة العلامة كمال الدين أبو الفضل جعفر بن ثعلب بن جعفر الإدفوى فى كتابه المسمى بالطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد . فقال (انظر ص ٣٣٢ من الكتاب المذكور — مطبعة الجمالية بحارة الروم بالقاهرة ١٣٣٢ هـ — ١٩١١ م) ومن مشهور شعره قوله الذى أنشدنيه أقضى القضاة شمس الدين بن القماح . قال أنشدنا الشيخ تقى الدين لنفسه قوله (يهيم . . . الخ) .

وذكرها العلامة تقى الدين أحمد بن على المقريزى فى كتابه المقفى (انظر لوحة ١٦٥ إلى ١٧٢ من النسخة المصورة عن المخطوطة بمكتبة باريس رقم ٥٣٧٢ رمز تاريخ بدار الكتب) فقال نقلا عن فتح الدين محمد بن سيد الناس اليعمرى . وقال (يهيم قلبى . . . الخ .)

وذكرها فى فوات الوفيات (انظر المرجع السابق) فقال ومن شعره رحمه الله تعالى (تهيم نفسى)

وذكرها ابن فضل الله العمرى فى كتابه (مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار — انظر القسم الثالث من الجزء الثالث ورقة ٤٣٣ ص ٤٤٠ من النسخة المصورة تحت رقم ٥٥٩ معارف عامة بدار الكتب) فقال ومنه قوله (وتهيم نفسى . . . الخ) .

وذكرها الوافى بالوفيات (انظر المرجع السابق) فقال وبالسند المذكور له إجازة (يعنى قوله أنشدنى من لفظه الشيخ فتح الدين محمد بن سيد الناس . قال أنشدنى شيخنا تقى الدين ابن دقيق العيد لنفسه) . قال (تهيم نفسى . . . الخ) .

وذكرها فى أعيان العصر وأعوان النصر (انظر ج ٦ ، مجلد أول من ٨١ إلى ١٠٢ من المصورة رقم ١٠٩١ تاريخ بدار الكتب عن الأصل المخطوط المحفوظ بمكتبة عاشر أفندى بالإستانة) فقال ومن شعره ، ثم أوردها بتقديم الثالث فالرابع ثم الأول فالثانى على خلاف ما فى الأصل .

سريع

تهيم[١] نفسي طرباً عندما[٢] أستملح[٣] البرق الحجازيا

ويستخف الوجد عقلي[٤] وقد أصبح[٥] لي حسن الحجى[٦] زيا

ياهل[٧] أقضي حاجتي من منى وأنحر البزل[٨] المهاريا

---

(١) فى الطالع والمقفى بلفظ (يهيم قلبى) وفى غيرهما (تهيم نفسى) كالأصل . وهو أرق فى التعبير وأدق فى التصوير ، لما فى هذه الرواية من تفنن بالتغيير فى الكلمات ، والتنويع فى المعانى . ورواية المقفى والطالع لما يلزم عليها من تكرار اللفظ الواحد وهو (قلب) فى صدر البيت الأول والثانى هذا على أن الطرب إنما يناسب النفس لا القلب .

(٢) فى أعيان العصر والوافى بلفظ (كلما) وفى غيرهما بلفظ (عندما) كالأصل وهو أنسب لأنه أوغل فى الظرفية .

(٣) فى الطالع والوافى والأعيان بلفظ (استلمح) بتقديم اللام على الميم ، وفى الباقى بالعكس كالأصل والذى يؤدى الغرض . هى رواية (استلمح) بتأخير الميم على اللام . من لمح البرق إذا شاهده لحظة . أعنى أن رؤية البرق هى سبب هيامه وليس الاستملاح . اللهم إلا أن يقال إن (استملح) هى (استلمح) ولكن دخلها القلب كما هى عادة المصريين فى كثير من ألفاظهم .

(٤) فى الطالع والمقفى بلفظ (قلبى) وفى غيرهما بلفظ (عقلى) كالأصل . وهو أسلم لأن الاستخفاف يناسب العقل .

(٥) رواها صاحب الأعيان والفوات بلفظ (لبست أثواب . . . إلخ . وفى الوافى بلفظ (لبست الثواب) ورواها الباقى كالأصل .

(٦) هى فى جميع المراجع بالياء المقصورة التى تشعر بأن المقصود بكلمة (الحجى) العقل وذلك فيما عدا رواية الوافى فإنها جاءت فيه بالألف التى تشعر بأنها تكون مع ما بعدها كلمة واحدة وهى النسبة إلى الحجاز . وعلى هذه الرواية يلزم عليه تكرار القافية بكلمة واحدة وأيضاً يفقد البيت ما فيه من روعة الجناس هذا على أن كلمة (الثواب) تكسب المعنى غموضاً ولعلها تصحيف (أثواب) .

(٧) فى الأعيان والمسالك بلفظ (يا أهل) وفى غيرهما كالأصل بلفظ (ياهل) وهو جار على أسلوب التمنى ، بخلاف (يا أهل) فإن التمنى فيها لا يبدوا واضحاً ؛ الأمر الذى يجعلنا نرجع رواية الأصل .

(٨) فى الطالع (البدن) والمسالك (النزل) والمقفى والوافى (البذل) وفى غيرها (البزل) كالأصل وهو أولى لسلامة المعنى معه .

فأرتوى(١) من زَمزَم فهى(٢) لى ألَذُّ(٣) مِن رِيق المَهارِيَا

وقال أيضاً (٤) :

وافر

عطيّتُهُ إذا أعطَى سرُورٌ فإنْ سَلبَ الذى أعطَى أثَابَا
فأىُّ النِّعْمَيَيْن(٥) أعَدُّ فَضْلاً وَأحْمَدُ عِنْدَ عُقْباها إيَابَا
أنِعْمتُهُ الّتى كَانَتْ سرُوراً أمْ الأُخْرَى التى جَلَبَتْ(٦) ثوابا

وله تغمده الله برحمته (٧) :

---

(١) فى الطالع والمسالك والمقفى والأعيان (وأرتوى) وهى أصح من رواية الفاء كما فى الأصل والوافى والفوات ، إذ لا سببية ولا تفريع هنا .

(٢) فى المقفى بلفظ (فهو لى) وفى غيره كالأصل بلفظ (فهى لى) .

(٣) فى الفوات بلفظ (أرق من ريق) وغيره كالأصل بلفظ (ألذ) وهو ألطف وأنسب من رواية (أرق) لما يلزم عليها من تنافر فى الكلمات .

(٤) ذكرها ابن شاكر الكتبى فى كتابه فوات الوفيات (انظر المرجع السابق) فقال : وقال أيضاً سامحه الله (يريد ابن دقيق العيد) عطيته ... إلخ .

وذكرها الصفدى فى كتابه الوافى بالوفيات (انظر المرجع السابق) فقال « وبالسند المذكور له أيضاً (يعنى قوله أنشدنى من لفظه الشيخ فتح الدين محمد بن سيد الناس قال أنشدنى شيخنا تقى الدين ابن دقيق العيد لنفسه » قال «فقال» عطيته ... إلخ .

(٥) فى الوافى والفوات بلفظ (النعمتين) ولفظ الأصل أروع وأوقع فى النفس .

(٦) فى الفوات بلفظ (جلت) والوافى كالأصل (جلبت) وهى أدق وأوفى بالغرض .

(٧) ذكر هذه القطعة العلامة الاسنوى فى كتابه طبقات الشافعية (انظر ورقة ١١٤ إلى ورقة ١١٦ نسخة مخطوطة بقلم معتاد بدار الكتب تحت رقم ٤٨١ تاريخ تيمور) فقال وله أيضاً شعر بليغ دقيق . ومن شعره (يعنى ابن دقيق العيد) تمنيت ... الخ وذكرها الصفدى فى كتابه الوافى (انظر المرجع السابق) فقال « وبالسند المذكور له أيضاً (يعنى السند الذى ذكرناه آنفاً) تمنيت ... الخ .

وذكرها فى الفوات فقال « وقال أيضاً سامحه الله تعالى :-تمنيت ... »

وذكرها الإدفوى فى كتابه الطالع ص ٣٣٣ فقال « ووجدت بخط شيخنا تاج الدين بن الدشناوى أنشدنى الشيخ تقى الدين لنفسه قوله : تمنيت ... »

وذكرها السبكى فى طبقاته ص ٥ (انظر المرجع السابق) فقال أنشدنا أبو عبد الله الحافظ بقراءتى عليه أنشدنا شيخ الإسلام تقى الدين لنفسه إجازة : تمنيت ... إلخ .

طويل

تمنيت أن الشَّيْبَ عاجَلَ لِمَّتى ... وَقَرَّبَ مِنى فى صباىَ[١] مَزَارَهُ
لآخُذَ[٢] منْ عصر الشباب نشاطهُ ... وآخذَ منْ عصر المشيب وَقَارَهُ

وله أيضًا رحمة الله عليه[٣] :

كامل

يا مُنْيَتِى أملِى بِبَابكَ وَاقفٌ ... والجودُ يأبَى أنْ يَكُونَ مُضَاعَا
أشْكُو إليْكَ صَبَابَةً قَد أترعتْ ... لى فى الهوى[٤] كأسَ النوَى إتراعَا
ونزاعَ[٥] شوْق لمْ تزلْ أيدى النوى ... تَنْمى بهِ حتّى استحالَ نِزاعا[٦]
لمْ يبقَ لى أملٌ سواكَ فانْ يفتَ[٧] ... وَدَّعتُ أيامَ الحيَاة ودَاعَا
لا أستلذ[٨] لغير[٩] وجهكَ منظراً[١٠] ... وسوَى حديثكَ لا أريدُ سماعا[١١]

(١) فى الوافى بلفظ (حياتى) وفى غيره كالأصل بلفظ (صباى) وهو أروع وأنسب .
(٢) فى الفوات بلفظ (فآخذ) وفى غيره كالأصل باللام وهو أنسب لافادتها التعليل بذاتها مباشرة .
(٣) ذكرها السبكى فى طبقاته ص ١٢ فقال «وقال يا منيتى ... الخ» .
وذكرها فى الوافى فقال «وبالسند المذكور من أبيات (يعنى الذى أسلفنا ذكره)» لم يبقى لى أمل ... الخ وأسقط الأبيات الثلاث الأول .
وذكرها فى الفوات فقال «وقال يمدح رسول الله صلى الله عليه وسلم» . لم يبق ... ففعل كسابقه .
وذكرها فى أعيان العصر فقال : ومنه (أى شعر ابن دقيق العيد) لم يبق لى ... إلخ فاقتصر على الرابع والخامس كما فعل فى الوافى .
(٤) هى فى طبقات السبكى بلفظ (لى كأس وجد فى الهوى إترعا) ورواية الأصل أرق وأسلس .
(٥) فى طبقات السبكى بلفظ (وفراغ) وهو تصحيف .
(٦) فى الطبقات بلفظ (تراعا) ولا يكاد يبدو له معنى ولعله تحريف .
(٧) فى الطبقات والأعيان بلفظ (تفت) بالفاء وفى غيرهما كالأصل بالياء وهو أصح من رواية التاء وأبين معنى .
(٨) فى الطبقات للسبكى بلفظ (لم أستلذ) وفى غيره (لا أستلذ) كالأصل وهى أرق وأبلغ من رواية السبكى ، إذ هى تنفى التلذذ فى الماضى فقط ، زيادة على ما بها من ثقل .
(٩) هى فى طبقات السبكى (بغير وجهك) وفى غيره كالأصل باللام .
(١٠) هى فى غير الأصل بالنصب ، وفى الأصل بالرفع ولا وجه له لغة .
(١١) فى الطبقات بلفظ (لا أحب) وفى غيره (لا أريد) كالأصل .

وله دوبيت(١) :

الجسمُ(٢) تذيبهُ(٣) حقُوقُ الخِدمهْ والقلبُ(٤) عذابُهُ علو الهِمَّهْ
والعمْرُ بِذاكَ ينقضى فى تعَب والرَّاحةُ(٥) ماتتْ فعلَيْها الرَّحمهْ

وقال أيضاً(٦) :

كامل

أتعبْتَ نفسكَ بينَ ذلة كادح(٧) طلبَ الحياةَ وبيْنَ حِرص مؤمِّلِ

---

(١) ذكرها الصفدى فى كتابه الوافى فقال وبالسند المذكور له أيضاً دوبيت (يعنى السند الذى ذكرناه) الجسم تدنيه . . . إلخ .

وذكرها أيضاً فى الأعيان فقال « أنشدنى الشيخ شمس الدين بن نباتة المصرى من لفظه قال أنشدنا الشيخ تقى الدين لنفسه » (والجسم . . . إلخ) .

وذكرها فى الفوات فقال « وقال أيضاً رحمه الله تعالى دوبيت الجسم . . . إلخ .

وذكرها أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى فى كتابه المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى (انظر المرجع السابق) فقال وله أيضاً دوبيت (يعنى ابن دقيق العيد) الجسم . . . الخ .

(٢) رواه فى الأعيان (والجسم) بزيادة الواو وهى زيادة لا مبرر لها .

(٣) فى الوافى والمنهل الصافى بلفظ (تدنيه) وفى الفوات والأعيان بلفظ (تذيبه) كالأصل وهو الأصح لأن معنى (تدنيه) تقربه . وهو معنى يأباه السياق .

(٤) فى الأعيان والوافى والمنهل الصافى بلفظ (والنفس هلاكها) وفى الفوات (والقلب عذابه) كالأصل . وهو أصوب إذ ينسجم فى معناه مع البيت الثانى الذى يفيد ملازمة التعب للحياة بخلاف رواية (والنفس هلاكها) فإنها تناقضه لأن الهلاك هو الموت .

(٥) فى الفوات بلفظ (الرحمة) وفى غيره (الراحة) كالأصل ولعل لفظ الرحمة تصحيف .

(٦) ذكر القطعة الصفدى فى كتابه أعيان العصر فقال « وأنشدنى الشيخ شمس الدين محمد بن محمد بن نباتة المصرى ، قال أنشدنا من لفظه لنفسه الشيخ تقى الدين بن دقية العيد . أتعبت نفسك . . . إلخ .

وذكرها فى الوافى فقال « وأنشانى الشيخ شمس الدين محمد بن محمد بن نباتة قال أنشدنى الشيخ تقى الدين لنفسه . أتعبت . . . إلخ .

ورواها فى الفوات فقال . وقال أيضاً رحمه الله وعفا عنه : « أتعبت نفسك . . . إلخ » .

وأوردها السبكى فى طبقاته (انظر ص ٥ من المرجع السابق) فقال . وله (أى ابن دقيق العيد) أتعبت نفسك . . . الخ .

ورواها العلامة الإسنوى فى طبقاته فقال : ومنه « أتعبت نفسك . . . إلخ .

(٧) رواها صاحب الفوات بلفظ (لذة) ولعله تصحيف .

وأضَعتَ عُمْرَكَ[١] لا خلاعة ماجن   حَصَّلتَ فيه ولا وقارَ مُبَجَّل
وتركتَ حظَّ النفس فى الدنيا وفى الـْ   أخرَى ورحتَ عن الجميع بمعزل

وقال أيضاً[٢] :

طويل

لعمرى[٣] لقدْ قاسيتُ بالفقر[٤] شدة   وقعتُ بها فى حَيْرة وشَتَات
فإنْ بحتُ بالشكوى هتكتُ مروءَتى[٥]   وإنْ لمْ أبحْ بالصَّبر خفتُ مَمَاتى
فأعظِمْ[٦] بهِ مِنْ نَازل بِمُلِمَّة   يُزيلُ حَيائى أوْ يُزيلُ حَيَاتِى

---

(١) أوردها فى الفوات والوافى وكذلك طبقات السبكى وطبقات الإسنوى بلفظ (نفسك) وفى الأعيان بلفظ (عمرك) كالأصل . وهو أصوب . إذ لا يعقل التحصيل فى النفس وإنما يقال كما فى الأصل (حصلت فى عمرك كذا . ولا يقال حصلت فى نفسك) لعدم تصور الظرفية فى النفس فى هذا المقام . على أن صدر البيت الثالث ينافيه .

(٢) ذكر هذه القطعة ابن فضل الله العمرى فى كتابه مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار (انظر المرجع السابق) فقال . ومنه قوله (يعنى من شعر الشيخ تقى الدين) لعمرى . . . إلخ .

وأوردها فى الوافى فقال : وبالسند المذكور له أيضاً : (أى الذى وضحناه سابقاً) لعمرى . . . إلخ

ورواها فى الأعيان فقال « وأنشدنى الشيخ شمس الدين بن نباتة قال أنشدنى له . ولعمرى لقد . . . إلخ » .

وذكرها فى الفوات فقال « وقال أيضاً رحمه الله تعالى » لعمرى . . . إلخ .

(٣) رواه فى الأعيان بلفظ (ولعمرى) بزيادة الواو ، وهى زيادة مخلة بالوزن .

(٤) فى المسالك بلفظ (للفقر) باللام لا بالباء وفى غيره بالباء كالأصل وهو أصوب لإفادتها السببية ؛ وإن كانت حروف الجر فى لغة المصريين ينوب بعضها عن بعض .

(٥) فى مسالك الأبصار بلفظ (مودتى) وفى غيره (مروتى) كالأصل ، وهو الصواب . ولعل رواية المسالك تصحيف إذ لا يتصور الهتك مع المودة .

(٦) فى الفوات بلفظ (وأعظم) بالواو وفى غيره بالفاء كالأصل ، وهو أنسب لما فى ذلك من ترتيب وتفريع .

وقال أيضاً[1] :

(١) أورد هذه القطعة الإسنوى فى طبقاته فقال . وله (يعنى لابن دقيق العيد) كم ليلة فيك . . . الخ . ولم يزد على الأصل .

ورواها الصفدى فى كتابه (الغيث المسجم فى شرح لامية العجم ص ١٨٧ الجزء الأول . فقال « كم ليلة فيك . . . الخ » .

وذكرها فى المسالك فقال (وقوله ، كم ليلة . . . إلخ) وزاد بعد الأول بيتاً وهو قوله

وكادت الأنفس مما بها تزهق والأبدان منا تصيح

ورواها فى أعيان العصر فقال ومن شعر الشيخ تقى الدين رحمه الله ، كم ليلة فيك . . . إلخ . وزاد على الأصل بعد الأول بيتين هما :

قد كلت العيس فسد الهوى واتسع الكرب فضاق الفسيح
وكادت الأنفس مما بها تزهق والأرواح منها تطيح

وأوردها فى فوات الوفيات فقال « وقال أيضاً رحمه الله تعالى كم ليلة فيك . . . إلخ . وزاد على الأصل بعد الأول أيضاً البيتين السابقين على هذا النمط .

وكلت العيس وجد السرى واتسع الكرب وضاق الفسيح
وكادت الأنفس مما . بها تزهق والأرواح منا تطيح

وذكرها فى الوافى فقال وأنشدنى الشيخ فتح الدين إجازة قال أنشدنى لنفسه كم ليلة فيك . . . إلخ وزاد كذلك بعد الأول البيتين باللفظ الآتى :

قد كلت العيس فجد الهوى واتسع الكرب فضاق الفسيح
وكادت الأنفس مما بها تزهق والأرواح منها تصيح

ورواها فى الطالع السعيد ص ٣٣٢ فقال : وأنشدنا أيضاً (يريد الشيخ الفقيه شرف الدين محمد بن محمد المعروف بابن القاسم) قال أنشدنا الشيخ رحمه الله لنفسه قوله كم ليلة فيك . . . إلخ . وزاد أيضاً بعد الأول البيتين على هذا النحو :

قد كلت العيس بجد الهوى واتسع الكرب وضاق الفسيح
وكادت الأنفس مما بها تزهق والأرواح منها تطيح

وذكرها السبكى فى طبقاته ج ٦ ص ٥ فقال (وبالسند المذكور « يعنى قوله أنشدنا أبو عبد الله الحافظ بقراءتى عليه ، أنشدنا شيخ الإسلام تقى الدين لنفسه إجازة ») كم ليلة فيك . . . إلخ . ولم يزد على الأصل .

وبمقارنة هذه النصوص بعضها إلى بعض نستخلص الصورة الصحيحة التالية لهذه القطعة .

كم ليلة فيك وصلنا السرى لا نعرف الغمض ولا نستريح
قد كلت العيس فسد الهوى واتسع الكرب فضاق الفسيح
وكادت الأنفس مما بها تزهق والأرواح منا تطيح
واختلف الأصحاب ماذا الذى يزيل من شكواهم أو يريح
فقيل تعريسهم ساعة وقلت بل ذكراك وهو الصحيح

كم ليلة فيكَ وَصَلنْا[١] السرَي لا نَعْرِفُ[٢] الغَمض ولا نستريحْ
واختلفَ الأصْحَاب[٣] ماذا الذى يزيلُ من شكواهمُ[٤] أو يُريحْ
فَقيلَ[٥] تعْريسُهُمْ ساعَةً وقلتُ[٦] بلْ ذكراكَ وهوَ الصحيحُ

وقال أيضاً[٧] :

خفيف

آه منْ حر الفِراق ويَاحَسْرةَ منْ خابَ بعدَ ما قدْ تَمنّى
لَيْتَ شعرى أكان هجرى لِمَعْنىً عِنْد أهْل العَقيق ، أم لا لمعنىً ؟

وقال أيضاً[٨] :

---

(١) فى الطالع بلفظ (وصلت) وهو يأباه السياق .

(٢) فى طبقات الإسنوى ومسالك الأبصار بلفظ (لا نعرف النوم) وفى الطالع (لا نرقد الليل) .

(٣) فى مسالك الأبصار بلفظ (واختلف الرفقة) .

(٤) فى المسالك بلفظ (ترد من أنفسهم أو تريح) .

(٥) فى الغيث المسجم (فقيل لى) .

(٦) فى طبقات الإسنوى (فقلت) بالفاء ، وفى الأعيان بلفظ (وقيل بل ذكرك) وهو الصحيح وفى طبقات السبكى بلفظ (وقيل بل ذكراك) .

(٧) لم يذكر هذين البيتين أى من المراجع التى بين أيدينا واعتمدنا عليها فى إخراج هذا الديوان .

(٨) أورد هذه القطعة المقريزى فى كتابه المقفى فقال « وقال أحبة قلبى . . . إلخ .
ورواها فى فوات الوفيات فقال « وقال أيضاً سامحه الله أأحباب قلبى . . . إلخ .
وذكرها فى الوافى بالوفيات فقال « وأنشدنى بالسند المذكور له أيضاً قال (يعنى قوله أنشدنى من لفظه الشيخ فتح الدين محمد بن سيد الناس قال أنشدنى شيخنا تقى الدين بن دقيق العيد لنفسه) أأحباب قلبى . . . إلخ .
وأوردها فى الطالع ص ٣٣٢ فقال « وأنشدنى له الشيخ فتح الدين بن سيد الناس وأنشدنى ذلك الشيخ أثير الدين أبو حيان قالا أنشدنا الشيخ تقى الدين لنفسه وأحبة قلبى . . . إلخ .
ورواها فى الأعيان فقال « وأنشدنى شيخنا الحافظ فتح الدين بن سيد الناس قال أنشدنى من لفظه الشيخ تقى الدين بن دقيق العيد « أأحباب قلبى . . . إلخ .

طويل

أأحبابَ(١) قلبي والذينَ بذكرهم ... وترْدَادُه طولَ(٢) الزَّمان تَعَلُّقِ
لئنْ غابَ عنْ عيني بديع جمالكم ... وجارَ علىَ الأبدَان حُكْمُ التفرُّقِ
فما ضرنا بعدُ المسَافة بَيْنَنَا ... سرَائرنا تسرى إليكمُ فَنَلْتَقِيَ

وقال أيضا(٣) :

الحمدُ للهِ كَمْ أسْمُو(٤) بِعزمِيَ فى ... نَيْلِ العُلاَ وقَضاءُ اللهُ يُنْكِسُهُ(٥)

وذكر صاحب المسالك فى وزن هذه القطعة وقافيتها هذين البيتين فقط

نفرت سليمى نفرة لما رأت ... وضح المشيب بعارضى ومفرق
قد أبصرت منه علواً أبيضا ... أربى أذاه على العدو الأزرق

وأغلب الظن أن هذين البيتين هما مطلع هذه القطعة لما ذكرنا من اتحاد الوزن والقافية من جهة، ولما يكون القطعة من تمام المعنى بضمهما إليها من جهة أخرى وعليه فيصح أن تروى على هذا النحو .

نفرت سليمى نفرة لما رأت ... وضح المشيب بعارضى ومفرق
قد أبصرت منه علواً أبيضا ... أربى أذاه على العدو الأزرق
أأحباب قلبي والذين بذكرهم ... ترداده طول الزمان تعلق
لئن غاب عن عيني بديع جمالكم ... وجاز على الأبدان حكم التفرق
فما ضرنا بعد المسافة بيننا ... سرائرنا تسرى إليكم فنلتقى

(١) فى المقفى والطالع بلفظ (أحبة قلبي) وفى غيرهما بلفظ (أأحباب قلبي) كالأصل .

(٢) فى المقفى والطالع أيضاً بلفظ (فى كل وقت تعلق) وفى الوافى بلفظ (ويروى به طول الزمان تعلق) .

(٣) ذكرها فى الأعيان فقال « وأنشدنى من لفظه شيخنا فتح الدين قال أنشدنى من لفظه لنفسه » الحمد لله . . . الخ .

وأوردها فى مسالك الأبصار . فقال ومن شعره (يعنى ابن دقيق العيد) قال « الحمد لله . . . الخ .

ورواها الصفدى فى كتابه الوافى بالوفيات فقال « أنشدنى من لفظه الشيخ فتح الدين محمد ابن سيد الناس قال أنشدنى شيخنا تقى الدين بن دقيق العيد لنفسه قال : الحمد لله . . . إلخ .

وذكرها ابن شاكر الكتبى فى كتابه فوات الوفيات فقال « ومن شعره رحمه الله تعالى الحمد لله كم . . . الخ .

(٤) فى الوافى والفوات بلفظ (أسعى) وفى غيرهما أسمو كالأصل .

(٥) وهى هكذا فى الأصل بضم الياء من أنكس بزيادة الهمزة وهى زيادة . ليس لها سند فى اللغة . والأصح أن تكون بفتح الياء من (نكس) لا من (أنكس) .

كأنى[1] البَدْرُ يبغى[2] الشرقَ والفلكُ الْـ أعلى يعارضُ مسراه[3] فيُعكسه

(١) فى المسالك بلفظ (كأنى النجم) بحذف نون الوقاية .
(٢) فى الوافى والفوات (أبغى وفى غيرها يبغى) كالأصل .
(٣) فى الوافى والفوات بلفظ (مسعاه) وفى غيرهما كالأصل (مسراه) .

الديوان

القسم الثانى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده . أما بعد فهذا هو القسم الثانى من شعر قاضى القضاة تقى الدين أبى الفتح محمد بن على ابن وهب المعروف بابن دقيق العيد . وقد جمعنا فيه ما استطعنا الوقوف عليه من شعره مما لم يذكره العلامة صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى فيما اختاره له فى مجموعه رحمهما الله جميعاً رحمة واسعة .

هذا وقد جعلناه مرتباً على حروف المعجم ، ولما لم نجد له شعراً فى باب الهمزة بدأناه بقافية الباء .

قافية الباء

قال الشيخ تقى الدين محمد بن على بن وهب بن مطيع بن أبى الطاعة القشيرى الشهير بابن دقيق العيد رحمه الله[1] :

بسيط

بعض أخلائى صار ميْتا ... وبعضهم فى البلاء غائبْ

وبعضُهم حاضر ولكن ... يُحصى ويُقصى ولا يقارب

وصرت بين الورى وحيداً ... فلا قريب ولا مناسب

فلا تَلُمنى على اكتئابى ... سرُورُ مثلى من العجائب

وقال أيضا رحمه الله[2] :

طويل

أتيتك والآمال تسرى إلى مدى ... بعيد أراه باصطناعك يقربُ

وقد شنع الأعداء أنّ مطالبى ... تردُّ على أعقابها وهى خُيَّبُ

وما تركوا مِنْ حُجَّة أو أتوْا بها ... على أنّنى ما لى ببحرك مَشربُ

وَوالله لا صدَّقتُ أنكَ تُرْتَجى ... لِدَفْع مُلِمٍّ حادث فتُجنِّبُ

وقال رحمه الله[3] :

خفيف

مقبلٌ مدبرٌ بعيدٌ قريبٌ ... مُحْسنٌ مذنبٌ عدو حبيبُ

عجبٌ من عجائب البر والبحْر ... ونَوْعٌ فَرْدٌ وشَكْلٌ غريبُ

---

(١) انفرد برواية هذه القطعة الشيخ تاج الدين السبكى فى كتابه طبقات الشافعية الكبرى الجزء السادس المطبعة الحسينية سنة ١٣٢٤ هـ فقال (انظر ص ١١) وقال «بعض ... إلخ .

(٢) انفرد أيضاً برواية هذه القطعة ابن فضل الله العمرى فى كتابه مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار القسم الثالث من الجزء الثالث (نسخة مصورة تحت رقم ٥٥١ معارف عامة بفهارس دار الكتب) فقال «ومنه قوله أتيتك والآمال . . . إلخ .

(٣) رواها الصفدى فى كتابه الوافى بالوفيات مخطوط بقلم معتاد تحت رقم ١٤٨ تاريخ تيمور بدار الكتب — الجزء الثانى . فقال (انظر ورقة من ٩٥٧ إلى ٩٦٧) ومنه ما نظمه فى بعض الوزراء : مقبل مدبر . . . إلخ . ورواها فى أعيان العصر وأعوان النصر جـ ٦ مجلد أول من ٨١ — ١٠٢ من الصورة رقم ١٠٩١ بدار الكتب عن الأصل المخطوط المحفوظ بمكتبة

وقال أيضاً غفر الله له [١]:

سريع

دققتَ فى الفطنــة حتى لقــد | أبْديتَ ما يَسْحَرُ أو يَسْبى
وصرتَ فى أعلى مَقاماتهــا | حَيْثُ يَراكَ الناس كالشهْب
وَسارَ[٢] ما سَيَّرت من جَوْهَر الـ | ـحِكْمَةَ فى الشرق وفى الغرْب
ثم تَنَازلْتَ إلىَ حيثُ لا | يَنْزِلُ ذُو فَهْم ولا لُب[٣]
تُثْبتُ[٤] ما تَجْحَدُهُ فِطْرَةُ الـ | ـعقْل ولا تَشْعُرُ بالْخَطْب
أنْتَ دَليلٌ لى عَلى أنَّــه | يُحالُ بَيْنَ الْمَرء والقاب[٥]

له فى هذه القافية بُلَيْقة أولها [٦]:

كيف أقدَرْ أتــوبْ | ورأسُ أيْــرى مثقوبْ

عاشر أفندى بالآستانة فقال « ومنه ما نظمه فى بعض الوزراء (مقبل مدبر . . . إلخ) .

وذكرها ابن شاكر الكتبى فى كتابه فوات الوفيات جـ ٢ ص ٣٠٥ — ٣١٠ طبعة بولاق . فقال : وقال أيضاً نظماً فى بعض الوزراء رحمه الله « مقبل . . . إلخ » .

ورواه الإدفوى فى كتابه الطالع السعيد ص ٣٣٣ فقال « وأنشدنى شيخنا أقضى القضاة شمس الدين محمد ابن القماح له . وقال إنه نظمها فى بعض الوزراء وهى قوله « مقبل مدبر . . . إلخ .

(١) رواها الإدفوى فى كتابه الطالع السعيد ص ٣٣٣ فقال (وأنشد له ابن عبد الكافى ونقلت من خطه ووجدته بخط شيخنا تاج الدين ويقال إنه نظم ذلك فى ابن الجوزى قوله « دققت . . . إلخ » .

وذكرها الصفدى فى كتابه الوافى فقال « ومنه ، قيل إنه نظمه فى ابن الجوزى » دققت . . . إلخ .

ورواها فى كتابه أعيان العصر وأعوان النصر فقال « ومنه ، قيل إنه نظمه فى ابن الجوزى دققت . . . إلخ » .

(٢) هى هكذا فى الوافى وفى الأعيان ، أما فى الطالع فهى بالصاد فيهما ، ولعله تصحيف إذ لا يستقيم معه المعنى .

(٣) هى هكذا فى الوافى وفى الأعيان ، أما فى الطالع فهى بلفظ (ذو لب) وما أثبتناه هو الأصوب .

(٤) هى هكذا فى الطالع والأعيان ، أما فى الوافى فبلفظ (هبت) وإثبات التاء أسلم لغة .

(٥) فى الوافى بلفظ (وقلبه) وفى الطالع والأعيان بلفظ (والقلب) وهو أصوب لغة ووزناً .

(٦) رواها الإدفوى فى كتابه الطالع السعيد ص ٣٢٧ فقال « حكى لى صاحبنا فتح الدين محمد بن كمال الدين أحمد بن عيسى القليوبى قال ، دخلت عليه مرة وفى يده ورقة ينظر فيها

قافية التاء

قال(١) :

دوبيت

يا عصر شبيبتى وهــوى أرأيت ... ما أسرع ما انقضيت عنى ومضيْتَ
قد كنتَ ساعدِى على كيتَ وكيتَ ... واليومَ فَلَوْ رأيتَ حالِى لَبَكَيْتَ

وقال رحمه الله(٢) :

كامل مرفل

يفنى الزمــان ومحنــتى ... بـك كل يوم فى زيــاده
بالغت فى طلــبى وصا ... لكَ لو تواتيني السعـــاده
تنأى وتدنــو دائـــمًا ... لم ينتظم لى فيــك عاده
أفنيت عمــرى فى الجها ... د وأرتجى فيــك الشهاده

وقال أيضًا عليه الرحمة(٣) :

خفيف

من عذيرى من معشر هجـــروا القو ... ل وحادوا عن طرقه المستقيمـــه
لا يرون الإنسان قد نال حظًّا ... من صلاح حتّى يكون بهيمـــه

زماناً ثم ناولني الورقة وقال اكتب من هذه نسخة ، فأخذتها فوجدت فيها بليقة أولها كيف . . . إلخ » .

ورواها العلامة المقريزى فى كتابه المقفى فقال « دخل عليه فتح الدين محمد بن أحمد القليوبى فناوله ورقة وقال له اكتب من هذه نسخة ، فأخذها القليوبى فوجد فيها بليقة أولها «كيف أقدر . . . إلخ » .

وذكر الصفدى فى كتابه الأعيان أن محيي الدين بن عمر المطى قال « حكى لى صاحبنا فتح الدين محمد بن كمال الدين بن أحمد بن غيث القليوبى قال دخلت مرة عليه وفى يده ورقة ينظر فيها زماناً ، ثم ناولني تلك الورقة وقال اكتب من هذه نسخة فأخذتها فوجدت فيها بليقة أولها : كيف أقدر . . . إلخ . وتجمع هذه الروايات على أن القليوبى رأى ابن دقيق العيد ينظر فى روقة ثم دفعها إليه وطلب منه أن ينسخها . وليس فى ذلك ما يؤكد أن البليقة المذكورة من إنشاء الشيخ بل إن نظر الشيخ ابن دقيق العيد فى تلك الورقة متأملا ما فيها يرجح أنها لغيره وإلا لما تأملها زماناً ، وأغلب الظن أن أحد الظرفاء قدمها إليه يداعبه على سبيل الاستفتاء .

(١) انفرد بروايتها ابن شاكر الكتبى فى كتابه فوات الوفيات ، فقال « وقال أيضاً رحمه الله تعالى « يا عصر . . . إلخ .

(٢) انفرد السبكى بروايتها فى طبقاته ص ١٠ فقال : وقال : ويفنى الزمان . . . إلخ .

(٣) انفرد كذلك السبكى فى طبقاته ص ١٢ فقال . وقال « من عذيرى . . . إلخ .

قافية الجيم

لم يرو له أحد فى هذه القافية سوى هذه البُلَيْقَة التى مطلعها[١] :

جَلْدُ العُمَيْرَة بالزجاج ولا الـزواجْ

ثم يقول بالزجاج يا فقيه ولم يزد أحد على ذلك .

قافية الحاء[٢]

سريع

دقت معانى حسنكم فى الملاحْ · عن نظر الواشى وفهم اللـواحْ

لله أيام مضت لى بكم بين رُبَى نَجد وتلك البطاحْ

أيامُ وَصْل نلتُ فيها الذى أهوى وأكثرت من الاقتراحْ

وقد بَقيتُ اليوم من بعدها كطائر قد قُصَّ منه الجناحْ

ما قُوتُ من قد طار من وكره ولا على من سلا فاستراحْ

أبيتُ أرعى من نجوم الدجَى أسيرَ ليل ما له من بَراحْ

علمتُ يا ظالمُ بعد اللقا وقسوة القلب حِيالَ الصباحْ

---

(١) ذكرها الإدفوى فى كتابه الطالع السعيد ص ٣٢٧ فقال « وقال لى شيخنا تاج الدين محمد بن أحمد الدشناوى سمعته ينشد هذه البليقة التى أولها « جلد العميرة . . . إلخ » .

وذكرها فى الأعيان فقال « وقال (يعنى محيى الدين بن عمر بن المطى) قال لى شيخنا تاج الدين محمد بن أحمد الدشناوى سمعته ينشد هذه البليقة التى أولها « جلد العميرة . . . إلخ » .

وأوردها فى المقفى فقال « وأنشد بليقة أولها « جلد العميرة . . . إلخ » .

وذكرها فى الوافى فقال « حكاية عن العلامة الإدفوى أنه قال (قال لى شيخنا تاج الدين محمد بن أحمد الدشناوى سمعته ينشد هذه البليقة التى أولها « جلد العميرة » .

(٢) انفرد بها السبكى فى طبقاته ص ٩ ، ١٠ فقال « وقال (يعنى ابن دقيق العيد) دقت معانى . . . الخ » .

قافية الدال

قال رحمه الله(١) :

كامل

لله در الفئــة الأمجـاد	السالـكينَ مسالكَ الأفــراد
عرفوا وهم بالغَوْر من وادى الغضا	إذ رحلــوا لمباركِ العُبــّاد
فسروا لنجد لا يملون السرَى	أو يظفروا منها بكل مــراد
لا يقطعون من المناهــل معلمـًا	إلا ولاحَ ســواهُ بالمــرصاد
لم يَثْنهم طولُ الطريق لهــم ولا	عدمُ الرفيــقِ ولا نفاذُ الزّاد
سَقَتْهمُ من النعاس جفونُهم	كأسـًا تُميلهم على الأعــواد
وتكاد أنْفُسُهم تَغيظُ وتَحتَبِي	بنسيم نجد أو غناء الحادى
نادتهم النُّجُبُ الركائبُ عندمــا	أطَّتْ بوقع السوط والإجهــاد
طيبُ الحياة بنجــد إلا أنه	من دون ذاك تَفَتّتُ الأكباد
فأجابها صدقُ العزيمــة إنمــا	نحن المعــالى أنفس الأجواد
لله درّهموا فقد وصَلــوا إلىَ	ظِل النعيم وَبرْد حَر الصادى
ولقد يعز على أنهمو غــدوا	والدارُ قَفْرٌ منهمو ببُعــاد
فلأنهضنّ إلى الحمى متــوجها	بين اعتراض عواتــق وغــواد
ولأقطعن عليه كل مفــازة	تدنى الهلاكَ ولو عَدمْتُ الهادى

---

(١) انفرد بها تاج الدين عبد الوهاب السبكى فى طبقاته ص ٨ فقال «وقال (يعنى ابن دقيق العيد) لله در الفئة الأمجاد . . . إلخ» .

وقال أيضًا[١] :

كامل

ادأبْ على جمع الفضائل جاهدا   وأدمْ لها تَعَبَ القريحة والجسدْ
واقصد بها وجــه الإله ونفع من   بلَّغْتَهُ وَجَدّ فيها واجتهدْ
واترك كلام الحاسدين وبغيَهُمْ   هملا فبعد الموت ينقطعُ الحسدْ

وذكر له أيضًا المقريزى فى هذه القافية بيتًا واحد فقط وهو قوله :

يقولونَ هذا عندنا غيرُ جــائز   ومن أنتمو حتى يكونَ لكُمْ عِنْدُ[٢]

وله أيضًا رحمه الله[٣] :

خفيف

أنــكرتنى لمـــا ادعيتُ هواها   وأصرتْ عـــلى العناد جحودا
قلت إن الدمـــوعَ تشهـــدُ لى   قَالَتْ صَحيح لكن قذفتَ الشهودا

وله أيضًا رحمه الله تعالى[٤] :

فى أرض نجد منـــزلُ الفؤادِ   عَمَرْتُه شـــوقى وصـــدقَ ودادى
ما كان أقربَهُ على مَنْ رَامَهُ   بِمَسرَّة لـــولا اعتراضُ عَوادى
أصبو إليه مع الزمان فكيف لا   أصبو وتلك منـــازلى وبِلادى
أرض بها الشرفُ الرفيعُ وغاية الـ   ـعز المنيع ومَسْكَنُ الأجـــواد
أوطِنْتُهَا فَخَرَجْتُ منها عَنْوَةً   بمكائد الأعـــداء والحُسَّـــاد

(١) وردت هذه الأبيات فى خطبة شرحه لمختصر ابن الحاجب (طبقات الشافعية للسبكى ج ٦ ص ١٦) .

(٢) أنشد ابن دقيق العيد هذا البيت فى جواب الأمير كرت الحاجب الذى أرسله نائب السلطنة منكوتمر لإثبات أخوة رجل لتاجر مات ، كى يحصر فيه الإرث دون سواه . والبيت والقصة مذكورة فى المقفى للمقريزى (المرجع السابق لوحة ١٦٥ إلى ١٧٢)-رقم ٥٣٧٢ تاريخ

(٣) انفرد بذكرهما صاحب المسالك فقال « وقوله (يعنى ابن دقيق العيد) أنكرتنى . . .

(٤) لم يرو هذه القطعة إلا السبكى فى طبقاته ص ١٢ فقال « فى أرض نجد منزل ... إلخ » »

حرف الراء

قال رحمه الله تعالى[١] :

رجز

جمالكم لا يحصر ومثلكم لا يهجر
وحبكم بين الحشا مستودع لا يظهر
نارى بكم لا تنطفى ولوعتى لا تفتر
إذا أتى الليل أتى الهم بكم والفكر
فإن أكن وذكركم طاب ولذ السهر
ولى عذول فيكمو يقلقنى ويكثر
يقول لى تقل من ذكرهم وتقصر
ويحمل الشوق الذى حملته ويصبر
والله ما أطيقه وهل أنا إلا بشر

وله أيضاً[٢] :

إذا كنت فى نجد وطيب نسيمها تذكرت أهلى باللوى فمحجر[٣]
وإن[٤] كنت فيهم ذبت شوقا ولوعة إلى ساكنى[٥] نجد وعيل تصبرى
وقد طال ما بين الفريقين قصتى فمن لى بنجد بين أهلى[٦] ومعشرى

---

(١) لم يرو هذه القطعة إلا السبكى فى طبقاته ص ١١ فقال « وقال جمالكم ... إلخ » .

(٢) ذكرها فى الطالع ص ٣٣١ فقال « وأنشدنى الشيخ العلامة ركن الدين محمد بن القويع . رحمه الله قال أنشدنى الشيخ تقى الدين لنفسه . إذا كنت ... إلخ .
وأوردها السبكى فى طبقاته ص ١٢ فقال « وقال إذا كنت ... إلخ » ورواها الفوات فقال « وقال أيضاً سامحه الله تعالى » إذا كنت ... الخ » .
وأوردها فى الوافى فقال ومنه (أى من شعر الشيخ تقى الدين) إذا كنت ... إلخ .
وأوردها فى المقفى فقال « وقال (يعنى ابن دقيق العيد) إذا كنت ... »

(٣) هى هكذا فى جميع المراجع المذكورة عدا الطالع فأوردها مع الياء .

(٤) هى رواية الفوات والوافى ، والمقفى والطالع . أما السبكى فأوردها (بالفاء) .

(٥) وردت هكذا فى جميع المراجع المذكورة والسبكى الذى أوردها بعلى) .

(٦) كذلك وردت هكذا فى المراجع المذكورة إلا فى طبقات السبكى فقد وردت بلفظ (قومى) .

وقال رحمه الله تعالى(١) :

طويل

سَرَيْنَا ولم يُظْهِرْ لنا الغيم بارقًا ... ولا كوكبا نُهْتَدَى به فَنَسِير
فقال صحابِي قد هلكنا فقلتُ لا ... هلاكَ علينا والدليــلُ بصيرُ

وله أيضًا(٢) :

طويل

أفــكر فى حالى وقرب منيتى ... وسيرى حثيثا فى مصيرى إلى القبر
فينشئُ لى فكرى سحائبَ للأسى(٣) ... تَسِح هُمومًا دونَها وابلُ القَطْر
إلى الله أشكو من وجودى فإننى ... تعبت به مذ كنت فى مبدأ(٤) العمر
تروح(٥) وتغدو للمنايا فجائــعٌ ... تــكدره والموت خاتمـــة الأمر

وقال رحمه الله(٦) :

(١) لم يورد هذه القطعة سوى صاحب الطالع السعيد ص ٣٣٤ إذ قال « وأنشدنى الفقيه الفاضل جمال الدين محمد بن هارون القنائى وشيخنا أثير الدين قالا أنشدنى الشيخ تقى الدين (أبو الفتح) لنفسه قوله سربنا . . . إلخ .

(٢) ذكرها فى الأعيان فقال ونقلت أنا من خطه لنفسه رحمه الله تعالى أفكر فى . . . وأوردها فى الوافى فقال « ونقلت من خط الشيخ تقى الدين ما أثبته لنفسه أفكر فى حالى . . . إلخ » .
ورواها فى الفوات فقال « وقال أيضاً رحمه الله تعالى أفكر فى حالى . . . إلخ » .

(٣) هى فى الأعيان بلفظ (الأسى) بحرف اللام الجارة وفى غيره كما أثبتنا هو الأنسب .

(٤) هى هكذا فى جميع الروايات وفى الفوات بلفظ (مبتدا) .

(٥) فى فوات الوفيات بلفظ (نروح ونغدو والمنايا فجائع) بالنون فى الفعلين وحذف اللام الجارة فى كلمة (المنايا) . وفى غيره كما أثبتنا . وهو الصحيح إذ أن الشاعر يتحدث عن نفسه وحده لا عنه وعن غيره معاً كما هى رواية الفوات .

(٦) هذه القطعة رواها فى الأعيان وهى أبيات من قصيدة بلغت خمسة عشر بيتاً قالها يرد على قصيدة بعث بها إليه (ناصر الدين حسين بن النقيب الفقيسى لما قدم الديار المصرية سنة أربع وتسعين وستماية ٦٩٤هـ) فنها قوله

أنت كالشافعى إذ حل مصــرا ... فهو فيها علم وإن فات عصرا (خفيف)
وقد رأيناه مذ قدمت علينـــا ... وسمعناه بعــد ما حــل حبرا
وارتضينـــاك مالكاً وإماماً ... فامض فينا الأحكام نهياً وأمراً

وهى من قصيدة بلغت ثلاثين . وقال الصفدى أنه ذكر القصيدتين كاملتين فى الجزء التاسع والعشرين من كتابه التذكرة . ولم نعثر على هذا الجزء .

قد تأملتُ مــا بَعَثْتَ به لا ... زلتَ تُهْدى لمن يواليكَ بِرًا
فرأيتُ الجمــالَ كَمُلَ والإجـ ... ـمالَ فاستجمعا وسمى شعــرًا
وتنزهت فى رياض بديــع ... من صنيع البيان أطْلعْنَ زهرا
يا أميرا حتى على النظم والنثـ ... ـر لقد زدت فى الإمارة قــدرا

حرف الزاى

قال رحمه الله[1] :

تجاوزت حدَّ الأكثرينَ إلى العلاَ ... وسافرتُ واستبقيتُهُمْ فى المعــاوز
وخضت بحارا ليس يُعْرَفُ قدرها ... وألقيتُ نفسى فى فسيح المفاوز
ولججتُ فى الأفكار ثم تراجع اختيـ ... ـارى إلى استحسان دين العجائز

حرف السين

قال رحمه الله تعالى[2] :

سريع

قد جرحتنــا يدُ[3] أيامنـــا ... وليس غيرُ الله مِنْ آس
فلا تُرجِّ الخلقَ فى حــاجة ... ليسوا بأهــل لسوىَ اليــاس
ولا تُزِدْ[4] شكوىَ إليهـــم فلا ... معــنى لشــكواك إلى قاس

(١) انفرد بروايتها الأعيان فقال : « وقال ناصر الدين شافع من شعر الشيخ تقى الدين ابن دقيق العيد قوله : تجاوزت حد . . . إلخ .

(٢) أوردها فى الطالع فقال (ورقة ٣٣١) أنشدنا شيخنا أثير الدين محمد أبو حيان أبقاه الله تعالى فى عافية . قال أنشدنى الشيخ الحافظ تقى الدين أبو الفتح محمد القشيرى لنفسه قوله قد جرحتنا . . . إلخ . وذكرها السبكى فى طبقاته فقال (ص) ١١ المرجع السابق) وقال قد جرحتنا إلخ ورواها فى الوافى فقال ومنه قد جرحتنا . . . إلخ . وذكرها فى فوات الوفيات فقال : « وقال أيضاً رحمه الله تعالى قد جرحتنا . . . إلخ » . وأوردها فى الأعيان فقال : « ومنه قد جرحتنا . . . إلخ . »

(٣) هى هكذا فى جميع الروايات وذكرها السبكى فى طبقاته بلفظ (خرجتنا) .

(٤) فى جميع الروايات كما أثبتنا بلفظ (تزد) وفى طبقات السبكى بلفظ (ترد) وما أثبتناه أولى .

ولا تقس[١] بالعقل[٢] أفْعَالهُمْ ما مذهب القــوم بمنقــاس
وإن[٣] تخالط منهمو معشرا هويت فى الدين[٤] على الراس
يأكل بعضهم لحمَ بعض ولا يَحْسِبُ فى الغيبة من باس
لا ورعٌ[٤] فى الدين يحميهمو عنهــا ولا حِشْمَةُ جُلاَّس
لا يعدم[٦] الآتى إلى بابِهِمْ من ذلة الكلب سوى الخــاس[٧]
فاهرب من الناس إلى ربهــمْ لا خــير فى الخلطة بالناس[٨]

حرف الشين

قال رحمه الله[٩] :

خفيف

يا شبابى أفسَدْتَ صالحَ دينى يا مشيبى نَغَّصْتَ طِيبَ عيشى
فعدوان أنــتما لا صديقــا ن تلاعبتما بحلمى وطيــشى

(١) أورد هذا البيت السبكى فقط دون غيره .

(٢) هى فى الأعيان والوافى وللفوات هكذا . وفى الطالع (فإن تخالط) بالفاء . وفى طبقات السبكى بلفظ (وإن تجالس) .

(٣) هى هكذا فى جميع الروايات وفى طبقات السبكى بلفظ (الذنب) .

(٤) هى هكذا فى الطالع السعيد وأعيان العصر . وأما فى فوات الوفيات فذكرها بلفظ (لا يخاف فى الغيبة) . وفى طبقات السبكى بلفظ (لا يخشى) . والوافى بلفظ (لا تحسب) .

(٥) هى هكذا فى جميع الروايات وانفرد السبكى فى طبقاته بلفظ (لا رغبة فى الدين تحميهم) .

(٦) لم يذكر هذا البيت صاحب الفوات ، وجعله السبكى الخامس فى القطعة .

(٧) رواه السبكى بلفظ (لا يعدم الآتى لأحوالهم من ذلك الكلب سوى الخامس) وفى الأعيان بلفظ (بقوى الخاص) وفى الطالع والوافى ما أثبتناه .

(٨) هى هكذا فى جميع الروايات . وفى الوافى بلفظ (فى الناس) .

(٩) انفرد بروايتها فى الأعيان فقال « ومنه يا شبابى . . . إلخ » .

حرف الضاد

قال عليه الرحمة(١) :

كامل

يا معرضًا عنى ولستُ بمعــرض بل(٢) ناقض عهدى ولستُ(٣) بناقض
أتعبتنى بخلائق(٤) لكَ لم تفدْ(٥) فيها وقد جـمَحـتْ(٦) رياضة رائض
أرَضِـــيتَ أن تختارَ رفضى مذهبًا فتشنع(٧) الأعداء أنك رافضى(٨)

وله أيضًا فى هذه القافية(٩) :

---

(١) أوردها فى الطالع السعيد ص ٣٣٣ فقال : « وأنشد عنه القاضى الفقيه المحدث تاج الدين عبد الغفار عبد الكافى السعدى ، ونقلت من خطه قال : « أنشدنى لنفسه قوله يا معرضاً عنى . . . إلخ .

وذكرها فى المقفى فقال : « وقال (يعنى ابن دقيق العيد) يا معرضا عنى . . . إلخ » .

وأوردها فى الفوات فقال : « وقال أيضاً رحمه الله تعالى : « يا معرضا عنى . . . إلخ » .

ورواها فى الوافى فقال : « ومن شعر الشيخ تقى الدين قدس الله روحه يا معرضا عنى . . . إلخ »

وذكرها فى الأعيان فقال : « ومن شعره يا معرضا عنى . . . إلخ » .

(٢) هى هكذا بالنصب فى جميع الروايات ، وفى الوافى بلفظ (ناقض) بالرفع وكلتاهما صحيح ، والأنسب النصب على أنلى عطف نسق على المنادى قبله (معرضا) .

(٣) هى هكذا فى جميع الروايات وفى الفوات بلفظ (وليس) ولعله تحريف .

(٤) فى الأعيان والوافى بلفظ (فخلائق لك) وفى غيرهما كما أثبتناه .

(٥) هى فى المقفى والطالع والأعيان هكذا ، وفى الفوات والوافى بلفظ (لم يفد) والأنسب ما أثبتناه .

(٦) فى الوافى بلفظ (جمعت) بالعين وفى غيره كما أثبتناه .

(٧) هى هكذا فى الطالع والفوات والمقفى ، وفى الأعيان بالواو (وتشنيع) وانفرد الوافى بتذكير الفعل تابع (يشنع) وجميعها جائز .

(٨) فى الطالع والفوات بذكر الياء للنسب وفى المقفى والوافى بحذفها ، ولعله تصحيف إذ لا يجوز حذف ياء النسب .

(٩) رواها السبكى فى طبقاته جـ ٦ ص ٥ فقال وله (يعنى الشيخ تقى الدين) قالوا فلان إلخ» .

وأوردها فى الوافى فقال « وبالسند المذكور له أيضاً يعنى قوله أنشدنى من لفظه الشيخ فتح الدين محمد بن سيد الناس قال أنشدنى شيخنا تقى الدين بن دقيق العبد لنفسه) قالوا . . . إلخ » .

وأوردها فى أعيان العصر فقال « وبالسند المذكور له أيضاً (يعنى المذكور آنفاً) قالوا . . إلخ»

وأوردها الإسنوى فى طبقاته فقال « ومنه (أى من شعر الشيخ تقى الدين) فقالوا . . . إلخ » .

سريع

قالوا فلانٌ عالمٌ فاضـلٌ[١] فأكـرموه مثلمـا يـرتضي
فقلتَ لما[٢] لم يكنْ ذا تُقًى تَعارَضَ المـانعُ والمقتـضى

حرف العين

قال رحمه الله فيما ينبغى للعلماء اتباعه وعليهم اجتنابه[٣]:

طويل

يقولون لى هلا نهضت إلى العـلا فما لذَّ عيش الصابر المتقنـع
وهلا شددت العيس حتى تُحِلَّهـا بمصر إلى ظِـلِ الجناب المرَفَّع[٤]
ففيها من الأعيان من فيضُ كفه إذا شاء روّى سَيْلُهُ كل بلقـع
وفيها قضاةٌ ليس يَخْفَى عليهمو تعينُ[٥] كون العلمِ غيرَ مُضيع
وفيها شيوخُ الدين والفضل والألى يشيرُ إليهمْ بالعلا كل أصبُع
وفيها وفيها والمهانةُ[٦] ذلـةٌ فقم واسْعَ واقصدْ باب رزقك واقرع
فقلت نعم أسعى إذا شئتُ أن أرى ذليلا[٧] مُهانا مستخفا[٨] بموضـعى
وأسعى إذا ما لذ لى طول موقفى على باب محجوب اللقاء مُمنَّع
وأسعى إذا كان النفاقُ طريقتى أروح وأغدو فى ثياب التَصنُّع

---

(١) هى هكذا فى طبقات الأسنوى وطبقات السبكى ولحالوا فى ، أما فى الأعيان بلفظ (فاضل عالم) بتقديم فاضل .

(٢) فى الوافى بلفظ (أما لم يمكن) وفى غيره كما أثبتنا وهو أصوب .

(٣) روى هذه القصيدة الشيخ تاج الدين عبد الوهاب السبكى فى كتابه (معيد النعم ومبيد النقم ص ٧٠) فقال فى معرض حديثه عن العلماء وما ينبغى لهم أن يأتوه أو يجتنبوه أثر قصيدة للقاضى الجرجانى فى هذا المعنى . فقال « وقد نحا شيخ الإسلام تقى الدين ابن دقيق العيد رحمه الله تعالى نحو هذه الأبيات فقال « يقولون . . . إلخ » .

ورواها أيضاً فى كتابه الطبقات فقال (جـ ٦ ص ٩) وقال يقولون . . . إلخ » .

(٤) لم يرد هذا البيت فى الطبقات .

(٥) فى الطبقات (يتقن) وما أثبتناه أولى .

(٦) فى الطبقات بلفظ (المهابة) بالباء وهو تصحيف لعدم استقامة المعنى .

(٧) فى الطبقات (دليلا) وهو تصحيف .

(٨) فى الطبقات بلفظ (مستجقاً لموضعى) والصواب ما أثبتناه ولعله تصحيف .

وأسعى إذا لم يبق فىَّ بقيــة أراعى بها حق التقَى والتورّع
فكم[١] بين أرباب الصدور مجالس[٢] تشب[٣] بها نار الغضا بين أضلعى
وكم بين أرباب العلوم وأهلها إذا بحثوا فى المشكلات بمجمع[٤]
مناظرة[٥] تحمى النفوسَ فتنتهى وقد شرعوا فيها إلى شر مشرع
إلى[٦] السفه المزْرى بمنصب أهله أو الصمت عن حق هناكَ مُضَيَّع
فاما تَوخى مسلك الدين والنهى[٧] وإما تَلقّى غصةَ المتجــرع

حرف الكاف

قال رحمه الله تعالى[٩] :

رمل

يا بديع الحسن ما أحـ لى بقلــبى خطراتــكْ
فيك سر سحــر الشـ باب فى استحسان ذاتك
ما فهمنــا عنــك إلا أنــه فى لحظــاتــك
أنا أرجــو أو أخشى سطــوة من سطــواتكْ
فبما فيــك من اللطـ ف ومن حسن صفاتكْ
لا تــدع هجــرك لى تُلفِ روحى بحيــاتكْ

---

(١) هى بالواو فى الطبقات والفاء أظهر .

(٢) بالجر على أنه تمييز لكم الخبرية ، خلافا لرواية النصب فى معبد النعم ، ولأن كم الاستفهامية لا يأتى تمييزها إلا مفرداً فقط .

(٣) هى فى الطبقات (يشب لها) وما أثبتناه أولى لافادة الباء السببية .

(٤) فى معبد النعم بلفظ (تجمع) ولعله تصحيف .

(٥) فى الطبقات بلفظ (مناظره يحمى النفوس فينتهى) وهو تصحيف لصراحة الضمير فى (شرعوا فيها) .

(٦) فى الطبقات بلفظ (من) وهى لا تتمشى مع ما أثبتناه .

(٧) فى معبد النعم بلفظ (التقى) وما أثبتناه أظهر لافادة التقاير .

(٨) لم يذكر أحد فى هذه القافية شيئاً سوى السبكى فقد روى له فى كتابه الطبقات هذه المقطوعات الثلاث (جـ ٦ ص ١٠) فقال « وقال يا بديع الحسن . . . إلخ » .

(٩) هكذا أوردهما فى الطبقات ، على أنهما قطعتان مختلفان وأغلب الظن أنهما من قصيدة واحدة اختارها السبكى منها . وذلك لاتحادهما فى الغرض والقافية والوزن .

وقال أيضًا رحمه تعالى[١] :

رمل

بالــذى استعبــد أرو احَ المحبــين لذاتــكْ
وبلطــف من معــانيــك يُرى مــن حركاتــكْ
وبنور الحســن إذ يحـ ويك من كل جهاتــكْ
وبسر فــوقَ ما يُدْ رَكُ من حُسْنِ صفاتكْ
لا تُذِقْنى المــوتَ فى صدك عــنى بحيــاتكْ

وقال رحمه الله تعالى [٢] :

خفيف

طال عهدى برؤية الروض فابعث لى روحًا قد نمقته يمينُــكْ
أنت خدن العلا فلا ذاق يومــًا مر طعم الفراق منك خدينُكْ
قلت للمقسم المؤكــد للأيـ مان أن ليس فى البلاد قرينُكْ
قلت صدقًا وجئت حقــًّا فلو قلـ ت وكافى الدنيا لبَرَّت يمينُــكْ

حرف اللام

قال رحمة الله عليه[٣] :

سريع

لا تَـلِينَّ الدهرَ أمرَ الورى واقنع من الرزق ببعض النوالْ
لو لم يكن فى الحشر فيه سوَى طول وقوف المرء عند السؤالْ
لكان أمرا مؤلــا محــزنًا يلهيك عن أهــل وجاه ومالْ

---

(١) رواها السبكى فى طبقاته (جـ ٦ ص ١٠) .

(٢) أوردها الأدفوى فى كتابه الطالع السعيد (ص ٣٣٥ — ٣٣٦) فقال « وكان يقول والله ما خار الله لمن يلى بالقضاء . وأخبرنى الشيخ شمس الدين بن عدلان أنه قال له ذلك مرة » . وقال « يا فقيه لو لم يكن إلا طول الوقوف للسؤال والحساب لكفى . وفى هذا المعنى نظمت أنا شعراً لا تلين الدهر . . . إلخ » .

وروى له الإسنوى[١] فى هذه القافية هذا البيت : متقارب

وأطيب شىء إذا ذقتـــه رضاب الحبيب على ما يقال

اللام مع الألف

قال رحمه الله تعالى[٢] :

كامل

سحابُ فكرى لا يزال هاميا وليل همى لا أراه راحلا

قد أتعبتنى همتى وفطنتى[٣] فليتنى كنت مهينـــا جاهلا

وقال رحمه الله[٤] :

طويل

ألا أن بنت الكرم أغلى مهرَها فيا خُسرَ من أضحى لذلك باذلا

تُزَوَّجُ بالعقل المكرَّم عاجـــلا وبالنار والغسلين والمهْـــل آجـــلاَ

وقال أيضًا[٥] :

خفيف

سر فكنى بفيض دمعىَ ســـلاّ وأحاديث صبوتى فيك تبـــلىّ

أكثر العـــاذلون فيك ولـــكن لم يجد عذلهم بقلبى محـــلاّ

وقفت همـــتى عليك وقوفـــا ليس تبغى سواك فى الناس خـــلاّ

(١) ذكره الأسنوى فى طبقاته فقال « منه (أى من شعر الشيخ تقى الدين) وأطيب شىء . . .

(٢) ذكرها فى الوافى فقال « ونقلت منه (أى من خط الشيخ تقى الدين) له أيضاً « سحاب وأوردها فى فوات الوفيات فقال « وله أيضاً رحمه الله تعالى سحاب فكرى . . . إلخ » .

ورواها فى الأعيان فقال « ونقلت له من خطة أيضاً سحاب فكرى . . . إلخ » .

وذكرها فى المنهل الصافى فقال : « وله أيضاً سحاب فكرى. . . إلخ» .

(٣) هى هكذا فى الأعيان والمنهل الصافى وفوات الوفيات وفى الوافى بلفظ (فكرتى) والأظهر ما أثبتناه .

(٤) انفرد بها السبكى فى طبقاته (جـ ٦ ص ١١) فقال أى ابن دقيق « ألا إن .

(٥) كذلك انفرد بهذه القطعة السبكى فى طبقاته (جـ ٦ ص ١٠) فقال « سر فكنى . . .

غبت عنى فغاب أنسى ورشدى وأردت البعاد فازددت دلا
إن صبرى يلقى الشدائـد لكن حين لاقى جمالك الفرد ولى

اللام مع الياء

قال رحمه الله تعالى(١) :

خفيف

دمع عينى على الغرام دليلى وسبيل السلو غير سبيلى
لا تخافى علىّ من كثر عذلى ليس لى التفاتة لعذولى
كلما لاح بارق ذبت شوقاً نحو نجد وهاج منى عليلى
وترددت بين وجد جديد فوق وجدى وبين خد أسيل

حرف الميم

قال رحمه الله تعالى(٢) :

خفيف

نَزَّهُونا عن استماع الملام ما لنا قَرْعَةٌ غير الغرام
ليس فى الوقت وصلة لحديث عن سوى رامة وأهل الخيام
يا خليلى دعا صبًّا قريحاً ليس إسعاف مثله بحرام
لست أقوى على النهوض بنفسى لأرى برق أرضهم من قيام

وقال رحمه الله(٣) :

---

(١) انفرد بها السبكى فى طبقاته (جـ ٦ ص ٩) فقال : « وقال ، دمع عينى . . . إلخ . »

(٢) كذلك انفرد بروايتها تاج الدين السبكى فى طبقاته (جـ ٦ ص ٩) . فقال « وقال تزهونا عن . . . . إلخ .)

(٣) أوردها الأسنوى فى طبقاته (فقال ومنه من أبيات أهل المناصب ... إلخ) .ورواها فى المسالك أهل المناصب . . . إلخ . ورواها الطالع السعيد ص ٣٣٢ فقال وأنشدنى الشيخ الفقية شرف الدين محمد بن محمد المعروف بابن القاسمى أنشدنى شيخنا تقى الدين القشيرى لنفسه قوله أهل المناصب . . . إلخ .

وذكرها فى معيد النعم فقال « أنشدنى أبوعبد الله الحافظ إجازة عن شيخ الإسلام أبى الفتح ابن دقيق العبد أنه أنشد لنفسه أهل المناصب . . . إلخ » .

بسيط

أهل المناصب[1] فى الدنيا ورفعتها — أهل الفضائل مرذولون بينهمُ

قد أنزلونا[2] لأنا غير جنسهم — منازل الوحش فى الإهمال عندهمُ

فما لهم فى توقى ضيرنا[3] نظر — وما لهم[4] فى ترقى قدرنا همُ

فليتنا لو قدرنا أن نعرفهُمْ — مقدارهم عندنا أو لوْ دَرَوه هُمُ

لهم مريحان من جهل[5] وفرط غنىً — وعندنا المتعبان العِلْمُ والعدَمُ

وقال رحمه الله [6] :

طويل

ومستعبدٍ قلبَ[7] المحب وطرفَه — بسلطان حُسْنٍ لا ينازَعُ فى الحكمِ

وأوردها فى الطبقات ج ٦ ص ٦ فقال « ومن شعر الشيخ مما لا رواية لى به بالسماع أهل المناصب . . . إلخ » .

(١) فى المسالك بلفظ وأهل المراتب وفى غيره ما أثبتناه .

(٢) أسقط الأسنوى الثانى والثالث . كما جعل صاحب المسالك البيت الثانى ثالثاً والثالث ثانياً .

(٣) هى هكذا فى جميع النسخ المذكورة . وفى المسالك وطبقات السبكى بلفظ (صيرنا) .

(٤) فى المسالك ومعيد النعم بلفظ (ولا لهم) وفى غيرهما كما أثبتنا .

(٥) فى المسالك بلفظ (وفضل غنى) وهو تحريف والأصوب ما أثبتناه كما فى جميع النسخ .

هذا وقد ناقضه فى هذه القطعة الفتح الثقفى المقتول لما نسب إليه من الزندقة بأبيات حسنة منها :

أين المراتب فى الدنيا ورفعتها — من اللذى حاز علماً ليس عندهم

لا شك ان لنا قدراً رأوه وما — لقدرهم عندنا قدر ولا لهم

هم الوحوش ونحن الأنس حكمتنا — تقودهم حيث ما شئنا وهم نعم

وليس شىء سوى الاهمال يقطعنا — عنهم فإنهم وجدانهم عدم

لنا المريحات من علم ومن عدم — وفيهم المتعبان الجهل والحشم

(٦) رواها فى الطالع السعيد ص ٣٣١) فقال (يعنى أثير الدين محمد أبو حيان) وأنشدنا لنفسه قوله ومستعبد قلب . . . إلخ . وذكرها فى الوافى فقال ومنه « ومستعبد . . . إلخ . وأوردها فى المقفى فقال ومنه (أى من شعر الشيخ تقى الدين) .

(٧) هى هكذا فى الطالع والمقفى . وفى الوافى بلفظ (قلت) بالتاء ولعله تصحيف .

متين[١] التقى عف الضمير عن الخنا دقيق[٢] حواشي الطرف والحس[٣] والفهم
يناولــني مســواكه فأظنــه[٤] تحيل في رشفى الرضابَ بلا إثم

حرف النون

طويل

قال رحمه الله تعالى[٥] :

تجادل[٦] أرباب الفضائل إذ رأوا بضاعتهم موكوسة[٧] الحظ في الثمن
وقالوا عرضناها فلم نلف طالبـا ولا من له في مثلها[٨] نظر حسنْ
ولم يبق إلا رفضها وإطراحُها[٩] فقلت لهم لا تعجلوا السوقُ باليمنْ

---

(١) أسقط هذا البيت في المقفى .

(٢) هي هكذا في الوافي وفي الطالع بلفظ (رقيق حواشي) بالراء وما أثبتناه أصوب إذ لا تناسب الرقة (الفهم) في عجز البيت .

(٣) في الوافي بلفظ (الحسن) بالسين والنون . وفي الطالع بالسين فقط . وهو ما أثبتناه ، وهو أولى لأن الدقة إنما يوصف بها الحس .

(٤) هي في الطالع هكذا وفي المقفى والوافي بلفظ (تخيل) بالخاء المعجمة . وما أثبتناه أولى وأصوب لسلامة المعنى معه .

(٥) روى هذه القطعة في الأعيان فقال « وقال كمال الدين الإدفوي حكى لي القاضي شهاب الدين بن الكويك التاجر الكارمي رحمه الله تعالى قال اجتمعت به مرة واحدة فرأيته في ضرورة فقلت يا سيدنا ما تكتب ورقة لصاحب اليمن أكتبها وأنا أقضي فيها الشغل فكتب ورقة لطيفة فيها تجادل . . . إلخ .

وأودها في المقفى فقال « وكتب إلى صاحب اليمن يستجديه تخاذل أرباب . . . إلخ » .

ورواها في الوافي فقال كمال الدين جعفر الأدفوي حكى لي القاضي شهاب الدين بن الكويك التاجر الكارمي رحمه الله قال . اجتمعت به مرة فرأيته في ضرورة فقلت يا سيدنا ما تكتب ورقة لصاحب اليمن . اكتبها وأنا أقضي فيها الشغل فكتب ورقة لطيفة فيها تجادل أرباب . . . إلخ » .

وذكرها في الطالع فقال « وحكى القاضي شهاب الدين بن الكويك التاجر الكرامي رحمه الله قال اجتمعت به مرة فرأيته في ضرورة . فقلت يا سيدنا ما تكتب ورقة لصاحب اليمن اكتبها وأنا أقضي فيها الشغل ، فكتب ورقة لطيفة فيها هذه الأبيات تجادل أرباب . . . إلخ » .

(٦) في المقفى بلفظ (تخاذل) وفي جميع الروايات كما أثبتناه وهو أولى .

(٧) هي هكذا في المقفى والطالع وفي الأعيان والوافي (موكوثة) بالثاء ولعله تحريف .

(٨) في الأعيان بلفظ (ولا من له فيها) وجميع الروايات كما أثبتنا . وهو أولى لسلامة الوزن معه .

(٩) في الوافي بلفظ (ضرحها) وفي غيره كما ذكرنا وهو أصوب .

وقال غفر الله له[١] :

وافر

أوَدّعكم وأودِعُكم حياتى ... وأنثر دمعتى نثر الجمان

وقلبى لا يريد لكم فراقا ... ولكن هكذا حكم الزمان

حرف الهاء

قال رحمه الله تعالى[٢] :

طويل

وقائلة مات الكرام فمن لنا ... إذا عضنا الدهر الشديد بنابه

فقلت[٣] لها من كان غاية قصده ... سؤالا لمخلوق فليس بنابه

لئن مات من يرجى فمعطيهمُ الذى ... يرجونه باق فلوذى[٤] ببابه

الهاء مع الألف

قال رحمه الله تعالى[٥] :

طويل

لقد بَعُدَتْ ليلى وعز وصالها ... كما عز بين العالمين مثالها

فمن لى بنوق لا تزال تمدها ... قواها ولا يدنو إلىّ كلالها

ولكنها جسم يذوب وصبره ... يحول وأرواح يخاف زوالها

---

(١) ذكرها ابن فضل الله العمرى فى ممالك الأبصار فى مسالك الأمصار (المرجع السابق) فقال وقوله أودعكم . . . إلخ .

(٢) أوردها فى الطالع ص ٣٣١ وأنشدنى (يعنى أثير الدين محمد أبو حيان) أيضاً ما أنشده له لنفسه قوله « وقائلة مات . . . إلخ » . وذكرها فى المنهل الصافى فقال وله أيضاً . . . إلخ » .

وراوها فى الأعيان فقال ومن شعره رحمه الله وقائلة . . . إلخ .

ورواها المقريزى فى المقفى عن فتح الدين بن سيد الناس ، إذ قال وأنشد له وقائلة مات . . .

وأوردها فى الوافى فقال « ومن شعره أيضاً وقائلة مات . . . إلخ .

(٣) أسقط فى الوافى هذا البيت .

(٤) هى هكذا فى جميع الروايات وفى الطالع بلفظ (فلوذوا بنابه) وهو تصحيف .

(٥) انفرد بها السبكى فى طبقاته جـ ٦ ص ١١ فقال « وقال (يعنى الشيخ تقى الدين لقد بعدت . . . . إلخ .

لعمرى لقد كلفتها فى مسيرها ... بلوغ مدى قد قلّ فيه احتمالها

وتسألنى رفقاً بها وبضعفها ... ولو خفتّ من شوقى أجبت سؤالها

وللعيش آمالٌ بليلى تعلقت ... أخاف المنايا قبل كونى أنا لها

يقرب لى وصلها حسن لطفها ... ويبعدها استغناؤها ودلالها

وإنى لأرضى اليوم بعد تشوقى ... إلى أن أراها أن يزور خيالها

فبادر إلى نجد ولُذْ بنسيمها ... وبرد جناها ثم طيب ظلالها

وفاح نسيم الروض حتى تعطرت ... رباك بريّاه ورقُ جمالها

وغنت لك الأطيار من كل جانب ... فأطرب أهل الحى منها مآلها

فلا تبخلى أن ترسلى لى نسمة ... تُبلٌّ عليك الشوق منى بلالها

فيا حبذا برق فى أراضى مسرة ... ونفحة ريح من هناك انتقالها

عقدّتْ على حبى لذكرك عقدة ... عسير على مر الزمان انحلالها

مصادر البحث

ا ـ المخطوطة

١ ـ الأبوصيرى ـ لامية البوصيرى ـ نسخة مخطوطة بقلم معتاد بدار الكتب المصرية ـ رقم ١٢٤٤ علم الكلام.

٢ ـ ابن تغرى بردى (أبو المحاسن يوسف) ـ المنهل الصافى ـ نسخة بقلم معتاد بدار الكتب المصرية ـ رقم ١١١٣ تاريخ ٣ مجلدات .

٣ ـ ابن حجر العسقلانى ـ رفع الإصر ـ نسخة مخطوطة بقلم معتاد بدار الكتب المصرية ـ رقم ١٠٥ تاريخ . مجلد واحد .

٤ ـ ابن دقماق ـ الجوهر الثمين ـ نسخة مخطوطة بقلم معتاد بدار الكتب المصرية ـ رقم ١٥٢٢ تاريخ ـ نسخة ضمن مجموعة .

٥ ـ نزهة الأنام ـ نسخة فى مجلدين بدار الكتب المصرية رقم ١٧٤٠ (تصوير شمسى) .

٦ ـ ابن دانيال الموصلى ـ طيف الخيال ـ نسخة مخطوطة (خط قديم) بدار الكتب المصرية رقم ١٦ ألعاب تيمور .

٧ ـ ابن سبط الجوزى ـ كتاب مرآة الزمان ـ فى تاريخ الأعيان ـ بالتصوير الشمسى بدار الكتب المصرية رقم ٥٥١ تاريخ .

٨ ـ ابن شاكر الكتبى ـ عيون التواريخ ـ نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ١٤٩٧ تاريخ .

٩ ـ ابن فضل الله العمرى ـ مسالك الأبصار ـ نسخة مصورة بدار الكتب المصرية رقم ٥٥٩ معارف عامة ـ الموجود منه أربعة عشر جزءاً فى اثنين وأربعين مجلداً .

١٠ ــ إبراهيم بن وصيف شاه المصرى ــ جواهر البحور ووقائع الأمور وعجائب الدهور نسخة محفوظة بدار الكتب المصرية رقم ٢٢٥٥ تاريخ وهى مأخوذة بالتصوير الشمسى عن الأصل المحفوظ بالمتحف البريطانى .

١١ ــ أحمد بن إدريس القرافى ــ العقد المنظوم فى الخصوص والعموم ــ نسخة مخطوطة بقلم معتاد بدار الكتب المصرية رقم (١ ش) .

١٢ ــ جلال الدين السيوطى ــ جزيل المواهب فى اختلاف المذاهب ــ نسخة بدار الكتب المصرية رقم ٣٥ مجاميع .

١٣ ــ حسن بن عمار الشرنبالى ــ العقد الفريد ببيان الراجح من الخلاف فى التقليد . نسخة بقلم معتاد بدار الكتب المصرية رقم ٥٧٠ مصطلح .

١٤ ــ شمس الدين الذهبى ــ تاريخ الإسلام ــ نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ٤٢ تاريخ .

١٥ ــ الصلاح الصفدى ــ الوافى بالوفيات ــ مخطوطة بقلم معتاد ــ بدار الكتب المصرية رقم ٩٤٨ تاريخ تيمور ــ الموجود منه ثلاثة أجزاء فى مجلدين .

١٦ ــ أعيان العصر وأعوان النصر ــ نسخة مصورة عن الأصل المخطوط بقلم معتاد بمكتبة عشرى أفندى بالآستانة . والمصورة بدار الكتب رقم ١٠٩١ تاريخ فى ستة مجلدات .

١٧ ــ عبد الرحيم بن الحسن بن على بن عمر الإسنوى ــ طبقات الشافعية ــ نسخة مخطوطة بقلم معتاد بدار الكتب المصرية رقم ٢٨١ تاريخ تيمور فى مجلد .

١٨ ــ العبدرى ــ رحلة العبدرى ــ صورة فوتوغرافية بدار الكتب المصرية رقم ٢٢١٨ تاريخ تيمور .

١٩ — العينى — عقد الجمان — نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ١٥٨٤ تاريخ .

٢٠ — عياض (القاضى — ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب الإمام . بخط مغربى بدار الكتب المصرية رقم ٢٢٩٣ تاريخ . نسخة فى مجلدين .

٢١ — محمد الحسينى الدمشقى — الاعتبار فى ذكر التواريخ والأخبار وهو المعروف بتاريخ الحسينى — نسخة مخطوطة ضمن مجموعة بدار الكتب المصرية رقم ١١ م .

٢٢ — محمد بن على بن وهب بن دقيق العيد — رسالة فى شأن أهل الذمة — مخطوطة ضمن مجموعة بالخط المغربى بدار الكتب المصرية رقم ١٣٧ مجاميع تيمور .

٢٣ — المقريزى (تقى الدين أحمد بن على) — المقفى — نسخة مصورة عن النسخة المخطوطة بقلم المؤلف بمكتبة باريس . والصورة بدار الكتب المصرية رقم ٥٣٧٢ تاريخ فى مجلدين .

٢٤ — ياقوت الحموى — المقتضب من كتاب جمهرة النسب — نسخة مخطوطة محفوظة بدار الكتب المصرية رقم ٢٧٨٥ تاريخ .

ب — المطبوع

٢٥ — ابن الأثير — الكامل فى التاريخ—مطبعة بريل بمدينة ليدن سنة ١٨٥٣م فى اثنى عشر مجلداً .

٢٦ — اللباب فى تهذيب الأنساب — القاهرة . مطبعة السعادة سنة ١٣٥٧ هـ فى مجلدين .

٢٧ — ابن الحاج — المدخل — القاهرة . المطبعة المصرية ١٣٤٨ هـ

٢٨ — ابن حجر — الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة — طبع الهند ١٩٣٩ م فى أربعة مجلدات .

٢٩ — ابن دقماق (إبراهيم بن محمد بن أيدمر) — الانتصار لواسطة عقد الأمصار القاهرة — مطبعة بولاق سنة ١٣٠٩ هـ فى خمسة أجزاء فى أربعة مجلدات .

٣٠ — ابن شاكر الكتبى — فوات الوفيات — القاهرة — مطبعة بولاق سنة١٢٨٣هـ فى مجلدين .

٣١ — ابن كثير — البداية والنهاية فى التاريخ — القاهرة . مطبعة السعادة سنة ١٣٥٨ هـ فى أربعة عشر جزءاً .

٣٢ — ابن إياس — بدائع الزهور فى وقائع الدهور— القاهرة . المطبعة الأميرية سنة ١٣١١ فى مجلدين .

٣٣ — أبو الفداء — كتاب المختصر — الآستانة — دار الطباعة سنة ١٢٨٦ هـ أربعة أجزاء .

٣٤ — أبو المحاسن (يوسف ابن تغرى بردى) — النجوم الزاهرة فى ملوك مصر القاهرة — مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٥٧ هـ فى ١١ مجلداً .

٣٥ — الإدفوى — الطالع السعيد — القاهرة . مطبعة الجمالية سنة ١٣٣٣هـ

٣٦ ــ أمين باشا سامى ــ تقويم النيل ــ القاهرة . مطبعة دار الكتب ١٩٣٦ .

٣٧ ــ تاج الدين عبد الوهاب بن على السبكى ــ معيد النعم ومبيد النقم ــ القاهرة . مطبعة دار الكتاب العربى ١٣٦٧ هـ مجلد واحد .

٣٨ ــ جمع الجوامع ــ القاهرة . مطبعة مصر ١٣٠٤ هـ .

٣٩ ــ جلال الدين السيوطى ــ حسن المحاضرة ــ القاهرة . مطبعة إدارة الوطن سنة ١٢٩٩ هـ ــ جزءان .

٤٠ ــ تاريخ الخلفاء ــ القاهرة . المطبعة المنيرية سنة ١٣٥١ هـ .

٤١ ــ جمال الدين المعروف بابن مطروح ــ ديوان ابن مطروح ــ الآستانة مطبعة الجوائب سنة ١٢٩٨ هـ .

٤٢ ــ خليل بن أيبك الصفدى ــ الغيث المسجم شرح لامية العجم ــ الإسكندرية . مطبعة إدارة الوطن ١٢٩٠ هـ فى مجلدين .

٤٣ ــ الوافى بالوفيات ــ إستانبول ــ مطبعة الدولة سنة ١٩٣١ . الجزء الأول .

٤٤ ــ شمس الدين الذهبى ــ تذكرة الحفاظ ــ طبع حيدر آباد سنة ١٣٣٣ هـ فى خمسة أجزاء .

٤٥ ــ صفى الدين الحلى ــ العاطل الحالى والمرخص الغالى ــ طبع ألمانيا سنة ١٩٥٥ م .

٤٦ ــ عبد الحى بن العماد الحنبلى ــ شذرات الذهب فى أخبار من ذهب القاهرة . مكتبة القدسى ١٣٥٠ هـ ــ ٨ أجزاء .

٤٧ ــ عبد الوهاب بن على السبكى ــ طبقات الشافعية الكبرى ــ القاهرة . المطبعة الحسينية سنة ١٣٢٤ هـ فى ستة أجزاء .

٣٨ ــ عبد الرحمن بن خلدون ــ العبر وديوان ــ المبتدا والخبر . القاهرة ــ مطبعة بولاق سنة ١٢٨٤ هـ ٨ مجلدات .

٣٩ ــ عبد الرحمن بن إسماعيل ــ الروضتين فى أخبار الدولتين ــ القاهرة .

مطبعة وادى النيل سنة ١٢٨٧ ، جزءان .

٤٠ ــ عز الدين بن عمر الوردى ــ تتمة المختصر فى أخبار البشر ــ القاهرة . المطبعة الوهبية سنة ١٢٨٥ هـ فى مجلدين .

٤١ ــ القلقشندى ــ صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ــ القاهرة . مطبعة بولاق سنة ١٩١٣ ــ ١٩١٩ فى أربعة عشر جزءاً .

٤٢ ــ محمد بن وهب بن دقيق العيد ــ إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام . القاهرة . مطبعة السنة المحمدية سنة ١٣٧٢ هـ فى مجلدين .

٤٣ ــ محمد كامل حسين (الدكتور) ــ دراسات فى الشعر فى العصر الأيوبى القاهرة ــ دار الفكر العربى ١٩٥٨ .

٤٤ ــ فى أدب مصر الفاطمية ــ القاهرة . دار الفكر العربى سنة ١٩٥٠ .

٤٥ ــ محمد بن عبد الرحيم بن الفرات ــ تاريخ مصر . بيروت . المطبعة الأمريكانية سنة ١٩٣٩ ــ المجلد السابع والثامن والتاسع .

٤٥ ــ محمد بن أحمد المشهور بابن جبير ــ رحلة ابن جبير . ليدن ١٨٥٣ م .

٤٦ ــ محمد بن محمد مخلوف ــ شجرة النور الزكية . القاهرة . المطبعة السلفية سنة ١٣٤٩ هـ .

٤٧ ــ المقريزى (تقى الدين أحمد بن على) ــ السلوك فى معرفة دول الملوك القاهرة . مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٣٦ . جزءان فى ستة مجلدات .

٤٨ ــ إغاثة الأمة بكشف الغمة ــ شركة الطباعة بحمص سنة ١٩٥٦ .

٤٩ ــ الخطط ــ القاهرة . مطبعة بولاق فى ثلاثة أجزاء سنة ١٢٧٠ هـ .

٥٠ ــ ياقوت الحموى ــ معجم الأدباء ــ مطبعة دار المأمون سنة ١٣٥٧ هـ فى ٢٠ جزءاً .

فهرست

صفحة

ابن دقيق العيد

يجلو هذا الكتاب ناحية بارزة من نواحى « ابن دقيق العيد » ألا وهى شعره الذى ظل مغموراً فلم يكن يعرف العلماء والأدباء عن هذا الشاعر المجيد إلا أنه قاضٍ من قضاة مصر المرموقين . ومهمة هذه الدراسة التعريف به وبمدرسته الشعرية وبمختلف المجالات التى نظم فيها والتى يتضح منها أن شعره كان صورة صادقة لأحداث عصره والظروف المحيطة به . وموضوع الكتاب فى جملته قسمان : أحدهما يختص بشعر ابن دقيق العيد وبالكشف عن طاقته الشعرية ومنزلته الأدبية . أما الثانى فهو خاص بتفهم حياته فى مختلف أطوارها وفى دراسة العصر الذى كان يعيش فيه من النواحى السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والأدبية .

مكتبة الدراسات الأدبية

● صدر منها

١ — مصادر الشعر الجاهلى وقيمتها التاريخية	للدكتور ناصر الدين الأسد
٢ — شعراء الرابطة التعليمية	للآنسة نادرة جميل سراج
٣ — شوقى شاعر العصر الحديث	للدكتور شوقى ضيف
٤ — الأدب العربى المعاصر فى مصر	للدكتور شوقى ضيف
٥ — فارس بنى عبس	للأستاذ حسن عبد الله القرشى
٦ — ألف ليلة وليلة	للدكتورة سهير القلماوى
٧ — خليل مطران شاعر الأقطار العربية	للدكتور جمال الدين الرمادى
٨ — الشعراء والصعاليك فى العصر الجاهلى	للدكتور يوسف خليف
٩ — منهج الزمخشرى فى تفسير القرآن	للأستاذ مصطفى الصاوى الجوينى
١٠ — التطور والتجديد فى الشعر الأموى	للدكتور شوقى ضيف
١١ — دراسات فى الشعر العربى المعاصر	للدكتور شوقى ضيف
١٢ — شوقى وشعره الإسلامى	للدكتور ماهر حسن فهمى
١٣ — حافظ إبراهيم شاعر النيل	للدكتور عبد الحميد الجندى
١٤ — أدب المهجر	للأستاذ عيسى الناعورى
١٥ — الأدب العربى المعاصر فى سوريا	للأستاذ سامى الكيالى
١٦ — الأدب اليونانى القديم	للدكتور على عبد الواحد وافى
١٧ — النابغة الذبيانى	للدكتور محمد زكى العشماوى
١٨ — ابن دقيق العيد	للأستاذ على صافى حسين

● يصدر قريباً

الفن ومذاهبه فى النثر العربى	للدكتور شوقى ضيف
الفن ومذاهبه فى الشعر العربى	للدكتور شوقى ضيف



دار المعارف للطباعة والنشر والتوزيع